دراسات
في الفكر العربي و مصادره
من شتى العصور

رقـــــــــم التـــصــــــنيف : 306.
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2001/8/1643
المـــؤلـــــف ومن هــــو في حكم : محمد عبد المنعم خفاجي
عـــــنـــــوان الـــكـــتـــــاب : دراسات في الفكر العربي ومصادره من شتى العصور
المـــوضــــوع الــــرئـــيسي : 1. الفكر العربي
2. التاريخ الاسلامي
بيـــــانات الـــنـــشـــر : عمان - دار الفكر
* - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى
1422هـ - 2001م



دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

سوق البتراء (الحجيري) - هاتف ٤٦٢١٩٣٨
فاكس ٤٦٥٤٧٦١ ص.ب ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

Hussein Mosque
Tel. : 4621938 Fax: 4654761
P.OBox: 183520 - Amman - 11118 Jordan

ISBN 9957-07-254-4 (ردمك)

دراسات
في الفكر العربي و مصادره
من شتى العصور

تأليف
د/ محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الأولى

1422-2002



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذه دراسات من الفكر العربي ومصادره من شتى عصوره، ممثلّة من شوامخ أو إبداعات رواده وأعلامه؛ تجلو لنا عظمة هذا الفكر، الذي غذّاه القرآن والاسلام وروح العروبة وحوار الحضارات والثقافات والعقول، وانتفاضات المفكرين والمبدعين، بأطيب غذاء، وأكرم تبع، وأرفع تجديد وإبداع.

وهذه الدراسات التي تقارب الأربعين، تجلو لنا خصائص هذا الفكر وسماته، وإنسانية مبادئه وأصوله واتجاهاته وغاياته، لأنه فكر أصيل يحمل للإنسانية كل القيم الرفيعة، من إيمان بالحقيقة وبالحق ودعوة إلى الحب والسلام والخير والتقدم.

وأحمد الله على أنْ وفق وهدى، ووجَّه وسدَّدَ الخطى، وأعان على بذل المجهود، من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

والله ولي التوفيق

المؤلف

صحيح الإمام البخاري

١٩٤-٢٥٦هـ

-١-

«صحيح البخاري» أصح كتاب من الحديث النبوي الشريف، أو هو عمدة كتب الحديث جميعها.

ويعدُّ أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل، وهو الحجة في أصول الأحكام، وأحاديث رسول الله ﷺ.

والإمام البخاري: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، والده إسماعيل كان عالماً جليلاً، سمع من حماد بن زيد والإمام مالك، وقد جمع العلم والورع والتقوى.

ولد يوم الجمعة بعد الصلاة في ١٣ شوال ١٩٤هـ ببلدة بخارى، مات أبوه وهو صغير، فكفلته أمه.

وفي عام ٢١٠هـ خرج إلى مكة المكرمة حاجاً، وكان يرحل إلى المدينة في بعض الأحيان، وفي الحرمين الشريفين، ألف الإمام البخاري بعض كتبه ووضع أساس «الجامع الصحيح وتراجمه»، وألف «التاريخ الكبير» عند قبر النبي ﷺ، ورحل إلى مصر والشام والجزيرة والبصرة والحجاز والكوفة وبغداد، والتقى بإمام أهل السنة أحمد بن حنبل في بغداد مراراً، وقد كان يستيقظ بالليل أكثر من عشرين مرة، كلما حضرته فائدة أوقد السراج، ثم أطفأه.

وارتحل رحمه الله إلى نيسابور سنة ٢٥٠هـ، فرحب به أهلها، واستقبله محمد بن علي الذهلي عالم نيسابور وشيخها وعلماء نيسابور كافة، ولكن الحاسدين أوقعوا بينه وبين شيخه الذهلي بزعم أن البخاري -رحمه الله- قال بخلق القرآن، فانقطع عن درسه الجميع عدا

الإمام مسلم -رحمه الله- وأحمد بن سلمة.

والإمام البخاري -رحمه الله- بريء من هذه التهمة، فلقد ثبت عنه أنه قال: «من زعم أنني قلت بخلق القرآن فهو كذاب، فالقرآن كلام الله، والصوت صوت القارىء»، ولكن اشتد الخطب عليه من الذهلي، فخرج الإمام البخاري رغبة في القضاء على الفتنة، وتوجه إلى بلدته «بخارى».

ومن بخارى توجه إلى نيسابور، ولكنه توفي قبل أن يصل إليها، وكان في الطريق إليها على بُعد ميلين منها، وذلك عام (٢٥٦هـ) ليلة عيد الفطر.

وجميع ما في «صحيح البخاري» من الأحاديث الموصولة بلا تكرار (٢٦٠٢) حديثا، وبالأحاديث المكررة (٧٣٩٧) حديثاً كما ذكره ابن حجر في شرحه على البخارى «فتح الباري» قسم البخارى كتابه «الصحيح الجامع» إلى كتب، والكتب إلى أبواب، وبلغ عدد الكتب (٩٧) كتابا تبدأ بكتاب «بدء الوحي»، ثم العلم إلخ وأخره كتاب التوحيد، وعدد أبواب الكتاب (٣٤٥٠) باباً.

وقد شرح العلامة ابن حجر الكتاب بكتابه «فتح الباري».

وقد بوب البخاري أبواب الكتاب ووضع أساسه في المسجد الحرام، ثم بين تراجمه وأصوله من الروضة الشريفة.

ابن هشام والسيرة النبوية

ابن هشام هو عبد الملك بن هشام بن أيوب من أشهر من أَلفوا في السيرة النبوية من القدماء ولد ونشأ في مدينة البصرة، وتلقى دراسته في حلقاتها العلمية، حتى برع في العربية وفي الأدب، ثم رحل إلى مصر، وأقام فيها طيلة حياته وجلس في حلقات مسجد عمرو بن العاص، ثم كانت له حلقة علمية متميزة، يدرس فيها السيرة النبوية الشريفة وتوفي بمصر عام (٢١٨هـ).

وقد سبقه بعض العلماء في الكتابة حول سيرة رسول الله ﷺ، وكان من بينهم: أبان بن عثمان بن عفان [ت١٠٥هـ] ومحمد بن شهاب الزهري [ت١٢٤هـ]، ثم محمد بن اسحاق ابن يسار [ت١٥١هـ]، وكان الشافعي يقول: من أراد أن يتبحر في المغازي فعليه بابن اسحاق، وقال الزهري [ت١٢٤هـ]: من أراد المغازي فعليه بابن اسحاق.

ثم ظهر بعده ابن هشام [٢١٨هـ] وشهرته ممتدة عبر التاريخ وكتاب «سيرة ابن هشام» مشهور، ويقع في أربعة أجزاء، وقد شرحه الامام السهيلي في مؤلفه كتاب «الروض الأنف» شرحاً علمياً دقيقاً.

وهذا الكتاب تهذيب لسيرة ابن اسحاق، وتصحيح لبعض رواياتها، وفيه إضافات إليها.

وابن هشام يفتتح كتابه بسرد النسب النبوي الشريف، ثم يتحدث عن ميلاد رسول الله ﷺ ونشأته وبعثته، والمؤمنين الأوائل برسالة الاسلام، وتبليغ الرسول للدعوة، وما لقيه في سبيلها من أذى وتعذيب واضطهاد، وهجرة لفيف من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الحبشة، وعرض الرسول الأكرم الدعوة على القبائل، واستجابة فريق من الأوس والخزرج له، وهجرته -ﷺ- إلى المدينة المنورة وتتابع هجرة الصحابة إليها. ثم يذكر ابن هشام مهادنة رسول الله ﷺ لليهود في يثرب، وبناء المسجد النبوي الشريف فيها.

ويتحدث ابن هشام عن وفود زعماء القبائل إلى المدينة لمبايعة رسول الله على الإسلام، وذلك في السنة التاسعة للهجرة، وهي سنة الوفود، ويذكر رسائل رسول الله إلى الملوك

والأمراء من حلوه للدعوة إلى الإسلام، ثم يتحدث عن انتقاله صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى.

وبذلك أحاط ابن هشام بجوانب السيرة النبوية الشريفة من بدئها.

والكتاب، هو عمدة المؤرخين لسيرة رسول الله وحياته ومواقفه الخالدة في الدعوة إلى الإسلام.

وحسب مصر شرفاً انتساب ابن هشام إليها، وتأليفه كتابه الخالد في السيرة وهو مقيم في ربوعها، وقد روى الكتاب عنه ونسخه منه تلاميذه، حتى عمّ الكتاب شرقاً وغرباً، وذاع صيته في كل مكان.

والكتاب مليء بإضافات ابن هشام التي أضافها إلى سيرة ابن اسحاق، وبتصحيح ابن هشام لروايات ابن اسحاق، ولما ذكره فيها من أشعار، ويتميز الكتاب بأسلوبه البليغ السهل المشرق بنور الإسلام.

وقد كتب كثير من الكتاب مختصرات لسيرة ابن هشام، وآخرهم هو الأستاذ ابراهيم الأبياري رحمه الله.

إن سيرة ابن هشام جدير بالقراءة وخاصة في شهر رمضان المبارك، شهر العبادات والطاعات وشهر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

موسوعة في الحديث النبوي الشريف:

السيوطي إمام الثقافة العربية وشيخ الاسلام في عصره وصاحب أكبر موسوعة علمية من المؤلفات في شتى فنون الشريعة واللغة والتاريخ والأدب، على قصر عمره أن مات عن ثلاثة وستين عاما (٨٤٩-٩١١هـ)، ولا زال اسمه وتراثه ذاكرة خالدة على مر الزمان.

ومن أعظم ما خلفه السيوطي لنا وللأجيال موسوعته الكبرى في حديث رسول الله ﷺ، وهي كتابه الخالد «جامع الأحاديث» الذي يحتوي على الجامع الصغير وزائده والجامع الكبير الذي يطلق عليه جمع الجوامع، ويحتوي ثمانين ألف حديث، وقيل: مائة ألف

حديث، ومن الجامع الكبير نسخة مخطوطة بمكتبة الفاروقي بالمدينة المنورة، ونسخة مخطوطة أخرى بالمكتبة العامة بدمشق.

ولا ريب في أهمية نشر الجامع الكبير مع ما اشتمل عليه من الجامع الصغير للسيوطي أيضاً في حديث رسول الله ﷺ، ومن الزوائد عن الجامع الصغير، مع مراجعة ذلك كله على ما ما في «كنز العمال» من الحديث النبوي للشيخ المحدث المتقى الهندي الذي رتبه حسب أبواب الفقه، وعلى الجامع الأزهر في حديث رسول الله الأنور للعالم المحدث الشيخ المناوي، ومع حذف المكرر من الكل، والعناية بترتيب الأحاديث على حروف المعجم، مما قام بالجهد الكبير فيه علامة المدينة المحدث الشيخ أحمد محمد عبد الجواد.

إن هذه الموسوعة الكبرى في حديث رسول الله ﷺ لتعد معارف ضخمة، تفيد كل مسلم وكل عالم وطالب علم وفقيه ومحدث، ونشر هذه الموسوعة عمل إسلامي كبير خالد.

ولقد قام بطبع هذه الموسوعة في تسعة أجزاء كبيرة، مع الشكل وبعض التعليقات المفيدة الوزير المسلم، والمفكر الاقتصادي الدكتور السيد «حسن عباس زكي» على نفقته الخاصة جزاه الله عن الاسلام والمسلمين، وعن سنة خير المرسلين، وخاتم النبيين، محمد صلوات الله عليه وعلى أصحابه وآله أجمعين.

وقد قدم سيادة لهذه الموسوعة بمقدمة بليغة عن السنة وتدوينها وأشهر مجموعاتها، وصدرت الموسوعة بتصدير للمرحوم فضيلة الشيخ الدكتور الحسيني هاشم وكيل الأزهر الشريف (الذي توفي في السادس من أكتوبر عام ١٩٨٦) رحمه الله وأجزل مثوبته.

إن جامع الأحاديث للإمام السيوطي الذي صدر في طبعة محققة للجامع الصغير والكبير على نفقة المفكر الاسلامي الدكتور حسن عباس زكي، هو «جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده، والجامع الكبير» للامام السيوطي، مصدراً بكلمات لشيخ الأزهر الاسبق الدكتور عبد الحليم محمود، وقام بجمعه وترتيبه الاستاذان عباس أحمد صقر، وأحمد عبد الجواد، وقرأه وراجعه من الأزهريين الاساتذة: محمد المهدي محمود، وشعبان علي خليل، ومحمد الفاتح الكتاني.

ومن كلمات الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله في تقديمه للجامع الكبير نتعرف على الملامح الأساسية لهذا السفر الجليل يقول:

«الإمام السيوطي رضي الله عنه وجزاه خير الجزاء حاول أن يجمع أحاديث النبي ﷺ في جوامعه (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير):

أولاً: مرتبة بحسب الحروف الأبجدية، ويكفي أن تعرف أول كلمة من الحديث الشريف ليسهل عليك الكشف عليه، وتعرف ألفاظه ودرجته من الصحة أو الحسن أو الضعف.

ثانياً: مرتبة بحسب المسانيد، فتعرف ما رواه الصحابي الجليل عن النبي ﷺ في مسنده.

والإمام السيوطي بهذا العمل الجليل قد خدم السنة المطهرة وأدى خدمة لجميع الباحثين عن أحاديث النبي ﷺ مرتبة أبجدياً ومرتبة مسانيد».

وبهذا يكون جامع الأحاديث أكبر موسوعة نبوية لم يسبق لأحد أن جمعها قبل الحافظ السيوطي.

وقد ذكر الحافظ السيوطي في ديباجة جوامعه بأنه قسم أحاديث النبي ﷺ إلى قسمين:

الأول: قسم الأقوال وهي مرتبة بحسب الحروف الأبجدية ويكفى أن تعرف أول كلمة من الحديث الشريف فيسهل عليك الكشف عليه فتعرف ألفاظه ودرجته من الصحة أو الحسن أو الضعف.

الثاني: قسم الأفعال: مرتبة بحسب المسانيد.

وبهذا يكون السيوطي واخوانه من الحفاظ قد خدموا السنة المطهرة وأدوا خدمة لجميع الباحثين عن أحاديث النبي ﷺ مرتبة أبجدية، ومرتبة مسانيد أو مراسيل.

وقيل عن الجامع الكبير للامام السيوطي: إنه أجمع كتاب للسنة، ولذلك جَدّ العلماء في البحث وجَدّ الدكتور حسن عباس زكي في إخراجه للناس مجاناً يبغي بذلك وجه الله وحده، ولا سيما أن الجامع الكبير كان مختفياً بين المخطوطات، ونسخه في مكتبات العالم وخزائن الملوك تعد على أصابع اليد الواحدة. وكان العلماء يسمعون عنه ولم يروه ويتحدثون في

شأنه بالحق أو بالباطل دون الاطلاع عليه:

قال السيوطي في مقدمته: أما بعد... فإن علم الحديث رفيع القدر عظيم الفخر شريف الذكر، لا يعتني به إلا كل جد ولا يحرمه إلا كل غمر(غير مجرب) ولا تعنى محاسنه على مر الدهر. وكنت ممن عبر إلى لجة قاموسه (معظم ماء البحر)... مع ما أبدى الله تعالى به من العلوم.

والسيوطي من أقدر العلماء على معرفة الأحاديث الموضوعة وجمعها لتنقية السنة منها وللتعريف بها للدارسين. وقد جمع الأحاديث الموضوعة في كتاب سماه (اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) ليتجنبها العلماء ولذلك يقول السيوطي: «فإن من مهمات الدين التنبيه على ما وضع من الحديث واختلق على سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحابته أجمعين».

فالسيوطي مدافع عن سنة رسول الله ﷺ. وهو كعالم للحديث له مقاييسه الصحيحة المتفق عليها عند علماء الحديث. فهو يفرق بين الحديث الصحيح والحسن والضعيف ولا يخلط بين الحديث الضعيف والمكذوب. ويعرف ذلك كل من يرجع إلى أمهات أصول الحديث ومنها كتاب تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي، وإن تعمد الخلط بين أنواع الحديث يعتبر من الكذب على رسول الله ﷺ. يقول المحدث العلامة علاء الدين ابن حسام الدين المشهور بالمتقي الهندي:

«إني وقفت على كثير مما دونه الأئمة في كتب الحديث، فلم أر فيها أكثر جمعاً ولا أكثر نفعاً من كتاب جمع الجوامع الذي ألفه العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي سقى الله ثراه وجعل الجنة مثواه، حيث جمع فيه من الأصول الستة البخاري ومسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وابن ماجه وغيرها الآتي ذكرها عند رموز الكتاب، وأودع فيه من الأحاديث ألوفاً من الآثار صنوفاً وأجاد فيه كل الاجادة مع كثرة الجدوى وحسن الإفادة».

الكشاف في تفسير القرآن الكريم

لجار الله الإمام الزمخشري

-١-

«الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»

لجار الله الزمخشري، من أشهر كتب التفسير لكتاب الله الحكيم، بل لم يؤلف في بابه مثله جودة وإتقاناً، ولم يدرك شأوه فيه إنسان.

ومؤلفه الزمخشري من أشهر علماء القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي: هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم، جار الله الزمخشري نسبة إلى زمخشر إحدى قرى خوارزم - من بلاد ما وراء النهر - المتوفى عام (٥٣٨هـ- ١١٤٤م).

والزمخشري كتب عنه كثيرون:

١- كتب عنه مفسراً د. مصطفى الجويني كتاباً ظهر في طبعتين باسمين مختلفين، هما: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، ومنهج الزمخشري في تفسير الكشاف.

٢- وكتب عنه لغوياً د. مرتضى الشيرازي.

٣- وكتب عنه بلاغياً د. محمد الرموسى كتاباً ظهر أيضاً في طبعتين باسمين مختلفين هما: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري والبحث البلاغي في تفسير الكشاف.

وكتب عنه رسائل جامعية كثيرة منها:

١- الزمخشري أديباً وشاعراً - ماجستير بمعهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة - للباحثة ماجدة صبحي - ١٩٩٦م.

٢- نحو الزمخشري - لزكريا الفقى - ماجستير - جامعة الإسكندرية ١٩٨١م.

٣- الزمخشري وأثره في الدراسات النحوية - دار العلوم بالقاهرة - ماجستير ١٩٦٧م.

٤- علاقة البلاغة بالنحو عند الزمخشري - تامر سلوم - جامعة القاهرة- ١٩٧٦- ماجستير.

٥- علاقة التفسير بالبلاغة عند الزمخشري - ماجستير- عملا ملا- جامعة القاهرة ١٩٦٥م.

٦- الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري - فاضل السامرائي- دكتوراه- جامعة عين شمس ١٩٦٨م.

٧- البلاغة عند الزمخشري - دكتوراه- مصطفى ناصف- جامعة عين شمس ١٩٥٢م.

٨- المصطلح النحوي البصري من سيبويه إلى الزمخشري - ماجستير- يحيى السالم- جامعة اليرموك ١٩٨٤م.

٩- منهج الزمخشري في تفسير القرآن - دكتوراه مصطفى الجويني - جامعة الإسكندرية.

١٠- وفي كلية اللغة العربية بالقاهرة رسالة عنه شاعرا.

وللزمخشري مؤلفات عديدة من أشهرها الكشاف وكتبه: أساس البلاغة في اللغة. والمفصل في النحو والقسطاس في العروض، والمستقصى في الأمثال، وربيع الأبرار في المحاضرات والأدب، وشرح لامية العرب للشنفري، وأطواق الذهب، وهي كتب مشهورة، وله عدا ذلك الكثير من المؤلفات وديوان شعر كبير.

-٢-

والزمخشري عاش ما بين عامي (٤٦٧-٥٣٨هـ) بين زمخشر وبخارى وخراسان وأصبهان وبغداد ومكة المكرمة حيث جاور الحرم عامين رجع بعدهما إلى خوارزم، ثم عاد إلى مكة، وجاور الحرم الشريف ثلاث سنين أخرى، وبسبب ذلك لقب بجار الله، وفي البلد الحرام ألف كشافه ثم رجع إلى خوارزم، وبها توفي عام (٥٣٨هـ)، حيث لقي ربه في «جرجانية» عاصمة خوارزم، ويقول بارتولد - المستشرق الروسي - عن خوازم: إنها كانت من قديم

بيئة حضارية كبيرة في آسيا الوسطى، كما كانت نزعة الاعتزال سائدة فيها، وغالبة على علمائها.

وثقافة الزمخشري في النحو والبلاغة واللغة، وفي الحديث والتفسير لطاقة واسعة، إلى شاعريته وأدبه، ويقول الإمام الذهبي فيه في كتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» إنه «كان داعية إلى الاعتزال» (١٥٤ جـ ٣ ميزان الاعتزال)، وليس ذلك بغريب على الزمخشري، الذي نشأ في بيئة الاعتزال في خوارزم، والذي قال في مقدمة تفسيره «الكشاف» إنه ألف هذا التفسير إجابة لمقترح إخوانه في الدين، من أفاضل الفئة الناجية العدلية - أي المعتزلة- ويصف المعتزلة بأنهم علماء العدل والتوحيد (ص ٢٩٧ جـ ١ الكشاف طبعة الحلبي ١٣٠٨هـ) عند تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

والمعتزلة يصفون أنفسهم بأنهم أهل التوحيد لتنزيههم الكامل للذات العلية، وأنهم أهل العدل لأن الله عندهم لا يحب الشر والفساد ولا يفعل القبائح، وأنه يريد خير ما يمكن لخلقه، وأن الخلق مخلوقون لغاية، وأنهم أحرار الإرادة يخلقون أفعالهم، ويثابون ويعاقبون عليها، ومن ثم فهم يذهبون -المعتزلون- كذلك إلى مذهبهم في الوعد والوعيد حيث يرون أن الثواب المستحق للعبد واجب على الله وأن الكافر مخلد في النار، ولا غفران لكبيرة إلا بعد التوبة؛ وهم كذلك يذهبون إلى أن العاصي في منزلة بين المنزلتين أي بين الإيمان والكفر . . . بينما يذهب الخوارج إلى أن العاصي يعد كافراً، ويذهب المرجئة إلى أنه ما زال مؤمناً؛ ويذهب المعتزليون إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الدين.

-٣-

ويوضح لنا الزمخشري في مقدمة «الكشاف» أنه ألف كتابه في تفسير كتاب الله إجابة لطلب إخوانه في الدين، من أفاضل الفئة الناجية - العدلية - يريد بهم المعتزلة- الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية؛ وكلما رجعوا إليه في تفسير آية، فيبرز لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستُطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك.

ويقول: إنهم اجتمعوا إليه مقترحين أن يملي عليهم الكشف عن «حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» فاستعفى فأبوا إلا المراجعة واستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد - وهم المعتزلة طبعاً-.

ويقول: إنه لما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، توجه تلقاء مكة، فوجد في مجتازه - أي رحلته - بكل بلد فيه مُسْكَةٌ من أهلها، وقيل: ما هم، عطشى الأكباد، فهزَّ ما رأى من عطفه، وحرك الساكن من نشاطه، فلما أناخ رحله بمكة، غذا هو بالسنة الشيعية، من الدوحة الحسنية، الأمير الشريف الإمام أبي الحسن علي بن حمزة بن هاوس، أعطش الناس كبراً، حتى لقد ذكر أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبته عن الحجاز، مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي، وطي المهامه، والوفادة عليه بخوارزم، ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض.

وهكذا نرى الزمخشري يفتخر باعتزاليته ويصرح بأنه في تفسيره لكتاب الله ينتصر لمذهبه في الاعتزال، ويوجه التأويل لنصرة هذا المذهب؛ وبثقافته الواسعة في علوم العربية، وفي البلاغة على وجه الخصوص، لا يترك مدخلاً في التفسير إلى مجاز أو كناية أو استعارة تؤيد مذهبه إلا استخدمها في الانتصار لاعتزاليته.

وقد وقف الزمخشري طويلاً في التفسير عند الاستعارة والتشبيه والمجاز والاستعارة التمثيلية، يستدل بذلك على مذهب المعتزلة، ويؤول الآيات على نهج ما يرى ويرى معه إخوانه المعتزلة.

وفي هذا المجال ترك لنا الزمخشري في تفسيره آراء جديدة كثيرة في البلاغة - معاني - وبياناً وبديعاً - وكشف عن كثير من أسرار البلاغة القرآنية، مما جعل كشافه فريداً في بابه، وجديداً في موضوعه.

-٤-

والتفسير علم له مكانته بين العلوم الإسلامية الكبرى - كما يقول السيوطي في كتابه «الإتقان» - من جهات ثلاث: من جهة الموضوع لأن موضوع التفسير هو كلام الله تعالى

الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، ومن جهة الغرض لأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى؛ ومن جهة شدة الحاجة لأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو اجل، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله.

وقد جهد المسلمون منذ نزول الرسالة، وفي مقدمتهم صاحب الرسالة العظمى، وصحابة رسول الله، في تفسير كتاب الله وتأويل آياته والكشف عن معانيه ومراميه، بكل ما استطاعوا وما وسعه علمهم، وقد ذكر السيوطي أنه جمع كتاباً مسنداً فيه تفاسير الرسول ﷺ وسماه «ترجمان القرآن» وأنه استطاع أن يجمع فيه أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي والصحابة، وصنع من هذا الكتاب مختصراً هو كتابه المطبوع «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

وكان عبد الله بن عباس - ت ٦٨هـ- يسمى أو يلقب بترجمان القرآن، وقال فيه ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس» ويرجح بعض الباحثين أن التفسير المنسوب لابن عباس والمطبوع بعنوان «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» ليس لابن عباس، وإنما هو لمجد الدين الفيروزأبادي صاحب «القاموس المحيط» ومن الصحابة الذين فسروا آيات كتاب الله: علي بن أبي طالب (٤١هـ) وعبد الله بن مسعود (٣٦هـ) وزيد بن ثابت (٥٤هـ) وسواهم.

وكان ابن مسعود يقول: «والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»، وتابع التابعون خدمتهم لكتاب الله، وتفسيرهم لمعانيه.

على أن أعظم كتاب يضم المأثور من التفسير هو تفسير محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، وقد اشتهر تفسير الطبري، وعد «أبا التفاسير» وحظي بمكانة عالية عند جمهور المسلمين عامة.

وإذا كان تفسير الكشاف يُعد تفسيراً بلاغياً لكتاب الله، فإن البلاغة هي شرح لأسرار إعجاز القرآن الكريم من حيث روعة النظم، وبلاغة الأسلوب وسحر اللفظ وجمال المبنى، الذي ينضوي تحته جلال المعنى.

على أن الإمام محمد عبده يذهب إلى أن عناية المفسرين بالبلاغة أو النحو أو الفلسفة يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم المضمون والمعنى الحقيقي. والتفسير الذي يريده الإمام هو تجلية معاني القرآن والكشف عنها لفهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصود الأعلى منه؛ وما وراء هذه المباحث تابع له، أو وسيلة لتحصيله.

ويرى الشيخ محمود شلتوت أن لتفسير القرآن الكريم طريقتين: إحداهما أن يسير المفسر بتفسيره مع آيات الذكر الحكيم وسورة على الترتيب القرآني المأثور، والثانية أن يعمد المفسر أولا إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ويدرسها دراسة الممعن في فهمها وشرحها وتحليلها، والطريقة الثانية هي المثلى وهي الدراسة الموضوعية عند شيخنا الجليل، رحمه الله رحمة سابغة.

-٥-

إن التأويل عند الزمخشري في كشافه جوهر أصيل، وأساس كبير في فهم مضامين كتاب الله، والتأويل يعود ببلاغة القرآن إلى وجوه الاستعارة والتشبيه والمجاز والكناية وما إلى ذلك كله.

ويقول ابن خلدون في المقدمة: إن التفسير قسمان: تفسير نقلي أي بالمأثور، وتفسير يرجع المفسر فيه إلى اللسان، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة وتأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب، وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول.

على أن التفسير بالرأي يرجع إلى بلاغة الكلمة العربية والأسلوب العربي ويؤول الآية وفق ما تراه بلاغة اللسان العربي، ومذهب الذي يفسرون القرآن بالرأي والعقل يرجع أولاً إلى طائفة المعتزلة التي علا شأنها في أوائل العصر العباسي، وابتدعت فتنة «خلق القرآن» وقد توسع المعتزلة في التفسير بالرأي حتى لا يقع خلاف بين النص القرآني والعقل، وحتى ينفوا عن الله سبحانه ما يوهم ظاهره أنه من صفات الحوادث، فهم مثلاً عندما يتناولون الآية

الكريمة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]. يقولون إن الخليل بمعنى الصديق ليس هو المراد هنا، وإنما المراد المحتاج ويستشهدون على ذلك بقول الشاعر:

وإن أتـاه خليـلٌ يـومَ مَسغَبَـةٍ يقـول لا غـائـب مـالـي ولا حـرم

والمفسر بالرأي يعتمد على اللغة والبلاغة في فهم المراد، وتفسير «الكشاف» يكاد يكون معنياً بالناحيتين النحوية والبلاغية قبل كل شيء.

ويقول المستشرق جولد تسهير عن الزمخشري: إنه لم يبد مفسر نشاطاً واجتهاداً أكثر من الزمخشري في بيان الإعجاز البلاغي لنظم القرآن؛ ويعلل ابن خلدون تلك الظاهرة المتجلية في عناية أهل المشرق بفن البيان والبلاغة أكثر من المغاربة بأن الناس في المشرق على خلاف المغاربة يعنون بتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن، وهو أصله.

وعند تفسيره الآية الثانية في سورة البقرة يبدو منهج الزمخشري واضحاً، فبعد أن يذكر الإعراب في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يعقب على ذلك كله بقوله: والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال . . . إلخ»، ثم يمضي في ذكر وجوه البلاغة التي تبين أن في هذه الآيات الكريمة إعجازاً يفوق كل إعجاز، من حيث النظم وبلاغة الكلام. فقد وقفوا عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

فبدلاً من أن يقرأوا كلمة «غُلف» بضم فسكون، قرأوها بضمتين، أي: جمع «غلاف» أي وعاء، كأنهم يفتخرون بأن قلوبهم أوعية للعلم، وإنما لجأ المعتزلة إلى ذلك حتى لا يقال: إن طبيعة قلوبهم هي المانع لهم من قبول الإسلام، فلا يكون عليهم ذنب في الكفر لأنهم هكذا خلقهم الله.

وللمعتزلة نزعتهم العقلية، واحترام حرية العقل لا يتعارض مع النص، وكذلك كان جار الله يفتخر باعتزاله وبكشافه الذي أبان فيه عن اعتزاليته حتى ليقول عن تفسيره «الكشاف»:

إن التفـاسيـر فـي الـدنيـا بـلا عـدد وليـس فيهـا لعمـري مثـل كشـافـي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

والزمخشري يستخدم كل ثقافاته وعلومه ومعارفه في تفسيره وفي توجيه فهم معاني الآيات توجيهاً يخدم مذهبه الاعتزالي، عند كل مناسبة قريبة أو بعيدة، وكأنما دلالات النص القرآني ومعانيه القريبة وغير القريبة لا تؤدي إلا إلى هذه المفاهيم الاعتزالية المذهبية، مما ترصده ابن المنير في تعليقاته على «الكشاف»، ويعجب الزمخشري في بعض الأحاديين عجبا كثيراً من أن يفهم بعض الناس من هذه الآيات غير هذا الذي يقرره، مع كثير من تطاول الزمخشري على مخالفيه في الرأي.

وفي سورة «ص» الآية: ٢٩، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول جار الله: إنما هو التفكير فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها، من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، ويقول: اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين . . . ويقول عن أمثل هؤلاء: والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة (جمع وازع): ويقول: إن بعض هؤلاء ليقول: والله لقد قرأت القرآن، فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل.

وهكذا يمضي الزمخشري في تفسيره، مؤولاً، ومجادلاً لخصومه في الرأي هادئاً حيناً ومحتداً مغيظاً حيناً آخر.

وذهب الزمخشري واعتزاله، وبقي تفسيره الكشاف متضمناً أجل تحليل بياني بلاغي لأساليب كتاب الله، ولبلاغته ولجلال نظمه، ولشرح أسرار الإعجاز فيه.

تفسير القرآن الكريم

للإمام النيسابوري

وقف المفسرون لكتاب الله العزيز حيال هذه المعجزة الإلهية الكبرى مواقف عديدة، فمن مفسر يولي اهتمامه للأحكام، ومن آخر يعنى في تفسيره بأمور التوحيد، ومن ثالث يتجه اتجاهاً بلاغياً أو أدبياً أو لغوياً في تفسيره، وكان الشيخ طنطاوي جوهري يولي في تفسيره جل عنايته للجانب العلمي في كتاب الله . . . ولكن الإمام النيسابوي (ت٧٢٨هـ) قد سلك طريقاً جديداً في تفسيره للقرآن الحكيم، فاتجه فيه اتجاهاً صوفياً فريداً، وهو اتجاه لم يسبقه فيه أحد من المفسرين، حيث عنى بالوجدانيات وبالالهامات وبالرموز الاشارية التي قد تدل عليها آيات الذكر الحكيم.

وتفسير الإمام النيسابوري يجمع زبدة تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وتفسير الامام الرازي (٦٠٦هـ) وهو يختار الأحاديث النبوية من كتب الصحاح المتميزة كجامع الأصول، والمصابيح، وغيرهما، ويعتمد في أسباب النزول على كتاب «جامع الأصول» وعلى «تفسير الواحدي»، وفي اللغة على «صحاح الجوهري»، وفي البلاغة على «المفتاح» للسكاكي (٦٢٦هـ)، وعلى كتب البلاغة المتقدمة، وفي الأحكام الشرعية على كتاب «شرح الوجيز» للامام الرافعي، وعلى الجملة فقد اعتمد على كتب التاريخ القديمة في البيان والبلاغة، وفي علوم الأصولية بفروعها، وفي العلوم الحكمية بمجملها وتفاصيلها، في فهم معاني كتاب الله العزيز.

والاتجاه الصوفي في هذا التفسير واضح كل الوضوح، في عنايته بالوجدانيات، وبالالهامات، وبالجانب الرمزي الاشاري في دلالات آيات الله، وبالعرض للمواقف والمقامات والأحوال، كان الامام النيسابوري الحسن بمحمد بن الحسين من أئمة العلماء في نيسابور متضلعاً في العلوم العقلية، وإماماً في علوم العربية، وله مؤلفات كثيرة، منها تفسيره الذي هو موضوعنا في هذه الكلمة، كما كان نابغة في علم التوحيد والكلام، والفلسفة

الصوفية وفي علوم القراءات. وقد سمى تفسيره باسم «غرائب القرآن ورغائب الفرقان».

وقد صدر أخيراً هذا التفسير في طبعة متميزة في أربعة أجزاء عن دار الصفوة. وكتب له تصديراً صاحب دار الصفوة، وكتب مقدمة له الاستاذ الكبير الدكتور حسن عباس زكي، ويقول الدكتور في مقدمته عن هذا التفسير الجليل: إنه جمع بين أحكام القراءات وأحكام القرآن، والدلالة على معانيه وحكمه وأسراره وإشارته ومواعظه وهدايته، بما قد لا يفسر مثله بمثل ما جاء فيه، مع دقة العرض، وحسن الاستشهاد، وسلاسة الاسلوب واستيعاب ما تيسر له من المعنى.

وهذا العمل الاسلامي الجليل، جدير بالتقدير والحمد، وبالدعاء الى الله عز وجل أن يجزل الأجر لصانعيه، والله يتولى الدكتور حسن عباس زكي بمثوبته، على ما صنع من خير، وما قدم من أعمال صالحات لخير الاسلام ولكتابه الحكيم.

تفسير القرآن الحكيم

للخفاجي

تفسير جليل لكتاب الله الخالد، ألفه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الأستاذ بالأزهر الشريف، في «٣٠» جزءاً، كل جزء يقع في نحو (٣٠٠) صفحة . . . وقد طبع منه «١٣» جزءاً . . نفذت كلها ولقيت اهتمام العلماء في شتى أنحاء العالم الإسلامي . . . وباقي التفسير مما يزال مخطوطاً.

والتفسير كله بأجزائه الثلاثين عمل اسلامي كبير، يخدم كتاب الله، ويخدم الفكر الاسلامي كله، ويخدم المسلمين كافة.

ويمتاز هذا التفسير بأنه خلاصة دقيقة لأفكار المفسرين عامة في كتاب الله، وبأنه ينهج نهجاً علمياً سلفياً متميزاً، وبأنه يفند أقوال دعاة الالحاد والشرك القديم والحديث، ويرد على دعاة الخرافات والضلال والاوهام ردوداً مقنعة.

كما يمتاز بتحليله الأدبي والتاريخي والديني لكل ما ورد في القرآن الكريم من أحداث، ويجمعه الشامل لك أفكار العلماء المسلمين في قضايا العالم الإسلامي ومشكلات المسلمين، وقد شهد له علماء الاسلام بأنه تفسير العصر الشامل لكل معاني القرآن الكريم ومفاهيمه.

ابن المقفع ومؤلفاته

ستة وثلاثون عاماً قضاها عبد الله بن المقفع، هي كل عمر هذا الفتى الشاب الذي أودع الفكر العربي أسمى روائعه وأثمن كنوزه، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاماً هي مرحلة طفولته وصباه، كانت هذا الحِكَم الرفيعة والآداب الخالدة والآثار الباهرة، نتاج عشرين عاماً، هي كل حياة ابن المقفع الأدبية والفكرية، وهو نتاج لو نسب لمعمر بلغ المائة أو جاوزها، لكان كثيراً عليه، ولكان دليل عبقرية فذة ومواهب فائقة.

ولقد شهد له معاصروه بشدة الذكاء، وحصافة الملكات وبسعة الثقافة. قالوا: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد، ولا كان في المعجم أذكى من ابن المقفع. واجتمع الخليل وابن المقفع فمكثا مدة يتجاذبان أطراف الحديث، فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال: ما شئت من علم إلا أن علمه أكثر من عقله. وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال: ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه. ووصفه الجاحظ فقال: كان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير.

ويعد ابن المقفع من أفذاذ الأدباء والمفكرين في تاريخنا العقلي.

فهو من الجانب الأدبي قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة في الأفكار والمعاني والأغراض، بل وفي الأساليب ايضاً، ومنحها أعظم ما استطاع أديب عربي ان يمحنها إياه من ثراء في الأداء والتعبير، وغنى في التخيل والتصوير وسعة في المعاني والتجارب والتفكير، بل قد كساها حللاً رائعة بمؤلفاته وترجمانه التي حفظت على العربية شبابها ورواءها. ويذهب لفيف من النقاد، من بينهم الدكتور طه حسين والمستشرق الفرنسي مارسيه، إلى أن النثر الفني مدين في وجوده في أدبنا العربي لابن المقفع، فهو في نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات النثرية الجديدة، وهو أول مؤلف للانشاء الأدبي في اللغة العربية. ومهما كان في هذا الرأي من مغالاة، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب في العصر العباسي، وقد آخى في طريقته بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية، واستخلص من الأدبين الفارسي والعربي، اللذان كان يجيدهما، طريقه عُرفت به وأخذت عنه. وتظهر مزيته في ترتيب أفكاره وحسن تقسيمها. وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه،

وعذوبة ألفاظه، حتى لتبدو مشرقة الجبين، ناصعة البيان. ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه ولا ألفاظه تستهلك معانيه، وكان يقدّر اللفظ على المعنى تقديراً واعياً.

وأسلوب ابن المقفع في سلاسته وجزالته وجماله وسحره، يمثل رأيه في البلاغة التي كان يعرفها بأنها هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها. وكان يتجنب الغرابة والحوشية، ويقول: إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العي الأكبر. وفي حرصه على الإيجاز ما يبرر قوله: الإيجاز هو البلاغة.

إن ابن المقفع، من الجانب الأدبي، يعد أمةً وحدَهُ في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني إلى بيان غرض وسهولة لفظ ورشاقة أسلوب، وله فضل كبير في تطور فن القصة في الأدب العربي.

ويصفه الوزير جعفر بن يحيى البرمكي، هو وطبقته من الكتاب، فيقول: عبد الحميد الكاتب أصل، وسهل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر.

أما ابن المقفع من الجانب الفكري فعملاق جبار، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحِكَمه وآراؤه وتآليفه.

كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين العربية والفارسية، نقل خير ما باللغة الفهلوية إلى اللسان العربي، وزاد عليه الكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه في الحياة.

نجده في كتابيه الأدب الصغير والأدب الكبير اللذين جمع فيهما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء في الأخلاق والآداب وتربية النفس وسياسة الملك، كان يحاول أن يرسم خطوطاً عريضة لمجتمع قوي تسوده المحبة والطمأنينة والثقة والصداقة، وفي الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية وصور من النظم الساسانية في الحكم، وإذا كان فيهما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان، فهي منقولة من الفرس الذين تأثروا - فيما تأثروا- بالمذاهب اليونانية ويرجح كثيرون أن كتابه الدرة اليتيمة هو كتاب الأدب الكبير نفسه.

وكتاب كليلة ودمنة كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية في عهد كسرى أنو شروان وأضاف الفرس عليه أبواباً مثل باب بعثة برزويخ فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية وأضاف عليه فصولاً جديدة مثل باب غرض الكتاب وباب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والمضيف، وباب البطة ومالك الحزين.

ويرجح بعض المستشرقين، ومنهم هرتل وغيره، أن الباب الأول، وهو مقدمة الكتاب، من إضافة علي بن الشاه الفارسي المتوفى عام (٣٠٢هـ)، وفي هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية، ويبدو أن روح الاصلاح الاجتماعي التي انطوت عليها جوانح ابن المقفع هي التي دفعته الى ترجمته، وهو يعدّ من نفائس الآثار الفكرية ومن روائع كتب الأدب العربي، وقد ترجم إلى اللغات العالمية واحتل منزلة سامية في الفكر الانساني.

ومن الكتب المفقودة التي ترجمها ابن المقفع خداينامة أي سير ملوك الفرس وتاريخهم. وكتاب التاج، أما كتب الفلسفة اليونانية، التي تُنسب إليه ترجمتها، فمترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد، وليست من ترجمة ابن المقفع نفسه.

هذا هو ابن المقفع الذي كان ميلاده بخورستان بفارس في قرية تسمى جور، من أبوين فارسيين عام (١٠٦هـ- ٧٢٤ ميلادية)، وكان أبوه قد سماه روزبة، وكان والده داذوي يتولى كتابة خراج فارس للحجاج بن يوسف ونقم عليه الحجاج، فضربه حتى تقفعت يده، فلقب بالمقفع، وعرف ابنه بابن المقفع. ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه في البصرة يستظلان بولاء آل الاهتم المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة، وتلقى ثقافته الأدبية في بيئة البصرة، حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق المربد. وعمل في كتابة الرسائل لولاة بني أمية على بلاد فارس، فكتب لداود بن هبيرة حتى قامت الدولة العباسية في (١٣ ربيع الأول ١٣٢هـ- ٣٠ أكتوبر ٧٤٩م)، وقتل داود، ثم كتب لعيسى بن علي عم الخليفة العباسي أيام ولايته على كرمان عامي (١٣٢ و١٣٣هـ)، وأسلم على يديه، وكتب بعده لسليمان بن علي أيام ولايته على البصرة من عامي (١٣٢ - ١٣٩هـ)، ثم ولي البصرة بعده سفيان بن معاوية، فنقم على ابن المقفع لانتمائه لأعمام الخليفة الذين غضب عليهم المنصور. واضطُهد ابن المقفع وقُتل عام (١٤٣هـ- ٧٦٠م).

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربي وأمثلة رفيعة يحتذيها البلغاء والأدباء في كل عصر وجيل، مات المفكر العظيم الذي جمع بين عقل الحكيم وتفكيره، وطبع الأديب وذوقه، والذي كانت حياته مثالاً رفيعاً للانسانية وللسمو النفسي والخلقي، مات هذا الشاب الفارسي الأصل العربي اللسان، ولكن ذكره لم يمت لأن آثاره الأدبية لا تزال حية باقية لن تموت.

البيان والتبيين

للجاحظ

-١-

يصف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ: ٧٦٧-٨٦٨م) كتابه «البيان والتبيين» بأنه قد «جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي[١]».

وقد ألفه بعد «الحيوان»، وأهداه إلى أحمد بن أبي داود[٢]، فكآفاه عليه بخمسة آلاف دينار، ويشير فيه إلى كتاب «الحيوان»[٣]، فيقول مثلا: كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار[٤]، والجزء من الكتاب يسمى «مصحفاً».

وكان لظهور كتاب «البيان والتبيين» دوى في شتى الأوساط والبيئات، وعند مختلف العلماء والأدباء، وحمل بعد ظهوره إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات، وعده المسعودي من أشرف كتب الجاحظ، وقال عنه: إنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار[٥]، ونوه به أبو هلال العسكري وعده من أشهر كتب البلاغة[٦]، ثم استطرد إلى أنه لم يبن عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة[٧]، وقال

---

(١) (٣: ٧٥) كتاب البيان والتبيين تحقيق السندوبي.

(٢) من أئمة المعتزلة وكان صاحب نفوذ واسع في دولة الخلافة، ولي القضاء للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وتوفي عام (٢٤٠هـ).

(٣) راجع (١: ١٣٨، ٣: ١٧٣ و٣٠٢) البيان والتبيين.

(٤) (٣: ٣٠٢) البيان والتبيين (طبع الخانجي).

(٥) (٤: ١٩٦) مروج الذهب للمسعودي.

(٦) (٦ و٧) الصناعتين - طبعة صبيح.

(٧) (١٧١:١) العمدة.

ابن رشيق (٣٩٠-٤٦٣هـ) عنه: إنه لا يُبلغ جودة وفضلاً[١]، وجعله ابن خلدون (٨٠٨هـ) أحد أركان الأدب الأربعة.

والكتاب - بلا ريب- كان مصدراً لثقافة الأدباء والشعراء العرب على طول العصور، ومن مادته الواسعة نهل الكتاب والبلغاء والمؤلفون قديماً وحديثاً، ومن أوائلهم: ابن قتيبة (٢٧٦هـ) والمبرد (-٢٨٥هـ)، وابن عبد ربه الأندلسي صاحب «العقد الفريد» (-٣٢٩هـ)، وأبو هلال العسكري (-٣٩٥) في الصناعتين، وعبد القاهر الجرجاني (٤٠٠ -٤٧١ هـ) في «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة»، وأسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ) في كتابه «لباب الأداب»، وابن الأثير (-٦٣٧هـ) في كتابه «المثل السائر»، وسواهم.

وهو أول سفر ظهر في الأدب جامعاً لفنون كثيرة منه، ولأنواع عدة من اللغة والأدب والخطابة والشعر، ويأتي على ذكر الخطباء والبلغاء والمنشئين وآثارهم، وهو من أجل الوثائق الأدبية في الجاهلية والاسلام[٢]. ويبلغ جودة ومنزلة[٣]، فقد جمع بين دفتيه الكثير من بلاغات العرب ومن أصول النقد والبلاغة.

والكتاب في مجمل الأمر ثمرة من ثمرات الرجولة المكتهلة، والفكر الذكي، وقد خدم الجاحظ به قضية البيان خدمة لا تقدر.

وفضلاً عن أنه أصل من أصول الأدب فإن قيمته في البيان العربية كبيرة، لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها وألوانها ومذاهبها، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من ابتكاره وتجديده وقد أخذ علماء الأدب والبلاغة بعده منه كل العناصر التي كتبها في هذا السفر الكبير: كابن قتيبة (٢٧٦١هـ)، وابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ)، وابن المدبر (-٢٧٩هـ)، وقدامة بن جعفر (-٢٣٧هـ)، والآمدي (-٣٧١هـ) صاحب «الموازنة»، والقاضي الجرجاني (-٣٩٢هـ) صاحب «الوساطة» وأبي هلال العسكري (-٣٩٥هـ) صاحب «الصناعتين»، وابن سنان الخفاجي (-٤٦٦هـ) صاحب

(١) (٥٣٣) المقدمة لابن خلدون.
(٢) (٨٠) العصر العباسي للاسكندري.
(٣) (٣٥) الجاحظ لخليل مردم.

«سر الفصاحة»، وعبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ) صاحب «دلائل الاعجاز»، و«أسرار البلاغة»، وسواهم.

وللكتاب أثره في النقد الأدبي كذلك، فهو سجل «حافل بالآراء المختلفة في النقد، مما لا يزال إلى اليوم موضع الاهتمام من جميع الباحثين. والجاحظ الذي نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء، وآثر عليها مذاهب المطبوعين كان يضع بذلك أساساً كبيراً لتطور الدراسات النقدية وعصرنا الحاضر أكثر إيماناً برأى الجاحظ، ومسايرة له في تياره الفكري والأدبي، ويسير على ضوئه في البيان العربي وأصول بلاغته.

-٢-

وفي الجزء الأول من «البيان والتبيين» يشرح الجاحظ البيان، ويبين عيوبه، ويضع حدوداً عامة للبلاغة ومذاهبها.

وفي الجزء الثاني يتحدث عن الخطابة والشعر وأعلامهما حتى عصره.

وفي الثالث يرد على الشعوبية مطاعنها التي قدحت بها في العرب، لا سيما ما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفي مواقف الكلام. فقد كان الشعوبيون ينكرون على العرب الخطابة، وينكرون على خطبائهم ما كانوا يصطنعونه أثناء خطابتهم من هيئة وشكل، وما كانوا يتخذون من أداة، وكانوا يعيبون على العرب اتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون، فكتب الجاحظ كتاب العصا ليثبت فيه أن العرب أخطب من العجم، وأن اتخاذ العربي للعصا لا يغض من منزلته في الخطابة وقدرته عليها، أليست العصا محمودة في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول ﷺ، وحكم القدماء، ومن هنا مضى الجاحظ يعدد فضائل العصا حتى أنفق فيها سفراً طويلاً[1]، وخصص لها حيزاً كبيراً ضمن كتابه.

وأسلوب الاستطراد ظاهر في الكتاب، واضح فيه، ومن ثم نقده أحمد أمين بأن الفوضى غالبة عليه، والجاحظ عنده[2] مسؤول عن هذه الفوضى التي سادت كتب الأدب العربي،

(١) (١ : ٢٢٧) العمدة لابن رشيق.

(٢) (٣٢) من أمهات الكتب العربية - العوضي الوكيل.

فقد جرت على منواله، وحذت حذوه، فالكامل للمبرد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهرة الأداب للحصري وسواها، تأثرت بالجاحظ ومنهجه تأثراً عميقاً.

وهذا خطأ من أساسه، فالجاحظ إنما ألف الكتاب ليكون موسوعة في الأدب والبيان، لا ليكون كتاباً منهجياً محدوداً. وليس الاستطراد فيه اغفالاً للموضوع، ولا نسياناً للأصل الذي اختط أبو عثمان الجاحظ الكتاب لبحثه، ولا إغفالاً لصميم الفكر الأدبي في الكتاب.

ويرتاب بعض الباحثين المعاصرين كذلك في شخصية الجاحظ في الكتاب[١]، ويرى أنها تكاد تكون معدومة فيه. وهذا جور ما بعده جور، فشخصية الجاحظ سواء في جمعه أم في ابتكاره واضحة كل الوضوح في هذا الكتاب الجليل، والسفر الخالد، سواء في حواره وجدله، أم في نقاشه للآراء، أم في خوضه معارك فكرية وأدبية ضمنها الكتاب وأبدى رأيه فيها، أم في غير ذلك كله.

وأسلوب الجاحظ، هذا الأسلوب الفريد ينقلك من فن إلى فن، ومن حديث إلى حديث، بل أحياناً من موضوع إلى موضوع، وهو نتيجة لاتساع ثقافاته، وكثرة معلوماته ومروياته.

والسمة الغالبة على الكتاب هي أنه مظهر لامتزاج الثقافات في عصر الجاحظ، هذا الامتزاج الذي نراه فيه . . . فللثقافة العربية الحظ الأكبر، ومع هذا فحظ الثقافات الأخرى فيه غير قليل، من يونانية وفارسية[٢] وهندية وغيرها.

وقد ثار الجدل حول ما إذا كان الجاحظ قد تأثر بالبلاغة اليونانية وهو يضع أصول البلاغة العربية في كتابه «البيان والتبيين»: فباحث يذهب إلى أن الجاحظ تأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد، وأن من المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر[٣]- المذهب الكلامي عند البديعيين- فهو ولا شك متأثر فيه بخطابة أرسطو[٤].

(١) (٧) مقدمة نقد النثر لطه حسين.
(٢) (١ : ٤١٥) ضحى الاسلام لأحمد أمين.
(٣) مجلة الرسالة عدد (١٩٦) - عبد الوهاب حمودة في محاضرة له في اسبوع الجاحظ.
(٤) الرسالة العدد نفسه - ص (٦٢١).

بينما يذهب باحث آخر إلى أن الجاحظ لم يتأثر بخطابة أرسطو، وليس لهذا الكتاب صدى في فكره البياني، لأن الجاحظ لم ير هذا الكتاب[١]، وذلك ما يؤيده طه حسين[٢] وإن كان يذهب إلى أن أرسطو مشرع للعقل اليوناني في البلاغة، وهو كذلك مشرع للعقل العربي فيها.

والجاحظ في كتابه يذكر تعاريف البلاغة عند الأمم ومنها اليونان والرومان[٣]، ويرى أن اليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر[٤]. على أن أقسام الدلالة عند الجاحظ[٥] هي من تفكير أرسطو ويرى أن رسائل اليونان وخطبهم وعللها وحكمهم وكتبهم في المنطق لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة[٦]، ما أن كتب اليونان في المنطق جعلتها الحكماء معياراً للتفكير[٧]. ويذكر الجاحظ في كتابه ما سماه «صناعة الكلام» ويعنى بها حيناً علم الكلام[٨]، وحيناً أخر البيان[٩] وكذلك يذكر صناعة الخطابة[١٠] وأصحاب الخطابة والبلاغة.

على أن الجاحظ فيما ذكره من بعض أصول البلاغة العربية يشترك مع أرسطو في بعض الخصائص: فدعوته إلى ترك الوحشي والسوقى[١١] قريبة من دعوة أرسطو إلى العامة، ودعوة الجاحظ إلى حسن الدراية ووضوح العبارة[١٢] هي دعوة أرسطو إلى ذلك والى

(١) المرجع نفسه - ص (٦٢٢).
(٢) ص (٣) مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين.
(٣) مقدمة نقد النثر، وراجع كتابي خطابة أرسطو. وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان وهما للدكتور إبراهيم سلامة.
(٤) (١ : ٧٥) البيان والتبيين.
(٥) (٣ : ١٥) المرجع.
(٦) (١ : ٦٩) المرجع، (٩) نقد النثر، (٤٠) الرسالة العذراء.
(٧) (٣ : ٧) البيان والتبيين.
(٨) (١ : ٦٩) المرجع.
(٩) (١ : ١٠٨) المرجع، (٤ : ص ٣) زهر الآداب تعليق زكي مبارك.
(١٠) (١ : ١٨٣) البيان والتبيين.
(١١) (١ : ١٠٥ و١١٠، ١٧٦) المرجع.
(١٢) راجع الشفا لابن سينا - قسم الخطابة.

استكراه الاغراب[١]، ويشتركان أيضاً في الدعوة إلى الإيجاز في موضعه والاطناب في موضعه، وفي إخراج اللحن عن حد البلاغة إلى غير ذلك. على أن هذا التشابه ليس دليل تأثر من الجاحظ بأرسطو، بل إنما سببه هو أن ذلك أفكار عامة تشترك فيها بلاغات جميع الأمم، أو أن سببه نقل الجاحظ عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو. وكذلك نرى الاستعارة موجودة عند الجاحظ وأرسطو لأحد هذين السببين. ويؤيد ذلك أن الجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التي شرحها أرسطو في كتابيه: الخطابة، والشعر: كأنواع البيان، وخصائص الاستعارة، والرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد، ونظرية الوصل وسر بلاغة الجناس، فلا يشير الجاحظ إلى ذلك في كتابه «البيان والتبيين» مما يدعونا إلى ترجيح أن الجاحظ لم يطلع على كتاب «الخطابة»، وإن كان أفاد من أستاذه النظام (-٢٣٥هـ) ومن علوم الفلسفة والمنطق اليونانية، ونقل عمن أطلعوا على خطابة أرسطو.

ويصف الجاحظ صاحب المنطق (أرسطو) بتمييز الكلام (بعده) وتفضيله ومعانيه وخصائصه[٢].

وأثر ثقافة الجاحظ الفارسية واضحة في كتبه وخاصة في كتابه «البيان والتبيين» فهو ينقل فيه كثيراً من النصوص الفارسية في البلاغة والخطابة والبيان[٣].

وكان الجاحظ على صلة بالثقافة الفارسية التي اتصل بها من طرق عدة:

١- مجتمع البصرة الذي كانت تعيش فيه عناصر فارسية كثيرة، وتذيع فيه كثير من الألفاظ واللهجات الفارسية التي أشار إلى بعضها الجاحظ في أوائل كتاب «البيان والتبيين»، وكان بعض أدباء البصرة من أصول فارسية، ومنهم: بشار (-١٦٧هـ)، وأبو نواس (١٤٥-١٩٨هـ)، وأبو العتاهية (-٢١١هـ)، والحسن بن سهل (-٢١٥هـ)

---

(١) (١: ٦٨ و١١٠ و١٧٦) البيان والتبيين.

(٢) (٣: ٢٧) المرجع.

(٣) للدكتور إبراهيم أمين الشواربي بحث نشره في مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة (ج ٤ ص ١٦٩-١٨٦) عن نصوص الجاحظ المتعلقة بالفرس وأخبارهم ولغتهم في كتابيه: «البيان» «الحيوان».

٢- الترجمات العربية للكتب الفارسية التي نقلها أمثال: عبد الله ابن المقفع (-١٤٣هـ)، وآل توبخت، والحسن بن سهل، وجبلة بن سالم، وسواهم من أعلام المترجمين عن الثقافة الفارسية، ويقول الجاحظ: من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة فليقرأ كتاب «كاروند»، ومن أحتاج إلى العقل والأدب فلينظر في سير الملوك[١]. ويقول عن الخطابة: إنها موجودة عند جميع الأمم وأن الفرس أخطب الناس.

٣- والجاحظ كان يعرف الفارسية[٢]، إذ يبدو أنه كان يتكلم الفارسية ويعرف نحوها وأدبها ويترجم منها[٣].

وعن طريق الثقافة الفارسية اتصل أبو عثمان بالثقافة الهندية وقرأ فيها، ونقل عنها، وروى طرائفها في البلاغة والحكمة وغيرهما مما نراه ماثلاً في كتابه الخالد «البيان والتبيين».

-٣-

ويهمنا أن نعرف: متى ألّف الجاحظ كتابه «البيان والتبيين»، وذلك مما لم يحدده أحد من الباحثين.

يؤكد الجاحظ في كتابه «الحيوان» أنه لقي في تأليفه صعاباً جمة، وصادف منه حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، وأول ذلك العلة الشديدة[٤].

ونحن نعلم أن الجاحظ أصيب بالفالج (الشلل) في خلافه الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ)، وشفى منه، وكان الجاحظ حين أصيب به أول مرة في الثمانين[٥]، فإذا كان ميلاده عام (١٥٠هـ) فإن معنى ذلك أن اصابته بهذا المرض كان عام (٢٣٠هـ)، فتاريخ تأليف الجاحظ لكتاب الحيوان هو نحو هذا التاريخ.

---

(١) (٣: ١٤) البيان والتبيين.
(٢) (٢: ٣١٧) أمراء البيان - محمد كرد علي.
(٣) (٢٠٠) النقد المنهجي عند الجاحظ لداود سلوم.
(٤) (٤: ٢٠) الحيوان - تحقيق عبد السلام هارون.
(٥) (١٦: ١٠٣) معجم الأدباء لياقوت.

وفي كتاب الحيوان يذكر أبو عثمان الجاحظ رسالته «التربيع والتدبير» مما يدل على أنها ألفت قبل كتاب «الحيوان» وأرجح أنها ألفت نحو عام (٢٢٨هـ).

أما كتاب البيان فقد ألفه الجاحظ بعد كتاب «الحيوان» ففيه يشير إلى كتاب «الحيوان»[١]. وإذا كان قد أهداه إلى ابن أبي داود المتوفى عام (٢٤٠هـ)، فإن تأليف هذا الكتاب يكون بين عامي (٢٣٠ و٢٤٠هـ)، وعلى ما أرجحه يكون قد ألفه الجاحظ نحو (٢٣٥هـ).

أما رسالة «البخلاء» فقد ألفها الجاحظ بعد أن عاوده المرض[٢] عام (٢٤٦هـ)، وأغلب الظن أنه أداها إلى الفتح بن خاقان وأنه ألفها عام (٢٤٦هـ)، وهي مصدرة برسالة سهل بن هارون[٣] في البخل، وهناك من يرجح أن تكون آخر كتب الجاحظ وأن تكون قد ألفت في أواخر حياته وقريباً من عام (٢٥٥هـ)، وهذا ما يرجحه محمد المبارك في كتابه فن القصص في كتاب البخلاء صفحة (٤٦)، ويؤيده مصطفى عبد الرزاق. بينما يذهب بعض الباحثين إلى أن هذه الرسالة ألفت بين عامي (٢٢٩هـ و٢٣٢هـ)[٤]، وكلا الرأيين خطأ كخطأ من يقول: إن الجاحظ أهداها إلى أحمد بن أبي داود.

-٤-

وكان الجاحظ أديب عصره، وكان أدبه الغذاء الفكري لكل طبقات الناس في زمنه، لم يترك مشكلة في عصره إلا كتب فيها، ولا جانباً من جوانب الحياة إلا صوره، وقد أخذ من كل فن طرف، وكان يعرف الأدب بمثل ذلك التعريف، وخاض في أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق والتربية وفلسفة اللغة والنقد والبلاغة والقصة والمقالة والرسالة وما إلى

---

(١) (١ : ١٣٨، ٣: ١٧٣ و٣٠٢) البيان والتبيين.

(٢) (٢ : ٤٥) البخلاء تحقيق الجارم والعوامري.

(٣) من الكتاب والحكماء والعلماء في عصر المأمون، وولي رياسة بيت الحكمة، وتوفي عام (٣١٥هـ): (٨٣٠م - راجع ٣- ٣٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، (١٢٠) الفهرست لابن النديم، (٤ : ٢٠٨)، معجم الأدباء (٣٠: ٤٨-٥٨) عصر المأمون، (١ :٧٠) ضحى الإسلام.

ويجعل الجارم في تحقيقه للبخلاء وفاة سهل عام (١٧٣هـ: ٧٩٠م) نقلاً عن الأعلام للزركلي، وهو خطأ ظاهر. ويروى الجاحظ شعراً لسهل «٢ :١٣٤ البخلاء تحقيق الجارم، ٢: ١٩٦ البيان والتبيين»- ويجعل شارل بيلا وفاة سهل عام (٢٤٤هـ) «ص٤٠٠ الجاحظ لشارل بيلا».

(٤) راجع البخلاء تحقيق الحاجري.

ذلك كله، ودبج اروع الصور وهو يتحدث عن طبقات مجتمعه وأهل عصره.

وكان الجاحظ أستاذ عصره، وله مكانته ومنزلته وجرأته، ونظره النقدي المقعد، المبني على التجربة، واتساع افاق موضوعاته حتى ليجد فيها كل انسان بغيته، والتنوع الذي كان يبعد السأم، وتصويره أخلاق العصر. إلى سخريته، وتبسيطه المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح، وهكذا وجد الناس صلة ما بينهم وبين الجاحظ، فأثروه وأثروا كتبه، لأنها أكثر استنباطاً، وأبرز شخصية، وأوسع مادة، وأبرع فناً، وأقرب إلى حياة الشعب. وكان يكتب في شتى ألوان الأدب: في البيان والنقد والحوار والجدل والفلسفة والسخرية والفكاهة والقصة. وفي أدب السخرية والفكاهة لا تزال رسالته «التربيع والتدوير» محوراً لفن الفكاهة في الأدب العربي، وهذا الفن له صلة وثيقة بنفسه وحياته، فقد عاش في زمن جمع المتناقضات، وحال فقدان الحرية بينه وبين التصريح، وأدرك أن مرارة الحياة لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدعابة، ووقف أسرار نفس الإنسان محاولاً أن يلطف من شرور الحياة قاصداً إلى تعليم الناس.

وعلى الجملة فقد نقل الجاحظ موضوع الأدب من معناه الضيق المحدود إلى أوسع معنى، فجعله شاملاً لكل شيء، جعله الحياة كلها فالحياة عنده هي مادته وهي موضوعه، فالأدب عنده هو الحياة نفسها، أو هو التعبير عنها، مرة تصويراً لها، ومرة نقداً وتوجيها.

الأدب عند أبي عثمان مستمد من الحياة، وما يوصله إلى نفوس الآخرين من خبرة بها، وفهم عميق لها.

-٥-

وتزداد أهمية كتاب «البيان والتبيين» لأبي عثمان الجاحظ عندما تعلم أنه أرخ فيه للأدب العربي وللثقافة الأدبية منذ نشأ حتى عصر الجاحظ. والكتاب أول مؤلف أدبي موسوعي في اللغة العربية، وعلى نهجه سار جميع المؤلفين في الأدب العربي القديم.

وفي «البيان والتبيين» دعا الجاحظ إلى فلسفة أسلوبية خاصة، أساسها الكلمة وحسن اختيارها، ووضعها في مواضعها. وكان ذوقه شديد المعرفة بوقع الكلمة وأثرها في نفس

القارىء، دقيق التمييز بين حي الألفاظ وميتها، وسهلها وصعبها، وجميلها وقبيحها. وملاك الأمر عنده هو التبيين والإفهام.

وتأليف الكلام أو نظمه عند الجاحظ هو مظهر البلاغة وصورتها، وكان يعني بجودة السبك، وبراعة الديباجة، وعذوبة الأسلوب، ويرى أن المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والحضري، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وجودة السبك، وحسن الصياغة وجمالها، فإنما الشعر صياغة وضروب من التصوير كما يقول.

وذكر الجاحظ أن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية. ولكل معنى ضرب من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه، والذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه.

وكان يعجب بمذهب المحدثين، الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، ومن أثر الذوق عنده تفضيله لشعر المحدثين ونقده للمتعصبين للشعر البدوي، فقد حارب العصبية ضد نواس: «كان أبو نواس عالماً راوية، مع جودة الطبع، وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وأن تأملت شعره فضلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك، فإنك لا تبصر الحق من الباطل، ما دمت مغلوباً محكوماً بالعصبية الظالمة. وقد أكثر من الدعوة إلى تقدير المجيد ممن كان وفي أي زمن كان، يقول: والقضية التي لا أحتشم فيها، ولا أهاب الخصومة، أن عامة شعراء العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدين، وليس ذلك بواجب في كل ما قالوه. وقد رأيت أناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمن كان. . .

وعلى هذا النهج سار ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء»، والمبرد في كتابه «الكاهل»، وابن المعتز في كتبه.

وفي «البيان والتبيين» يذم الجاحظ بلاغة المتقعرين، ويناقش مذاهب الرأي حول أداة الكتابة والشعر وهل كانت في رسول الله معدومة، ويدلي برأيه في ذلك، ويعلل لأمية الرسول وعدم قرضه للشعر، ولقوله صلوات الله وسلامه عليه: «نحن معشر الأنبياء بسطاء»، ويلخص أبو عثمان البلاغة بأنها «بيان وتبيين».

-٦-

وبعد فهذه صورة لكتاب «البيان والتبيين» لأبي عثمان الجاحظ، الذي يفتتح بقوله:

«اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحس، كما نعوذ بك من العجب بما نحس، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من الغي والحصر».

ويختتم كتابه بقوله:

«هذا - أبقاك الله - آخر ما ألفناه من كتاب «البيان والتبيين». ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته، وأردناه من تأليفه، فإن وقع على الحال التي أردنا، وبالمنزلة التي أملنا، فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده، وإن وقع بخلافهما فما قصرنا في الاجتهاد، ولكن حرمنا التوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم».

ونقول لأبي عثمان: لقد كتبت فأحسنت، ووعدت فأوفيت، وأعطيت فوفيت، وبقي كتابك أثرا خالداً في لغتنا، يمتع القارىء، ويفيد الدارس، ويهب الذوق للمتعلم، ويمنح المعرفة للمستفيد . . . وكفى به زاداً.

النيل في مؤلف مصري قديم

-١-

الجلال المحلى المفسر المشهور، المعروف بجلال الدين المحلى الشافعي، عالم مصري عاش في الفرن الثامن، وطارت شهرته فيه.

وفي عام (٧٨٠هـ) ألف كتاباً صغيراً سماه مقدمة النيل السعيد وشرح أحواله، وذكر عجائبه وغرائبه، ومن أين يجيء وإلى أين سينتهي (ص ٢٣).

وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة منذ أكثر من مائة عام وذلك عام(١٢٨١ه)ـ كما جاء في آخره، «تم طبع ما جمعه الإمام الجلال المحلي الجليل فيما يتعلق ببيان أحوال النيل، على ذمة الشيخ النجيب، الشيخ اسماعيل معتوق، الشهير بالعطار، بالمطبعة البهية الكائنة بخط باب الشعرية، بتصحيح الفقير مصطفى وهبي.

ويقع الكتاب في (٣٨) صفحة من القطع الصغير، ويشتمل الكتاب على مقدمة صغيرة وفصول عدة.

وجاء في المقدمة: روي عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «أربعة لا تشبع من أربع: عين من نظر وأنثى من ذكر، وأرض من مطر، وعالم من خبر» ولما كان إقليم مصر مشتملاً على أمور عجيبة، استخرت الله تعالى أن أجمع فيه من الغرائب مالا ينبغي لذوي العلم إهمالها وكيف . . .؟ وكلهم أو أكثرهم لو سئل عن نهر النيل من أين يخرج من الأرض، وفي أي مكان يذهب. . .؟ لما أجاب عن ذلك، وأنا إن شاء الله مبين لجميع ذلك، قاصداً فيه الاختصار».

وفصول الكتاب تبدأ بالفصل الأول في بيان فضل النيل، ثم يليه الفصل الثاني في المكان الذي يخرج أصل النيل منه وبيان سبب خضرته، ويلي ذلك فصول عدة عن: الأهرام، وكورة أسيوط، والحائط الممتد بالجانب الشرقي من النيل، والمقاييس لمعرفة زيادة النيل

ونقصانه، والمكان الذي يذهب فيه ماء النيل، والأنهار الأربعة وهي سيحون وجيحون والفرات والنيل، والفرق بين البحر والنهر، وأنواع الماء وما يستعمل في الطهارة . . . وبذلك ينتهي الكتاب.

-٢-

والكتاب ذو أهمية كبيرة لما يشتمل عليه من حقائق علمية أكدتها الكشوف العلمية الحديثة.

١- يذكر الجلال المحلى في الكتاب نقلاً عن الجغرافيين العرب من أمثال الكندي والمسعودي، أن النيل يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء[(١)] من عشرة عيون، خمسة تجتمع في بطيحة[(٢)]، وخمسة تجتمع في بطيحة، ثم يجتمع بعد ذلك الماءان، فيجري على وجه الأرض نحو تسعمائة فرسخ، وقيل ألف فرسخ، في عامرها وغامرها، من عمران وخرب، حتى يأتي بلاد أسون، من صعيد مصر، وإلى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجري النيل في وسطها، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه. وهذا الموضع فارق بين مواضع سفن الحبشة في النيل، وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور، ثم يأتي الفسطاط فيقم إلى خلجان: إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد وإلى اسكندرية، كل يصب إلى البحر.

ويذكر أن أحمد بن طولون في سنة نيف وستين ومائتين بلغه: أن رجلاً بأهلى مصر عن الصعيد، له ثلاثون ومائة سنة، من الأنباط، ممن يشار إليه بالعلم، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها ومجرها وأخبار ملكها، وأنه ممن صافر الأرض، وتوسط الممالك، وشاهد الأمم أبيضها وأسودها، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها. فبعث إليه ابن طولون، وأخلى له نفسه في ليال وأيام كثيرة، يسمع كلامه وإيراده وحكاياته، فكان فيما سأله عن طول الأجناس وممالكهم، قال: لقيت من ملوكهم ستين ملكاً في ممالك مختلفة،

---

(١) حيث يستوي الليل والنهار وأضيف إلى القمر لأنه يزهر تأثيره فيه عند زيادته ونقصانه بسبب النور والظلمة والبدر والمحاق (ص ١٧ من الكتاب).

(٢) مكان ينبطح من الأرض، والمراد بحيرة.

كل منهم ينازع من يليه من الملوك، وبلادهم حارة يابسة، ثم سأله عن منتهى النيل في أعلاه، فقال: البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها، وهي نحو الأرض التي فيها الليل والنهار مستويان طول الدهر.

٢- ويذكر الجلال لمحلي أنه حكى له بعض من أقام بالحبشة أن الغمام والمطر يستمر عندهم في ايام زيادة النيل ليلاً ونهاراً في أعلى النيل، وأن المطر يكثر جداً في بعض السنين ويقل جداً في بعضها، فيعرفون كثرة للنيل وقلته بسبب ذلك.

٣- ويذكر الجلال أن مصر كانت وطن الأنبياء والمرسلين والأسباط وذي القرنين والحكماء اليونانيين، والفلاسفة المتقدمين، وذوي الهيئة والآلة والطلاسم والرصد والحركات، والنجامات والمساحات والجبر والمقابلات وغير ذلك: كهرمس، وبقراط

وينقل المؤلف أوصافاً شعرية جميلة عن كعب الأحبار الذي يقول: من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت، وإذا اطردت أنهارها، وتهذبت ثمارها، وفاضت بحارها، وغنت طيورها؛ وعن عبد الله بن عمر حيث يقول: من أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس فلينظر إلى مصر، حين يخضر زرعها، ويزهر ربيعها، ويكثر بالنور أشجارها.

ويروى عن المسعودي في مصر: هي ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء، فإن مصر في شهور أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء، فترى الدنيا بيضاء، وفي شهر بابة تنكشف الأرض، فتصير أرضاً سوداء وتكثر فيها الزراعات، وللأرض روائح طيبة تشبه رائحة المسك؛ وفي شهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر عشب الأرض ونباتها فتصير الدنيا خضراء كالزمردة، وفي شهر برمودة وبشنس وبؤونة يبيض الزرع ويغور العسب فيشبه الذهب في المنظر.

٤- ويذكر الجلال أن مساحة أرض مصر التي تروى بالنيل عامرها وغامرها ٣٠ مليونا من الأفدنة . . . وإذا كان هذا صحيحاً في الزمن القديم حيث تتشعب مياه النيل وتذهب إلى كل مكان، فإنه غير صحيح اليوم حيث أصبح لمياه النيل حجا وفروع محددة.

ويقول الجلال: إن على كور مصر ١٢٠ ألف رجل معهم المساحي والآلات، سبعون

ألفاً على الصعيد، وخمسون ألفاً لأسفل الأرض؛ لحفر الخلجان وإقامة السدود والجسور والقناطر وسد الترع وقلع القضبان والحلفاء وكل نبت يضر بالأرض[١].

٥- ويشير إلى مصب ماء النيل في البحر عند شواطىء مصر[٢].

٦- وما ذكره عن الفرات ودجلة وسيحون وجيحون يثير العجب لدقته العلمية المتناهية[٣].

-٣-

والكتاب مع صغر حجمه يثير الاهتمام، لصحة معلوماته وكثرة إحاطته، ودقة تفاصيله، وإلمامه بالوصف الجغرافي الدقيق للنيل ومصر وما يتصل بهما.

والجلال المحلى بهذا الكتاب جدير بأن يوضع مع الجغرافيين العرب في مكان بارز.

وهذا الكتاب جزء من تراثنا القومي الذي نرجو أن تمتد إليه يد العناية، وأن يلقى من الاهتمام ما يستحقه، فينشر نشراً علمياً محققاً، ليحتل مكانته في المكتبة الجغرافية العربية القديمة.

---

(١) ص (٩) من الكتاب.

(٢) راجع ص (٢٤) من الكتاب.

(٣) راجع ص (٢٧) وما بعدها من الكتاب.

الأخبار الطوال

لأبي حنيفة الدينوري

-١-

القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي «١١ من أغسطس ٨١٥ - ١٨ من أغسطس ٩١٢م»، شهد ميلاد نهضة حضارية جديدة في العالم العربي والإسلامي لم يشهدها «عصر» من قبل، نهضة رفعت لواءها الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الأموية في الأندلس، وكان للخلافة العباسية النفوذ الروحي والسياسي في العالم الإسلامي.

ويعد هذا القرن من أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية، وصفحاته المشرقة من أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والفكري والأدبي للعرب خاصة وللمسلمين عامة . . وقد امتد فيه نفوذ العباسيين من شواطىء المحيط الاطلسي إلى حدود الهند والصين، وارتفعت فيه راياتهم في كل الآفاق، تأوي إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون، وتقوم المدارس، وتنشأ الجامعات، وتترجم الثقافات الأجنبية، ويؤدي أعلام الفكر والثقافة واجبهم من أجل خير الإنسانية، وتعيش فيه شتى العناصر والأجناس والألوان في ظلال الإخاء والسلام والمحبة.

وفيه تألقت العواصم الكبرى، في شتى أنحاء الوطن العربي الكبير، مزدهرة بنور المعرفة والثقافة والعلم، بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، وفاس، وقرطبة وما إليها.

ونوابغ الفكر العربي وأعلامه وعلماؤه، لا يحصى عددهم، الثقافات العالمية كلها تتجمع وتتمثل في الثقافة العربية، وحركة الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية موصولة، مما أثرى به الفكر العربي ثراء كبيراً، وكان المأمون في بغداد يمثل قمة ازدهار العقل العربي، كان عالماً متضلعاً واسع الثقافة، كثير الاطلاع وكان ينفق بسخاء على حركة ترجمة الثقافات إلى العربية، حتى لقد أعطى وزن ما يترجم ذهباً، وكان يحرض الناس على قراءة هذه التراجم، ويرغبهم في نقلها. كما كان يخلو إلى الحكماء، ويأنس بمحاضراتهم، ويأمر

ولاته بأن يبعثوا له بالكتب التي تقع في أيديهم، وجعل من شروط الصلح بينه وبين بيزنطة أن يرسلوا إليه مجموعة من الكتب النادرة، واستدعى المهندس البيزنطي «ليد» إلى بغداد، ولكن امبراطور بيزنطة توفيل لم يأذن له بالسفر، فبعث المأمون إلى الامبراطور يطلب منه السماح له بالسفر الى بغداد ولكن الامبراطور أقام العراقيل أمامه. وكان السلام بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية ضرورياً للعالم كله، وكتب نيقولا ميستيكوس بطريق القسطنطينية الى حاكم جزيرة كريت المسلم يقول: «إن أعظم قوى العالم أجمع: قوة العرب. وقوة الروم، فهما تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء، ولهذا وحده يجب أن نعيش اخوة».

ولقد حفل هذا القرن بأعلام كبار قادوا مسيرة الحضارة العربية الى طريق القوة والازدهار، ومن رواد هذا الطريق: الجاحظ، وابن قتيبة، وأبو حنيفة الدينوري صاحب كتاب «الأخبار الطوال» الذي نقدمه اليوم في هذه الدراسة الموجزة.

مثل الجاحظ العقل العربي الحضاري في تألقه وسطوعه وإحاطته بشتى المعارف والثقافات. من حيث مثل ابن قتيبة الفكر الإسلامي في شموخه وجلاله واتساعه وتجدده تمثيلاً كاملاً. وأحاط أبو حنيفة الدينوري بكثير من الثقافات الأدبية والدينية والعلمية أحاطة تامة تقصر عن مداها كل ثقافات علماء عصره. حتى لقد عده أبو حيان التوحيدي أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم، في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم، ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم: الجاحظ، وأبو حنيفة، وأبو زيد البلخي. ووصفه كذلك بأنه من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، وله في كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم.

وكان أبو حنيفة يقرن بالجاحظ في فصاحته ويختلف الأدباء فيهما: أيهما أبلغ، فينتهون إلى أبي سعيد السيرافي «٣٦٨هـ»، فيحكمونه في تلك القضية، فيقول: أبو عثمان «الجاحظ» أكثر حلاوة، وأبو حنيفة أكثر ندارة، ومعاني أبي عثمان لائطة – عالقة – بالنفس، سهلة في السمع. ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب، كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء.

-٢-

وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري العالم المشهور، والأديب النحوي اللغوي الراوية والمؤرخ البارع في مجال التاريخ، والمهندس المنجم النباتي . . . حتى لقد قال عنه ياقوت في معجم الأدباء «١ : ١٢٤» «كان نحوياً، لغويا، مهندسا، منجماً، حاسباً، راوية، ثقة فيما يرويه ويحكيه» وترجمت له دائرة المعارف الاسلامية، وياقوت في «معجم الأدباء»، والسيوطي في «بغية الوعاة»، والبغدادي في «خزانة الآداب»، وأحمد أمين في «ضحى الاسلام».

كان ميلاده في أوائل القرن الثالث الهجري، في عصر المأمون، في دينور، وتلقى ثقافته الأولى في دينور، ثم رحل إلى الكوفة، وأخذ فيها النحو على ابن السكيت. . وتلقى ثقافاته العلمية على أيدي أعلام الأساتذة في كل مكان رحل إليه. من بغداد والبصرة وأصفهان وغيرهما. وفي عام (٢٣٥هـ - ٨٥٠م) كان في أصفهان، يرصد الكواكب، ويسجل نتائج رصده.

وكانت ثقافة أبي حنيفة واسعة في مختلف العلوم. وكان تمكنه من الثقافة اليونانية والهندية أوسع منه عند صاحبيه الجاحظ وابن قتيبة.

وقد فاقت شهرته بالكتابة في النبات كل شهرة. وأخذ عنه علماء عصره ومن يمدهم، ونقل عنه «ابن سيده» في كتابه «المخصص»، وابن البيطار في مفرداته ولم يقتصر على النباتات العربية وحدها، بل ألم بما رآه من نباتات في مختلف الاصقاع، وألم بما كتب عنه في العربية وغيرها.

-٣-

وكتاب «الأخبار الطوال» كما يقول أبو حنيفة عنه: «فيه ذكر ملوك الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجر بن شهريار بن كسرى ابرويز وذكر من ملك من ملوك قحطان، وملوك الروم، وملوك الترك، وذكر الأئمة والخلفاء والحروب التي كانت مثل يوم القادسية، وفتوح العراق، وانصرام دولة العجم، وحروب الجمل وصفين ويوم النهروان ومقتل الحسن، وفتنة ابن الزبير، وذكر خلافة عبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز، إلى

انقضاء ملك بني أمية، وخبر الدولة العباسية، وقصة أبي مسلم، إلى أبنائه مدينة بغداد وايام الخلفاء من بعده إلى انقضاء أمر محمد الأمين، وخبر المأمون إلى آخر أيام المعتصم وخبر بابك وحروبه وأيامه، مختصراً من السير، مقتصراً على الاقتصاد...».

وفي الكتاب الكثير من المعلومات عن ملاءمة العرب بالفرس مما لا يوجد في مصادر أخرى.

والقسم الفارسي في الكتاب خصب غاية الخصوبة، وكذلك القسم الأموي، بما نشبت فيه من وقائع، وما تام من أحداث وما اضطرب فيه من مشكلات سياسية ومذهبية.

وبروح المؤرخ الثقة الأمين يروي أبو حنيفة الكثير من قصص التاريخ في كتابه، موجزاً، ومثيراً، وممتعاً، ومؤثراً في الوقت نفسه.

يقول أبو حنيفة في خلافة الرشيد: وفي ذلك العام - العام السبعين بعد المائة- استخلف هارون الرشيد، وحج وانصرف على المدينة، فوضع لأهلها العطاء، وأجزل لهم، فأقبل إلى العراق فوافى الكوفة، وعقد لأبي العباس الطوسي على خراسان، وفي سنة أربع وسبعين ومائة وقعت المصيبة بأرض الشام بين المضرية واليمانية، فتحاربوا، حتى قتل بين الفريقين بشر كثير. وحج الرشيد في ذلك العام بالناس ومعه ابناه محمد وعبد الله، وكتب بينهما كتاباً بولاية العهد لمحمد، ومن بعده لعبد الله المأمون، وعلق الكتاب في جوف الكعبة، ثم انصرف إلى مدينة السلام، قال الكسائي: ولاني الرشيد تأديب محمد وعبد الله، فكنت أشدد عليهما في الأدب، وأخذهما به أخذاً شديداً، وبخاصة محمدا. فأتتني ذات يوم خالصة جارية أم جعفر، فقالت: يا كسائي أن السيدة تقرأ عليك السلام، وتقول لك: حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد، فإنه ثمرة فؤادي، وقرة عيني، وأنا أرق عليه رقة شديدة، فقلت لخالصة: إن محمدا مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير في بابه، فقالت خالصة: إن لرقة السيدة سبباً أنا مخبرتك به، إنها في الليلة التي ولدته فيها أريت في منامها كان أربع نسوة أقبلن إليه، فاكتنفنه عن يمينه وشماله ومن أمامه وورائه، فقالت التي بين يديه: ملك قليل العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهي الأمر، كثير الوزر، شديد الغدر، وقالت التي من ورائه: ملك قصاف، مبدر، متلاف، قليل الإنصاف، كثير

الإسراف، وقالت التي عن يمينه: ملك ضخم، قليل الحلم، كثير الأثم، قطوع للرحم.

وقالت التي عن يساره: ملك غدار، كثير الوزر، سريع الدمار. ثم بكت خالصة، وقالت: يا كسائي، وهل يغني الحذر؟

وذكر عن الاصمعي، قال: دخلت على الرشيد، وكنت غبت عنه حولين بالبصرة فأوما إلي بالجلوس قريباً منه، فجلست قليلاً، ثم نهضت، فأوما إلي أن اجلس، فجلست حتى خف الناس، ثم قال لي: يا أصمعي، إلا تحب أن ترى محمداً وعبد الله؟ قلت: بلى، يا أمير المؤمنين، أني لأحب ذلك. وما أردت القيام إلا إليهما، لأسلم عليهما قال الرشيد: تكفى، ثم قال: عليَّ بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول وقال: أجيبا أمير المؤمنين، فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما، وضربا ببصرهما الأرض، حتى وقفا على أبيهما، فسلما عليه بالخلافة، وأوما إليهما، فدنيا منه، فأجلس محمداً عن يمينه، وعبد الله عن شماله، ثم أمرني بمطارحتهما، فكنت لا ألقى عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه، وأصابا، فقال الرشيد: كيف ترى أدبهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة ذهنهما، فأطال الله بقاءهما، ورزق الأمة من رأفتهما ومعطفتهما، فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته - دمعته- حتى تحدرت دموعه، ثم أذن لهما، حتى إذا نهضا وخرجا، قال: كيف بكم إذا ظهر تعاديهما، وبدأ تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما، حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أنهم كانوا موتى، قلت: يا أمير المؤمنين، هذا شيء قضى به المنجمون عند مولدهما أو شيء أثرته العلماء في أمرهما؟ قال: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما، قالوا: فكان المأمون يقول في خلافته: قد كان الرشيد يسمع جميع ما جرى بيننا، من موسى بن جعفر بن محمد، فلذلك قال ما قال . . .

قال الأصمعي: وكان الرشيد يحب السمر، ويشتهي أحاديث الناس، فكان يرسل إليَّ إذا نشط لذلك، وجنّ عليه الليل، فأسامره، فأتيت ذات ليلة، ولم يكن عنده أحد، فسامرته ساعة، ثم أطرق وفكر، ثم قال: يا غلام، عليَّ بالعباسي، يعني الفضل بن الربيع، فحضر، ودخل، فأذن له بالجلوس، فقال: يا عباسي، إني عنيت بتولية العهد، ومثبت الأمر في محمد وعبد الله، فما ترى؟ قال الفضل: يا أمير المؤمنين، إن هذا أمر خطير عظيم،

وللكلام فيه مكان غير هذا، فعلمت أنهما يحبان الخلوة فقمت عنهما، وجلست ناحية من صحن الدار، فما زالا يتناظران، إلى أن أصبحا، واتفق رأيهما على تولية محمد العهد، وتصير عبد الله من بعده، وقسمة الأموال والجنود بينهما، وأن يقيم محمد بدار الخلافة، ويتولى المأمون خراسان. فلما أصبح أمر بجمع القواد، فاجتمعوا إليه، فدعاهم إلى بيعة محمد، ومن بعده إلى بيعة المأمون، فأجابوا إلى ذلك وبايعوا.

وينتهي الكتاب بخلافة المعتصم وموته عام (٢٢٧هـ / ٨٤٢م).

ويمثل هذا الأسلوب الرفيع الدقيق، البليغ الموثق بالرواية، وبالفكر السياسي العميق، يمضي الكتاب رائعاً ومهيباً وجليلاً الى نهايته؟

ويمضي أبو حنيفة الدينوري بعد تأليف الكتاب يضرب في الأرض نحو الخمسين عاماً، حتى تستأثر به رحمة الله عام (٢٨٢هـ)، على أرجح الآراء في تاريخ وفاته.

لقد كان أبو حنيفة مثلاً رائعاً للريادة العلمية في عصره، بعد وفاة الجاحظ وكان في علمه الرياضي فريداً ليس له نظير من علماء عصره، ويدل على ذلك تأليفه في الفلك والحساب، والجبر والمقابلة، والقبلة، والزوال والكسوف، والبحث في حساب الهند، وغيرهما.

كان أبو حنيفة مثلاً رائعاً كذلك لعصر امتزاج الثقافات، واتساع الافق العلمي أمام الباحثين، وعصر النهضة العلمية والأدبية التي شهدها القرن الثالث الهجري، وعاش فيها أجيال العلماء والأدباء والباحثين.

ترك ثروة علمية كبيرة، ضاعت من بين أيدينا، وبقي منها «الأخبار الطوال» هذا الكتاب التاريخي الفريد، الذي ينم عن ثقافة مؤرخ عظيم الفهم لأحداث التاريخ ووقائعه... ومن كتب أبي حنيفة: كتاب الأنواء، وكتاب في الفصاحة، وكتاب في النبات، وكتاب في الوصايا، وكتاب في التفسير، واخر بعنوان جواهز العلم، وكتاب اصلاح المنطق، وهو امتداد لكتاب استاذه ابن السكيت «صلاح المنطق» أو شرح عليه، وكتاب في الجبر والمقابلة، وكتاب في لحن العامة.

وبحق كان أبو حنيفة من أفذاذ العلماء، الذين جمعوا بين بلاغة العرب، وحكم الفلاسفة ... وتركوا أثراً خالداً باقياً على وجه الزمان.

ولاة مصر

الكندي

-١-

إمام المؤرخين المصريين «أبو عمر محمد بن يوسف» الكندي المصري «٢٨٣-٣٥٠هـ: ١٧ يناير ٨٩٧ - أكتوبر ٩٦١م».

وكتابه «ولاة مصر»، وكتابه الآخر «قضاة مصر»، من أهم المؤلفات الأصول عن تاريخ مصر إلى نهاية الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، أي من بعد الفتح الإسلامي لمصر مباشرة عام (١٩هـ)، حتى سنة (٢٣٥هـ)، وقد عاش الكندي بعد ذلك خمسة عشر عاماً، وتوفاه الله إلى رحمته عام (٣٥٠هـ).

وقد عثر على هذين الكتابين في مخطوطة واحدة بقلم أحد كتاب خزانة بعض ملوك بني أيوب في دمشق عام (٦١٥هـ)، وانتقلت ملكية هذه النسخة إلى القاهرة، إلى أن اشترتها مكتبة المتحف البريطاني، ونشر هذه المخطوطة «روفن جست» بعنوان «كتاب الولاة والقضاة لأبي عمر الكندي»، والقسم الأول من المخطوطة عنوانه «كتاب تسمية ولاة مصر»، والقسم الثاني منها عنوانه «كتاب تسمية قضاة مصر».

-٢-

وللكندي مؤلفات كثيرة منها:

- كتاب الخطط.
- سيرة السرى بن الحكم.
- الجند العربي.

وهي كتب مفقودة. . .

وقد اختار الدكتور إبراهيم العدوي مختارات من كتاب «ولاة مصر وقضاتها»، راجعها الدكتور محمد مصطفى زيادة، ونشرت هذه المختارات في كتاب، طبع في دار المعرفة في

أكثر من مائة صفحة، وصدر بمقدمة قصيرة، ثم يجيء القسم الأول وهو مختارات من كتاب «ولاة مصر»، ويشتمل على:

- تاريخ الولاة في عصر الخلفاء الراشدين. .
- تاريخ الولاة في عصر الدولة الاموية.
- تاريخ الولاة في عصر الدولة العباسية.
- الدولة الطولونية.
- قيام الدولة الاخشيدية، وجانب من تاريخها حتى عام (٣٣٥هـ).

أما القسم الثاني فهو مختارات من كتاب «قضاة مصر»، من أول القضاة وهو قيس بن أبي العاص، الذي ولي القضاء إلى ربيع الاول سنة (٢٣هـ)، ثم مات، وكانت ولايته نحواً من ثلاثة أشهر، ويتناول تاريخ القضاة في مصر الإسلامية إلى نحو أواخر القرن الثالث الهجري.

ومن أشهر الولاة على مصر: عمرو بن العاص، وفي عصر دولة بني أمية: عبد العزيز بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك بن مروان، وفي عصر الدولة العباسية: صالح بن علي العباسي، وإبراهيم بن صالح العباسي، والفضل بن صالح العباسي، وعلي بن سليمان العباسي، والسرى بن الحكم «٢٠٠-٢٠١هـ: ٨١٦م»، ثم كانت ولايته الثانية «٢٠١-٢٠٥هـ: ٨١٧-٨٢٠م»، وغير هؤلاء الولاة، وهم كثير ومن أشهر القضاة على مصر:

- قيس بن أبي العاص «٢٣-٣٥هـ».
- عبد الله بن لهيعة الحضرمي «١٥٥-١٦٤هـ».
- الحارث بن مكين «٢٣٧-٢٤٥هـ» وسواهم.

والكتابان من أهم ما وجد من تراث الكندي، ومن أهم الكتب الأولى التي حفظت لنا جانباً كبيراً من تاريخ مصر في القرن الأول والثاني والثالث الهجري.

-٣-

والكندي

ممن خرجتهم جامعة الفسطاط الاسلامية الخالدة، تلك الجامعة التي جلس فيها الامام الشافعي، وكانت له حلقة فقهية فيها، وتعلم فيها أبو تمام الشاعر العباسي الخالد «-٢٣١هـ»، وجلس في حلقاتها أو الطيب المتنبي أثناء إقامته في مصر في عصر الاخشيدي ووزيرهم الكبير كافور الاخشيدي.

وهو من قبيلة «كندة» من القبائل اليمانية القحطانية، التي هاجر الكثير من أبنائها إلى مصر، ومن فروعها قبيلة «تجيب» ذات التاريخ الحافل في مصر، ومن «تجيب» ظهر مؤرخنا الكندي المصري الذي ولد في العاشر من ذي الحجة (٢٨٣هـ) «١٧ من يناير عام ٨٩٧م»، ودرس في منزله، ثم على أيدي بعض الشيوخ من أسرته وغيرهم، ثم درس في جامع عمرو أي جامعة الفسطاط الاسلامية، ونبغ في علوم الدين واللغة وفي التاريخ، وألف العديد من المؤلفات التاريخية الرائعة، ومن أشهرها الكتاب أو الكتابان التاريخيان اللذان نعرض لهما في هذه الدراسة، وقد تناول الكندي في الكتابين تاريخ ولاة مصر وقضاتها منذ الفتح الإسلامي عام (١٩ هـ) حتى عام (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) قبل وفاة الكندي بخمس عشر سنة.

ويبدو من ذلك ان انتهاء المؤلف من كتابه كان في هذا التاريخ، وهو نهايات العصر الاخشيدي على وجه التقريب وقبيل بدء العصر الفاطمي في مصر الاسلامية بنحو عشرين عاماً. ويعد الكتاب من تراث مصر الخالد، وسجلاً للنظم السياسية والادارية والقضائية في وطننا طيلة ثلاثة قرون كاملة.

-٤-

ومن أهم ما دونه الكندي في تاريخه:

- فتح عبد الله بن سعيد بن أبي سرح والي مصر لدنقلة عام (٣١هـ).

- معركة ذات الصواري البحرية بين سفن مصر والاسطول الروماني البالغ عدد سفنه ألف سفينة في عهد قسطنطين بن هرقل عام (٣٤هـ)، وسميت ذات الصواري لكثرة صواري

المراكب المشتركة في هذه المعركة واجتماعها، وكان والي مصر آنذاك هو عبد الله بن سعد ابن أبي سرح «٢٥-٣٥هـ: ٦٤٥-٦٥٥م».

- ولاية عقبة بن عامر على مصر «٤٤-٤٧هـ»، وكان عقبة قارئاً شاعراً، فقيهاً، وهو صحابي جليل، وقد امره معاوية ان يسير في أسطول بحري لفتح رودس.

- غزو الروم لشاطىء البرلس عام (٥٣هـ) وهزيمتهم في عهد والي مصر مسلمة بن مخلد «٤٧-٦٢هـ»، وقد اتخذ حلوان مقراً للإمارة بدلاً من الفسطاط، وتوفي عبد العزيز في (١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦هـ)، ودفن بالفسطاط.

- قدوم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إلى مصر في شوال عام (١٣٢هـ/ مايو عام ٧٥٠م) ومقتله ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية، ودخل صالح بن علي الفسطاط يوم الاحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة معلناً بدء قيام الدولة العباسية ودخول مصر تحت سلطانها.

- قدوم أمير المؤمنين المأمون لمصر في عشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين، ودخوله الفسطاط، وركب المأمون فنظر إلى المقياس، وأمر بإقامة جسر آخر على النيل بين الروضة والجيزة وترك القديم مكانه، وزار المأمون الصعيد، كما زار سمخا، والفسطاط، وحلوان، وارتحل إلى بغداد يوم الخميس لثماني عشرة من صفر عام (٢١٧هـ)، فكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوماً.

- ولاية عنبسة بن إسحاق الضبي على مصر «٢٣٨-٢٤٢هـ: ٨٥٢-٨٥٦م»، وفي ولايته نزل أسطول الروم دمياط يوم عرفة سنة (٢٣٨هـ)، وقتلوا بها عدداً كبيراً من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال، فمضى عنبسة إليهم، فهربوا إلى تنيس، فأمر المتوكل بابتناء حصن دمياط، وابتدىء في بنائه عام (٢٣٩هـ).

- غزو الروم للفرما بأسطولهم عام (٢٤٥هـ) فمضى إليهم والي مصر يزيد بن عبد الله التركي فلم يلقهم...

- قيام الدولة الطولونية عام (٢٥٤هـ)، واهتمام أحمد بن طولون بإنشاء اسطول مصري وفتحه لبرقة، ورجع أحمد بن طولون الفسطاط يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب

عام (٢٦٨هـ) وتأسيس أحمد بن طولون لإمبراطورية واسعة النطاق وتوفي أحمد ليلة الأحد بعشر خلون من ذي القعدة سنة (٢٧٠هـ/ ٨٨٤م).

- ولاية خمارويه أحمد بن طولون على مصر «٢٧٠-٢٨٢هـ: ٨٨٤-٨٩٥م» ودعم سلطان مصر في الشام وغيره من الولايات وفي عهده قدم رسول الخليفة العباسي المعتضد بالله «٢٧٩-٢٨٩هـ» في شهر رمضان سنة (٢٨٠هـ) بالهدايا، وطلب زواج المعتضد بقطر الندى بنت خمارويه وتم ذلك عام (٢٨١هـ- ٨٩٤م). وقتل خمارويه بدمشق ليلة الأحد لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين للهجرة، ويقال: إن خدمه قتلوه. وحمل خمارويه إلى الفسطاط فدفن بها . . . لا شك أن مقتله كان مؤامرة سياسية ضد مصر.

- ولاية هارون بن خمارويه على مصر «٢٨٢-٢٩٢هـ: ٨٩٦-٩٠٦م»، وقد مات مقتولاً.

- ولاية شيبان بن أحمد بن طولون، وسقوط الدولة الطولونية، وحرق القطائع في ربيع الاول سنة (٢٩٢هـ)، وكانت القطائع عاصمة مصر في عهد الدولة الطولونية، بناها أحمد بن طولون، غربي القلعة، وتمتد إلى حي السيدة زينب، وفيها مسجد أحمد بن طولون.

- ولاية محمد بن طفح الاخشيدي على مصر عام (٣٢٣هـ) من قبل الخليفة الراضي العباسي.

-٥-

أما أشهر قضاة مصر كما ذكر الكندي فمنهم:

- كعب بن يسار، وكان حكماً في الجاهلية، ولي قضاء مصر عام (٢٣هـ/ ٦٤٤م).

- عابس بن سعيد «٦٠-٦٨هـ».

- عبد الرحمن بن حجيرة «٦٩-٨٣هـ»، وكان من أفقه الناس، وكان ابن عباس يشيد بعلمه وفقهه.

- عبد الرحمن بن معاوية بن حديج «٨٦هـ» وكان أول قاض نظر في أموال اليتامى.

- أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد «١٤٤-١٥٤هـ» - كان إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو

اشتغل بشغل أبى ان يأخذ من مرتبه بقدر ما اشتغل، وقال: إنما أنا عامل للمسلمين، فإذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لي أخذ مالهم. .

– عبد الله بن لهيعة الحضرمي «١٥٥-١٦٤هـ» وكان أول وال يخرج مع الشهود من الصالحين لطلب هلال رمضان بالجيزة، فهو أول القضاة الذين ساروا في طلب الهلال.

-٦-

وبعد فلقد كان الكندي مؤرخاً ثقة في كل ما دونه، وكان موضع تقدير الناس عامة، ومات بعد أن ترك ذكراً خالداً وتراثاً باقياً على مدى الأيام.

الأمالي

لأبي علي القالي

-١-

ترجع شهرة أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (٢٨٨-٣٥٦هـ: ٩٠٠ -٩٦٦م) الى كتابه «الأمالي» الذي يعد أحد أركان الأدب، ومن أشهر مصادر الأدب العربي القديم واعتبره العلماء في القديم والحديث من اصول الثقافة الأدبية، ونوه النقاد والباحثون به تنويهاً كبيراً، وقال فيه ياقوت الحموي (-٦٢٦هـ:١٢٢٧م) في كتابه «معجم الأدباء»: «كتاب الأمالي معروف بين الناس، كثير الفوائد، غاية في معناه» وقال فيه أبو محمد بن حزم القرطبي (٤٥٦هـ: ١٠٦٢م): «كتاب الأمالي» مبار لكتاب «الكامل» الذي جمعه المبرد، ولئن كان كتاب أبي العباس اكثر نحواً وخبراً، فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً».

والكتاب يوضع بجوار كتابي «البيان والتبيين» و«الحيوان» للجاحظ (٢٥٥-٨٦٨م) وكتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢٧٦هـ: ٨٨٩م) وكتاب الكامل للمبرد (٢٨٥هـ:٩٣٩م)، فهذه الكتب قد جمعت الكثير من معارفنا الأدبية وثقافة الأدب، وأخباره وفنونه وأشهر أعلامه، والعديد من الروايات الأدبية عن الأدب القديم، ويوضع معها كذلك كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ: ٩٦٦م).

وقد نالت هذه الكتب شهرة ما بعدها من شهرة. وصارت كتباً دراسية في جميع مراجع الدراسات الإسلامية القديمة، يطالعها ويتزود بثقافتها الطلاب، ويرجع إليها العلماء، ويأخذ عنها الباحثون، ويتخرج على ثقافتها الأدباء والشعراء والكتاب.

وكان الكتاب قد طبع لأول مرة في مطبعة بولاق الأميرية في القاهرة عام (١٣٢٢هـ:١٩٠٤م)، ثم أعيد طبعه محققاً في مطبعة دار الكتب المصرية عام (١٣٤٤هـ: ١٩٢٦م)، مع عناية شديدة بضبطه، وإلحاق فهارس مستوفاة به وإضافة كتاب «التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه» للعلامة أبي عبيد البكري (٤٨٧هـ: ١٠٩٤م) إليه.

ويقع «الأمالي» في طبعة دار الكتب في جزئين الأول في (٢٨٤) صفحة، والثاني في (٣٢٦)، ومعهما كتاب «ذيل الأمالي» والنوادر للقالي أيضاً في (٢٢٤)، صفحة، وألحق بالكتاب كتاب «التنبيه» للبكري الذي يقع هو وفهارس «الأمالي» في (٢٢٤) صفحة أيضاً.

وقد طبع الكتاب طبعات أخرى عدة في بيروت وغيرها.

ويقول محقق كتاب «الأمالي»: إن أئمة اللغة والأدب طالما تجدهم ينظمون في كتبهم من درره، ويغترفون من بحره، وهو تأليف جزل الفائدة، جمع النفع لمن يريد التعمق في علم اللغة، وتزيين عقله بالآداب العربية والأخبار المنتخبة،والأشعار المختارة، والأمثال المستجادة».

ويقول القالي في مقدمة الكتاب: «أمللت هذا الكتاب من حفظي، في الاخمسة بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، وأودعته فنوناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار، وأنواعاً من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا أخترته ولا فناً من الخبر إلا انتحلته، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته، ثم لم اخله من غريب القرآن، وحديث الرسول ﷺ، على أنني أوردت فيه من الأبدال ما لم يورده أحد، وفسرت فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر، ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسان الخليفة جامعاً».. وفي المقدمة أثنى القالي على «الناصر» وولي عهده «الحكم» ثناءً مستطاباً.

وفي الجزء الأول يتحدث القالي عن كثير من المواد اللغوية، وشرح غريب نصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي والروايات الأدبية، والحكم والأمثال والخطب والشعر والقصص، ومن المواد اللغوية التي عرض لها في صدر كتابه: مادة «نسا» ومادة «لحن» ومادة «حرد». ويذكر حديث وصف السحابة ويشرح الغريب فيه، وما من رواية أدبية أو خبر أو شعر إلا فسر غريبه.

وقد اكثر القالي من النصوص الأدبية كخطبة عبد الملك في الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير، ويروى المفاخرة بين طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان عند بعض ملوك حمير،

وحديث الجاحظ وهو مفلوج، وقصيدة ابن سبرة التي نظمها في يده التي قطعت وهو يغزو الروم، وحديث ليلى الأخيلية مع الحجاج، واستعطاف ابراهيم بن المهدي للمأمون، ويذكر ما قاله الشعراء في البكاء ووصف الدموع، وما قيل في عناق الحبيب، وقصيدة ذي الاصبع العدواني، ولامية السموءل وكثيراً من النصوص الشعرية والنثرية، من خطب ووصايا ونصائح وحكم وأمثال وغيرها.

ومن الطرائف التي ذكرها القالي في الجزء الأول: حديث البنات الثلاث اللائي وصفن ما يحببن من الأزواج، وحديث النسوة اللاتي أشرن على بنت الملك بالزواج وتحدثن معها عن محاسن الزوج، وحديث بعض (ملوك) حمير مع ابنتيه حين كبرت سنه وما دار بينهما، والطريف أن كل رواية أدبية غريبة ونادرة يردها القالي إلى راويها، وهو استاذه أبو بكر بن دريد (-٣٢١هـ- ٩٣٣م)، وأبو بكر بن دريد يروي الكثير من المجالس الأدبية التي عدت من أصول فن المقامة ويدون القالي الكثير من هذه المجالس في كتابه «الأمالي».

ومما ذكره القالي في الجزء الثاني من «الأمالي»: حديث بعض الوفود على عمر بن عبد العزيز، وحديث الأحنف بن قيس مع معاوية في مدح الولد، وحديث هند بنت عتبة وما اشترطته على أبيها عتبة بن ربيعة في زواجها قبل أن يزوجها أبوها من أبي سفيان بن حرب، وحديث البنات الثلاث مع أبيهم الذي كان قد عضلهن ومنعن من الزواج من الأكفاء، وحديث همام بن مرة مع بناته الثلاث العوانس.

ويذكر القالي في الجزء الثاني أيضاً فيما ذكره فيه: نبذة من كلام الامام علي، ووصف الامام علي لرسول الله ﷺ، ومرثية زينب بنت الطثرية في أخيها يزيد، وخطبة لعمر بن عبد العزيز وما قيل في كتمان السر، والكثير من الخطب والقصائد والحكم والأمثال والأخبار، فيما يذكره من الطرائف في الكتاب.

-٢-

والقالي البغدادي أشهر أعلام الأدب العربي القديم، وهو شخصية بغدادية أندلسية طريفة، وإمام في اللغة وعلوم الأدب، وله مؤلفات جمة مأثورة، ومن كتبه: مقاتل الفرسان

و«تفسير السبع الطوال»، وكتاب «الممدود والمقصور» وكتاب «فعلت وأفعلت»، وكتاب «الإبل»، وكتاب «حلى الانسان والخيل»، وكتاب «البارع في اللغة»، وكتاب «النوادر» وقد ألحق بالأمالي لأنه لا يخرج عنه، فهما من واد واحد.

وكان القالي أحفظ أهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً في ذلك. وحياته مثل رائع لحياة العلماء المسلمين في عصور النهضة الفكرية والازدهار العلمي في العالم الإسلامي، والتشجيع الذي يفوق الخيال من الخلفاء والوزراء والأعيان. فالعلم في العالم الاسلامي القديم لم يكن وسيلة للدعاية السياسية، ولا للشهرة الرخيصة، والاعلان الكاذب، بل كان حركة ضخمة لخدمة التقدم، وللرقي بالحضارة، ولإعزاز شأن العقل، والإرتفاع بمستوى الحياة العامة، وكان مجانياً تنهض به الدولة وتنفق عليه الدولة ببذخ وسخاء.

ولد القالي عام (٢٨٨هـ: ٩٠٠ م) بمنازجرد من أعمال ديار بكر، وبها نشأ وحصل أطرافاً من العلم. وكان ينتمي إلى الأمويين، فأحد أجداده وهو سليمان (الجد الخامس) - كما في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ): كان مولى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي.

ورحل القالي عام (٣٠٣هـ) وهو في الخامسة عشرة من عمره إلى العراق في طلب العلم والتحصيل، وفي طريقه إلى بغداد، كان في رفقة جماعة من قرية «قالى قلا»، فلما دخل بغداد نسب إليهم لكونه في صحبتهم، وأطلق عليه القالي، وأحياناً كانوا يسمونه البغدادي لطول إقامته في بغداد. وتتلمذ في بغداد على فحول العلماء، وفي مقدمتهم: البغوي (-٣١٧هـ) والعدوي (-٣١٩هـ) والسجستاني (-٣١٦هـ)، وابن صاعد (-٣١٧هـ)، وابن درستويه (-٣٤٧هـ) والزجاج (٣١١هـ)، والأخفش الصغير (-٣١٥هـ)، وابن دريد (-٣٢١هـ)، وتفطويه (-٣٢٣هـ)و وابن السراج (-٣١٥هـ) وابن الأنباري (-٣٢٨هـ) وسواهم من أعلام العلماء، الذين يروي عنهم وينوه بعلمهم.

وبدأ نبوغ القالي في اللغة والأدب لأساتذته، وأخذت شهرته تزداد في حلقات العلم

والثقافة في دار السلام، وجلس للتعليم والإفادة، وظل ربع قرن مقيماً في بغداد، متعلماً للتعليم محققاً ومفيداً، حتى جاءت سنة (٣٢٨هـ) فكانت عام التطور المفاجىء في حياة القالي العلمية والأدبية.

وسمع علماء الأندلس الذين كانوا يفدون على بغداد بالقالي وبنسبه الأموي وبمكانته العلمية، وبأنه يعيش في بغداد مزوراً على بني العباس، معتزاً بانتمائه إلى الأمويين، وعن طريقهم علم الناصر وولي عهده الحكم بقصة هذا العالم، فكاتبوه وبعثوا إليه مع رسلهم الهدايا الكثيرة، كما بعثوا إليه يطلبون وفادته إلى الأندلس لينزل في رحابهم، فلبني أمية دولة كبيرة في الأندلس أسسها الداخل عام (١٣٨هـ: ٧٥٥م) وهي قائمة حتى عصر القالي، والناصر هو الخليفة الأموي فيها الذي تولى الملك منذ عام (٣٠٠هـ)، وولي عهده الحكم بن الناصر هو الركن الوطيد للدولة وللحركة العلمية فيها، وعاصمة الخلافة الأموية في الأندلس هي قرطبة، وفيها أقيمت المكتبات والجامعات والمدارس، وازدهرت الحركة العلمية في الاندلس ازدهاراً عظيماً.

في لحظة حاسمة في حياة القالي كانت رسالة الناصر في يد عالمنا يقرؤها ويعيد قراءتها، وكان الملك الأموي يرغبه فيها في الوفود عليه، لنشر علمه في بلاده، ولبى القالي الدعوة، وسافر إلى قرطبة، مودعاً بغداد وعهده فيها، وحياته بها.

دخل القالي قرطبة عام (٣٣٠هـ) كما يقول ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» لثلاث ليال من شعبان فأكرم الناصر وفادته، وأعلى في دولته مكانته، ووكل إليه تعليم ابنه ولي العهد الحكم. واستوطن قرطبة، وأخذ يلقي محاضراته في المسجد الجامع بالزهراء، وكان القالي واسع العلم، غزير الرواية، طويل الباع في علوم الأدب واللغة، فسمع الناس والطلاب منه، وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأمالي، وعظمت استفادتهم منه، وتتلمذ عليه الزبيدي مؤلف كتاب «مختصر العين» وغيره. ومدح الشاعر الأندلسي الرمادي يوسف ابن هارون الكندي أبا علي القالي بقصيدة، منها:

الشـــرق خـــال بعـده فكـأنمـا ... نـزل الخـراب بـربعـه المـأهـول
وكـأنـه شمـس بـدت فـي غـربنـا ... وتغيبـت عـن شـرقهـم بـأفـول

وعاش القالي في الأندلس عشرين سنة في ظلال الناصر، وست سنوات في ظلال الحكم بن الناصر الذي شمله بالعطف والسخاء والعطاء. وكان بين القالي وعلماء الأندلس وأدبائها صداقات ومداعبات، وكان من معاصريه في الأندلس ابن القوطية وغيره. ونال القالي من الدولة كل تكريم ورعاية، وعهد إليه الخليفة بتمثيل الدولة في أخطر المواقف السياسية، حتى ليروى أن الناصر كلفه بالخطابة أمام وفد الروم الذين زاروا قرطبة، ووفدوا على مليكها، لولا أن أبا علي القالي بهت وانقطع منه الكلام في هذا الموقف، فقام مقامه سعيد بن منذر البلوطي. وتوفي القالي في قرطبة في ربيع الآخر من عام (٣٥٦هـ)، فبكاه تلاميذه وأصدقاؤه أحر بكاء، وشيعت قرطبة كلها جنازته وحزن عليه الخليفة الحكم بن الناصر حزناً شديداً.

-٣-

قد كان للقالي منزلته العلمية في العاصمة الأندلسية، وله دالته على الخلافة الأموية فيها، لانتمائه إلى بني أمية، ولأنه أستاذ ولي العهد أيضاً.

وكان من أعلام العلماء في الأندلس أو في قرطبة آنذاك البلوطي، والزبيدي وأبو الحسن جعفر المصحفي الشاعر، وابن رفاعة الألبيري، وابن القوطية، ويوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي، وأحمد بن أبي الزبيدي. والقزاز، وابن مغيث القاضي وثابت، وقاسم ابن ثابت. ومع ذلك لم يستطع أحد من منافسيه أن يزحزحه عن مكانته ... وفي «نفخ الطيب» أن الحكم ظل يتعهده ويدفع عنه حساده حتى بعد أن آلت إليه الخلافة. ويقول ابن الفرضي في كتابه «بغية الملتمس»: إن الناس شهدوا له بالتقدم والإجادة وسمعوا منه. وظل القالي على امتداد العصور يمثل شخصية الراوية اللغوي الأديب القصاص الأخباري الذي يجمع الطرائف في الأدب والشعر واللغة والنسب، ويؤلف بينها لتكون موضوع محاضرة عامة يلقيها على تلاميذه والمستمعين إليه في مسجد قرطبة الجامع كل يوم خميس، وهذه المحاضرات تمثل الثقافة الأدبية واللغوية عند علماء الأدب المحافظين في بغداد، وقد صارت نموذجاً حياً وضع أمام عيون العلماء والأدباء والطلاب في قرطبة وأفاد منه الدارسون والباحثون فوائد جلى. ولم يتعصب القالي في رواياته الأدبية لعصر من العصور، فلم يقف

بمختاراته عند العصر الجاهلي وحده بل طاف بكل العصور إلى أيامه.

وأغلب روايات الأمالي هي عن أساتذته في بغداد، والأكثر منها، وبخاصة الروايات التي تمثل التيار القصصي في الأدب، منقولة عن أستاذه ابن دريد البصري العالم اللغوي المشهور، ولما مات ابن دريد عام (٣٢١هـ) قال القالي وهو يقيم في بغداد: إني لا أرجو أن أقيم بعده في بغداد.

-٤-

ومقدمة «الأمالي» سجل ثمين، يكشف لنا ألواناً عدة من حياة القالي فهي تمثل نثره الأدبي أصدق تمثيل وهي تصور لنا البواعث النفسية لتأليف «الأمالي». وفيها يشيد القالي - بعد حمد الله- بفضل العلم ومنزلة العلماء، ويثني فيها على الناصر وتشجيعه للآداب، وعلى ولي عهده الحكم، ويذكر أنه أملى «الأمالي» في أيام الخميس بقرطبة في المسجد الجامع بالزهراء المباركة. ثم يختمها ببيان ما اشتمل عليه الكتاب من بحوث ودراسات وآراء.

و«الأمالي» مع مظهره الأدبي العالي يدل على ثقافة لغوية واسعة، هي الطابع البارز الغالب على الكتاب فهو حافل بالفوائد اللغوية التي لا توجد في كتاب، فنجد القالي فيه - مثلاً - يتعرض لتفسير مادة «نسا»، ومادة «لحن» ومادة «حرد». ويفسر الغريب في حديث السحابة التي نشأت ورسول الله جالس بين أصحابه ﷺ، ويتعرض للكلام عن غريب حديث «ألم أخبرك أنك تقوم الليل؟» ونجده كذلك يخصص مطالب لترتيب أسنان الإبل وأسمائها ولأسماء الرجل الذي يحب محادثة النساء، ولأسماء الشخص، ولأسماء الالوان وأوصافها إلى غير ذلك مما اشتمل عليه الكتاب من ثقافة لغوية عرض لها المؤلف قصداً، أو ذكرها في أثناء شرحة لنصوص أدبية قديمة أو محدثة.

وفي فصول في الكتاب يذكر ما تتعاقب فيه العين والحاء والهمزة والهاء والسين والتاء.

أما ثقافات الكتاب الأدبية فينطبق بها ما احتوى عليه الكتاب من روائع الآثار الأدبية المروية عن العصر الجاهلي والاسلامي والأموي وصدر دولة بنى العباس. وهي نصوص

أدبية جميلة قد لا توجد في كتاب آخر، سواء ما سجله القالي منها من النثر أم من الشعر. وفي الكتاب كذلك آراء وأحكام ومجالس نقدية، ذات أهمية في ثقافة الأدب ومتذوقيه وطالبيه.

أما ملاحظات البكري في كتابه «التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه» فمع كثرتها نجد بعضها يتصل بتصحيح اسم من الأسماء، كأن يذكر القالي خطبة لعبد الملك وانشاده فيها شعر قيس بن رفاعة فيذكر البكري أن صحة الإسم هي: «أبو قيس بن أبي رفاعة»، وكأن يصحح شرحاً لنص من النصوص، وكان يشير إلى تعثر القالي في نسبة بعض الأشعار إلى أصحابها فيعزوها إلى أعراب مجهولين، أو يخلط في ترتيب الأبيات أحياناً، أو نحو ذلك ومن مثل ما نبه عليه البكري خلط القالي في القصيدة الدالية التي رواها الأعرابي، فأدخل فيها بعض أبيات لابن الدمينة، وبعض أبيات للحسين ابن مطر، وبعض أبيات لا يعلم قائلها (١: ٤٣ الأمالي). إلى غير ذلك.

ويعد الأمالي دائرة معارف الأدب القديم، وهو ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة، والثقافة الواسعة، وهو صورة ونموذج لآداب المشرق في مختلف العصور إلى نهايات القرن الثالث الهجري وقد وضع هذا النموذج أمام عيون الشباب الأندلسي.

والآداب الشرقية كانت في الأندلس من الطرف الجميلة، التي يحتفل الناس بها، وتروى وتذاع، لأنها تشد الأندلسيين إلى ماضيهم وتراثهم ولغتهم ودينهم وتاريخهم، وذلك على الرغم من الخلافات السياسية بين الأندلس وبغداد.

وليس في الكتاب شيء من آداب الأندلسيين وآثارهم، اذ هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده. وبهذا الكتاب خلد القالي في تراثنا العربي على مر العصور والأجيال.

فتوح مصر والمغرب

لابن عبد الحكم

-١-

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن الحكم القرشي المصري (١٨٧-٢٥٧هـ-٨٠٣-٨٧١م) من طبقة المؤرخين المصريين العظام، الذين سجلوا الكثير عن مصر وتاريخها وأخبارها وخططها. وكان أبوه عبد الله (ت٢١٤هـ) من الفقهاء المحدثين، وانتهت إليه رياسة الطائفة المالكية في مصر، وروى عن الإمام مالك كتابه الموطأ سماعاً، وكان صديقاً للإمام الشافعي إذ نزل عليه ابن إدريس حين جاء إلى مصر فاحتفى به وأكرمه، وكان ثريا ينفق أمواله على العلم وأهله وطلابه، مع الجاه الكبير والمنزلة الرفيعة ونبغ أبناؤه الأربعة في شتى فروع الثقافة الإسلامية، عبد الرحمن في التاريخ، وعبد الحكم وسعد في الفقه والحديث، ومحمود في علوم الدين والعربية.

وتخرجوا جميعاً من حلقات العلم في مسجد الفسطاط الذي كان بمثابة جامعة إسلامية كبرى يفد إليها الطلاب من كل مكان، وبحسبنا أن الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) كان إمام حلقة كبرى فيها بعد هجرته إلى مصر وإقامته بها، وأن أبا تمام (١٨٠-٢٣١هـ) تتلمذ على حلقاتها، كما أن المتنبي أبا الطيب (٣٠٣-٣٥٤هـ) فيما بعد كانت له حلقة كبيرة يجلس إليه فيها الشعراء والأدباء والنقاد.

وقد بلغ بنو عبد الحكم من الجاه والثراء ما لم يبلغه أحد.

ويعد عبد الرحمن بن عبد الحكم في مقدمة مؤرخي مصر الإسلامية الذين حفظوا لنا الكثير من أخبار الفتح الإسلامي لمصر، وعنه يأخذ كل المؤرخين من بعده.

-٢-

وكتاب تاريخ «فتوح مصر والمغرب» لعبد الرحمن عبد الحكم من أهم مصادر التاريخ

الفتح الإسلامي لمصر، وقد استمد مؤلفه معلوماته التاريخية من مختلف المصادر، ومن الروايات التي يتناقلها الرواة، وكانت مخطوطات يحيى بن عبد الله بن بكير، والواقدي وابن لهيعة (٩٦- ١٦١هـ) والليث بن سعد (٩٤- ١٧٥هـ) وهو أحد المجتهدين الأعلام، وله مذهب معروف ويزيد بن أبي حبيب (ت١١٠هـ)، وعثمان بن صالح (ت٢١٦هـ)، وخالد ابن حميد (ت١٩٩هـ) ويحيى بن أيوب (ت١٧٣هـ)، وخالد بن نجيح، وأسعد بن موسى (ت ٢١٢هـ) وعبد الله بن صالح (ت١٩٣هـ) وسواهم هي من أهم مصادره ومن الرواة المعروفين الذين رجع ابن عبد الحكم إلى أخبارهم: عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ)، والنضير بن عبد الجبار (ت٢١٩هـ)، وسعيد بن أبي مريم (ت٢٢٤هـ)، وسعيد بن كثير بن عفير (ت٢٢٦هـ)، وعبد الله بن وهب (ت١٩٧)، وإسحاق بن الفرات (ت٢٠٤هـ)، وإسحاق بن بكر (ت٢١٨)، وابن عبد الحكم في هذا الكتاب يوثق كلامه بذكر الأسانيد، متأثراً بشتى مصادره، في جمع مواده التاريخية الغزيرة.

وكتاب «فتوح مصر والمغرب» من أقدم مصادرنا التاريخية في الفتح الإسلامي لمصر وشمال افريقيا، وفي وصف الخطط الإسلامية في الفسطاط والجيزة والاسكندرية وسواها من المدن المصرية القديمة العريقة.

وعلى هذا الكتاب يعتمد المؤرخون الإسلاميون القدامى فيما كتبوه عن تاريخ الإسلام والفتح الإسلامي للبلاد التي خضعت لحكم المسلمين في أفريقيا، ومنه يقتبس أعلام المؤرخين الذين جاءوا بعده، من مثل الكندي (ت٣٥٠هـ)، وابن زولاق (ت٣٥٧هـ)، والقضاعي (ت٤٥٤هـ)، ومن مثل ابن رقماق (ت٨٠٩هـ)، والمقريزي (ت٨٤٥هـ)، وأبي المحاسن (ت٨٧٤هـ)، والسيوطي (ت٩١١هـ)، وابن إياس (ت٩٣٠هـ)، وغيرهم.

وإذا كان الواقدي المتوفى عام (٢٠٧هـ) قد ألم بأخبار الفتوحات الإسلامية، ومنها فتح مصر وكذلك البلاذري (المتوفى عام ٢٧٩هـ) في كتابه «فتوح البلدان»، فإن ابن عبد الحكم وكتابه «فتوح مصر والمغرب» لهما الريادة في هذا المجال، وما يتعلق بمصر والفتح الإسلامي لها في الكتاب هو جوهر الكتاب ومضمونه التاريخي الكبير.

والظاهر أن ابن عبد الحكم قد كتب كتابه عام(٢٤٦هـ) وهو العام الذي ذكره في أخبار القضاة الذين ولوا قضاء مصر.

وابن عبد الحكم وهو فقيه ومحدث، قد خلق ليكون مؤرخاً قبل كل شيء، ومن ثم كان هو أول من دون الرواية التاريخية المحققة المسندة عن تاريخ الفتح الإسلامي لمصر والمغرب، وما اتصل بهذا الفتح من الأخبار والسير[١].

-٣-

وكتاب «فتوح مصر والمغرب» يحتوي على أجزاء عدة:

الأول: في فضائل مصر وتاريخها، قبل الإسلام وفي تاريخ بعض الأمم القديمة.

والثاني: في فتح مصر، بقيادة عمرو بن العاص ووصف وقائع هذا الفتح بالتفصيل.

والثالث: في وصف خطط مصر والاسكندرية والجيزة وغيرها.

والرابع: في أعمال ولاة مصر: عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد.

والخامس: في فتح شمالي افريقيا والأندلس.

والسادس: عن قضاة مصر حتى عام (٢٤٦هـ).

والسابع: مختارات من الأحاديث والروايات المنسوبة لأصحاب رسول الله ﷺ وعدد هؤلاء الصحابة الذين وفدوا على مصر منذ الفتح الإسلامي اثنان وخمسون صحابياً بدأهم ابن عبد الحكم بعمرو بن العاص وابنه عبد الله.

ويذكر ابن عبد الحكم أحاديث عدد كبير من الرواة الإخباريين والروايات المروية عنهم.

ولكتابنا هذا «فتوح مصر والمغرب» أهمية كبيرة لدى كل الباحثين من العرب ومن المستشرقين، الذين أولوا هذا الكتاب عناية فائقة واهتماماً كبيراً، واقتبسوا منه الكثير من

---

(١) ص (١٦) مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري لمحمد بن عبد الله عثمان - طبع في مصر (١٩٩١م).

الفصول التي نشروها في بحوثهم التاريخية. وقد نشر المستشرق توري مختارات من كتاب «فتوح مصر» في جزء واحد في ليدن عام (١٩٢٠م) عن نسخة المتحف البريطاني.

وقد حفظت المكتبات الغربية بنسخ خطية من كتاب ابن عبد الحكم.

ففي المتحف البريطاني بلندن نسخة فريدة (برقم ٥٢٠ شرقيات ٦) ترجع إلى أواخر القرن السادس الهجري.

وفي مكتبة باريس الأهلية نسخة برقم (١٨٨٦) تاريخها (٥٨٥هـ)، ونسخة أخرى برقم (١٦٨٧) ترجع إلى عام (٧٧٩هـ).

وفي خزانة المكتبة الأكاديمية في ليدن مخطوطة من الكتاب برقم (٩٦٢) ترجع إلى عام (٩٧٣هـ)، وهي ناقصة من الأول.

وقد حقق الكتاب المحقق المصري الأستاذ عبد المنعم عامر - رحمه الله تعالى- تحقيقاً جميلاً ودقيقاً وكتب له مقدمة إضافية أخذنا عنها الكثير من معلوماتنا في هذا المقال، وقد اعتمد على نسخة مخطوطة عام (٥٣١هـ)، وقد ذكر ناسخها أن الكتاب موثق برواية: أبي القاسم علي بن خلف الأزري ورواية أبي بكر محمد بن أحمد بن الفرج عنه ورواية أبي الحسن علي بن منير الخلال. ورواية أبي صادق مرشد بن يحيى المديني إجازة عنه ورواية أبي القاسم هبة الله علي بن سعود عنه. وسماع لأبي الميمون عبد الوهاب بن عتيق المقرى ولولده أبي القاسم هبة الله. مما يدل على تداول الرواة النقل للكتاب جيلاً إثر جيل.

إن الكتاب يستحق كل اهتمام فهو من عيون كتب التراث التاريخي الإسلامي، وهو من أقدم مصادرنا التاريخية عن الفتح الإسلامي لمصر والمغرب، وفيه الكثير من المعارف التاريخية التي يجب الوقوف عندها وعليها.

-٤-

وقد بدأ موكب الفتح الإسلامي لمصر في آخر شهور عام (١٨هـ) بقيادة عمرو بن العاص (٤٧ق هـ- ٤٣هـ) وخلفه عبد الله بن سعد كما وليها للإمام علي بن أبي طالب الأشتر النخعي.

وحكم مصر في العصر الأموي واحد وعشرون والياً: اثنان منهم وليا الحكم مرتين، وواحد منهم وليه ثلاث مرات، وحكم أحدهم البلاد نائباً عن ابن الزبير ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان . . . وكان خمسة من هؤلاء من البيت الأموي، ومنهم عبد العزيز بن مروان الذي توفي عام (٨٦هـ- ٧٠٦م)، وخلفه عبد الله بن عبد الملك، وكان آخر الأمراء عليها من قبل الخلفاء الأمويين عبد الملك بن مروان الذي ولي مصر عام (١٣٢هـ).

وولي مصر في العصر العباسي أربعة وستون والياً، أولهم صالح بن علي بن عبد الله بن عباس. وفي أمد وجيز ظهر فيها الكثير من أعلام الدين والشريعة واللغة، ومن المجتهدين وفي مقدمتهم: عبد الله بن عمرو بن العاص (ت٦٨هـ)، وعبد الله بن لهيعة، ثم الليث بن سعد، والشافعي وتلامذته من أمثال: الربيع بن سليمان، والمازني والبويطي وغيرهم.

وصبغ الفتح الإسلامي لمصر الشعب كله بصبغ إسلامية ظاهرة ازدادت على مر الأيام ظهوراً وانتشاراً.

-٥-

وفي مقدمة الكتاب يذكر ابن عبد الحكم وصية رسول الله ﷺ بالقبط؛ كما يذكر بعض فضائل مصر، وأطرافاً من تاريخها القديم قبل الإسلام، ودخول إبراهيم الخليل مصر وغزو العمالقة (الهكسوس) لها، وتربية يوسف عليه السلام فيها. وملوك مصر بعد الهكسوس، وخروج بني إسرائيل من مصر. كما يذكر الغزو الفارسي لمصر، ثم الحكم الروماني، ويذكر كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس يدعوه فيه إلى الإسلام.

وينتقل إلى ذكر «فتح مصر» حيث يروى وقائع هذا الفتح بالتفصيل:

- دخول جيش عمرو إلى العريش في ذي الحجة من العام (١٨هـ- ١٢ من ديسمبر ٦٣٩هـ).

- فتح الفرما - (٢٠ يناير ٦٤٠م).

- موقعة عين شمس - (يوليو ٦٤٠م).

- بدء حصار حصن بابليون (- سبتمبر ٦٤٠م).

- توقيع المعاهدة بين عمرو والمقوقس (- أكتوبر ٦٤٠م) وهي التي رفضها هرقل.

- تسليم حصن بابليون (٦ ابريل ٦٤١م) وهو اليوم الذي يؤرخ به الفتح الإسلامي لمصر (شهر ربيع الثاني من عام ٢٠هـ - ١٧ أبريل ٦٤١م).

- بدء الهجوم على الإسكندرية (- يونيو ٦٤١م).

- تسليم الاسكندرية (- ٨ نوفمبر ٦٤١م).

- (١٧ سبتمبر ٦٤٢م) أجلاء الروم عن الاسكندرية ثم ينتقل ابن عبد الحكم إلى ذكر الخطط.

ويروي ابن عبد الحكم عن رواته عن معاوية بن حديج يقول: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية فقدمت المدينة في الزهيرة، فأنخت راحلتي بباب المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية - فتاة صغيرة - من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحباً، عليَّ ثياب السفر، فأتتني فقالت:

- من أنت؟

- فقلت لها: أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص فانصرفت عني، ثم أقبلت تعد- تجري - أسمع حفيف إزارها على ساقها، حتى دنت مني فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين، يدعوك فيتبعها.

فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه، ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟ قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن: أذن في الناس، الصلاة جماعة.

فاجتمع الناس، ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم.

ثم صلى، ودخل منزله، واستقبل القبلة، فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال: يا جارية، هل من طعام؟

فأتت بخبز وزيت.

فقال: كُل.

فأكلت على حياء، ثم قال:

يا جارية، هل من تمر؟

فأتت بتمر في طبق، فقال: كُل؛ فأكلت على حياء ... ثم قال:

ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

قال: قلت: أمير المؤمنين قائل (من القيلولة وهي نوم الظهيرة).

قال: بئس ما قلت، أو: بئس ما ظننت لئن نمت النهار لأضيّعنّ الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية.

لقد كان خبر سقوط الإسكندرية في أيدي المسلمين، خبراً استبشر به المسلمون في مدينة رسول الله ﷺ كثيراً، الإسكندرية المدينة المدججة بالسلاح الروماني وبالجيش الروماني الذي يتجاوز عدده مائتي ألف وبالأسطول الروماني البالغة سفنه قرابة الألف[١].

-٦-

وبعد ذلك يتحدث ابن عبد الحكم عن فتح برقة، وطرابلس، وافريقيا[٢] - يونس والجزائر والمغرب - ثم ذكر فتح النوبة، كما يتحدث عن معركة الصواري البحرية وانتصار المسلمين فيها على الأسطول الروماني الضخم البالغ عدده ألف سفينة ... وكان ذلك عام خمسة وثلاثين للهجرة.

---

(١) يتحدث ابن عبد الحكم عن قدوم عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة فقدم له ثريداً فأخذ عمرو يأكل، وعمرو يقول: إنه والله لقد علم أني بما قدمت به من مصر لغنيٌّ عن الثريد، ولكنه أراد أن يختبرني، والتفت عمر إلى عمرو قائل: من أنت؟ قال: أنا عمرو فرد عليه عمر: عهدي بك شيخاً وأنت اليوم شاب، كأنه يحاسبه على ترف يبدو عليه.

(٢) تم فتحها على يدي عبد الله بن سعد في خلافة عثمان، وارسل ابن سعد عبد الله بن الزبير إلى الخليفة عثمان في المدينة بشيراً بالفتح.. وكان ابن سعد قد ولاه عثمان أخيراً على مصر. =

ويتحدث ابن عبد الحكم عن قواد فتح المغرب:

- معاوية بن حديج.
- عقبة بن نافع.
- وزهير بن قيس.

كما يتحدث ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس على يدي طارق بن زياد وموسى بن نصير، في تفصيل طويل.

ويخصص ابن عبد الحكم جانباً كبيراً من الكتاب يتحدث فيه عن قضاة مصر. وبذلك ينتهي الكتاب.

إن المؤرخ المصري الخالد ابن عبد الحكم قد خلَّف لنا ثروة كبيرة من المعلومات التاريخية عن الفتح الإسلامي لمصر والمغرب استفاد - أو قل أفاد - منها كل المؤرخين المسلمين الذين ظهروا من بعده، كما أفاد منها كل من كتب عن هذا الفتح العظيم من المستشرقين ومن العرب المحدثين.

رحمك الله يا عبد الرحمن رحمة سابغة تكافىء جهدك الكبير في إضاءة التاريخ الإسلامي في أعظم فترة من فتراته حفلت بكل الأعمال والانتصارات الباهرة التي أذهلت الدنيا وشغلت الناس.

الإمتاع والمؤانسة

للتوحيدي

-١-

أبو حيان التوحيدي، والجاحظ الثاني، «٤١٣هـ: ١٠٢٢م» من أشهر أعلام الأدباء في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، وقد لقبه محققا كتابه «الإمتاع» بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة. . .

عاش طيلة حياته فقيراً معدماً، لا يجد القوت، يشكو ويبكي، ولكن دون طائل، قصد: ابن العميد الوزير «-٣٦٠هـ»، والصاحب بن عباد الوزير «-٣٨٥هـ»، وابن سعدان الوزير «-٣٧٥هـ»، وابن شاهويه القاضي «المتوفى بنيسابور عام ٣٦٢هـ»، وسواهم، فما عاد بطائل. . .

. . . كما جمعت الصداقة بينه وبين أبي الوفاء المهندس «٣٢٨هـ- ٣٧٦هـ»، ولكنها لم تكن عامل تغيير في حياته. . .

وفي أواخر عمره جمع ما كتبه وأحرقه، وقال[١]: «إني جمعت أكثر هذه الكتب للناس، ولطلب المثالة فيهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله، ولقد اضطررت بينهم إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكلف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة، وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم».

وقال: أما حالي فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تواتني لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها[٢].

---

(١) معجم الأدباء لياقوت - نشر فريد رفاعي، (ج١٥، ص١٨).

(٢) الإشارات الإلهية -لأبي حيان- تحقيق د.عبد الرحمن بدوي - القاهرة، (١٩٥٠) - مطبعة جامعة فؤاد الأول -(ص١٨).

=

وقال في آخر كتابه: «الامتاع والمؤانسة» من رسالة له إلى صديقه أبي الوفاء المهندس: خلصني أيها الرجل من التكفف، أنقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضر، اشتر لي بإحسان، اعتبرني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مؤونة الغداء والعشاء، إلى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية، والقميص المرقع؟ إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد - والله -بح الحلق . . . وتغير الخلق، الله الله في أمري، اجبرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صد[1] أغثني فإنني عاطل، قد أذلني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب وباب، ونكرني العارف بي، وتباعد عني القريب مني».

ومع ذلك فلم ينصف الرجل أصدقاؤه ولا أعداؤه على السواء..

ومن أهم ما بقي من تراث أبي حيان:

١- كتاب الامتاع والمؤانسة الذي حققه أحمد أمين وأحمد الزين - وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة في ثلاثة أجزاء «١٩٣٩-١٩٤٣».

٢- المقابسات - نشره السندوبي في القاهرة عام (١٩٢٩)، وطبع في بيروت.

٣- الصداقة والصديق، ونشر معها رسالة في العلوم، طبع الجوانب - القسطنطينية (١٣٠١هـ - ١٨٨٣م).

٤- الهوامل والشوامل نشر في القاهرة بتحقيق أحمد أمين وأحمد السيد صقر.

٥- البصائر والذخائر، نشر كذلك بتحقيق صقر وأحمد أمين.

-٢-

هذا هو أبو حيان التوحيدي في سطور قليلة . . . أما قصة كتابه «الامتاع والمؤانسة» فهي قصة طريفة شائقة نفصل الكلام عليها في هذه الدراسة.

كان من رجال العلوم والآداب في عصر أبي حيان، عصر البويهيين والآداب الاقليمية، القرن الرابع الهجري، مهندس نابغة، اسمه أبو الوفاء، وكان هذا المهندس صديقا لأبي

(١) أي: ظامىء.

حيان، كما كان في الوقت نفسه صديقاً للوزير أبي عبدالله العارض، وعطفاً من أبي الوفاء على صديقه التوحيدي، واشفاقاً منه عليه، وصل أبا حيان بالوزير، وأدناه الوزير من مجلسه، واستمع إليه محاضراً ومسامراً.

وكان للوزير مجلس علم وأدب، يتردد عليه العلماء والأدباء والشعراء، وأصبح أبو حيان واحداً من هذه الزمرة وصار مشاركاً لتلك الصفوة . . . في حوارها وسمرها ومحاضراتها في تلك الحلبة.

وحضر أبو حيان أربعين مجلساً من مجالس هذا الوزير، الذي كان يشجع العلماء والفلاسفة، والأدباء ويشملهم برعايته، ولما لم يحظ من الوزير بطائل فارقه وفارق مجلسه.

فطلب منه صديقه أبو الوفاء أن يدون له كل ما دار في مجلس الوزير من حوار علمي، وجدل فكري، وما كان يحاور فيه الوزير ضيف مجلسه أبا حيان، وكما يقول أبو الوفاء للتوحيدي:

«حتى كأني كنت شاهداً معكما، ورقيباً عليكما[1]». . . وهدده إن لم يفعل ما أمره بالقطيعة والجفوة، فرضخ أبو حيان بالأمر، وكتب هذا الكتاب يحكى فيه قصة أربعين ليلة في مجلس الوزير أبي عبدالله، وما دار فيها من سمر وحوار بين المفكرين والعلماء والأدباء والساسة، حول مسائل فكرية وأدبية وسياسة وغير ذلك. ومن نتاج ذلك كله كانت مادة هذا الكتاب الرائع النفيس، والممتع المؤنس.

على غلاف الجزء الأول كتب المحققان عن الكتاب: مجموع مسامرات في فنون شتى حاضر بها الوزير أبا عبد الله العارض في سبع وثلاثين ليلة. . .

وعلى غلاف الجزء الثالث كتبا مجموع مسامرات في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة، حاضر المؤلف بها الوزير أبا عبد الله العارض في أربعين ليلة.

وقد احتوى الكتاب فعلاً على أربعين ليلة، ويلاحظ أن الليلة الثانية عشرة غير موجودة

(١) (ص٧، ج١) الإمتاع والمؤانسة.

في الكتاب، فهل سقطت منه أو أن الخطأ نشأ من ترقيم الليالي، فالليلة الثالثة عشرة هي الثانية عشرة وهكذا إلى آخر الكتاب؟ الأرجح عندي أنها قد سقطت من النسخة الخطية.

ونلاحظ أن الليلة العاشرة كان لحديث فيها عن أصناف الحيوان، وقد دار السمر حول ذلك - كما يقول أبو حيان - في ليلتين، فهي إذن تتضمن الليلة الحادية عشرة أيضاً، وبعدها ينتقل الكتاب إلى الليلة الثالثة عشرة، ويسير في الليالي إلى الليلة الاربعين.

ويبدو أن المحققين قد لاحظا أن الليلة الثانية عشرة غير موجودة في الكتاب فأسقطاها من عدد الليالي البالغ أربعين ليلة لتصبح الليالي تسعاً وثلاثين، وعلى هذا فسبع وثلاثون الواردة على غلاف الجزء الأول تصحيف مطبعي، وصحتها: تسع وثلاثون، ودليلنا على ذلك هو أنهما قد عادا فجعلا عدد الليالي أربعين وذلك على الأصل، ودون حساب لليلة الثانية عشرة الساقطة من الكتاب وهذه الليالي الأربعون أو التسع والثلاثون، هي على أية ليالي الحوار الفكري والأدبي، الذي احتوى عليه كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

ولعل هذه الليالي كانت مقدمة لظهور ليالي السمر ممثلة في كتاب «ألف ليلة وليلة». وبذلك يكون كتاب الامتاع رائداً في هذا المجال، ويكون له فضل آخر لا ينسى، إذ كان مقدمة رائعة للانتقال بليالي السمر من أحاديث الثقافة والفكر والأدب إلى أحاديث التسلية واللهو.

-٣-

ويرى القفطي في كتابه «أخبار الحكماء» أن أبا حيان ألف الكتاب لشيخه أبي سليمان المنطقي، الذي يقول فيه التوحيدي: «أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر... الخ».

ويذكر القفطي الوزير ابا عبد الله العارض الرأي. ففيها أن أبا حيان ألّف الكتاب لصديقه أبي الوفاء، لا لإستاذه أبي سليمان.

ويذكر القفطي الوزير ابا عبد الله العارض بأبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي وزير صمصام الدولة، ويرى أحمد أمين أنه لم يل أحد الوزارة لصمصام الدولة بهذا الاسم،

ومن ثم فقد خطأ القفطي فيما ذهب إليه، وفي رأيي أن أحمد أمين من أن هذا الوزير «العارض» هو ابن سعدان وزير صمصام الدولة «الذي قتله هذا الملك عام ٣٧٥هـ» خطأ فادح، مهما حاول أن يؤيد رأيه بدليل وألف دليل... ومن الأدلة التي حاول أحمد أمين أن يرتكز عليها:

١- الاختلاف في اسم الوزير العارض، فقد ذكره القفطي باسم أبي الفضل ابن العارض الشيرازي، وذكره صاحب كتاب «الامتاع...» باسم أبي عبد الله العارض، والذي كان يعيش في هذا العصر اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي، لا أبو الفضل محمد عبد الله الشيرازي - والرد على ذلك أن احتمال تحريف الناسخ للاسم احتمال وارد، فقد تكون كلمات: الفضل ومحمد وابن سقطت من الناسخ عن غير عمد.

٢- أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي الملقب بالعارض كان كاتباً لا وزيراً - والرد على ذلك أن الكتاب في العصر العباسي الثاني كان يطلق عليهم في الغالب لقب وزراء.

لقد تمحل المحققان في تفسير الوزير العارض بابن سعدان واستدلا على ذلك بمختلف الادلة المتكلفة، من مثل أن أبا حيان اتصل بالوزير ابن سعدان والف كتاب الصداقة والصديق، ومنها أنه لم يل أحد الوزارة بهذا الاسم «العارض»، بين سنتي (٣٧٠هـ و٣٧٥هـ)، مجلس ابن سعدان، والرد على ذلك جواز اتحاد سمار المجلسين.

ونتهي من ذلك الى ما يلي:

١- الوزير العارض ليس هو الوزير ابن سعدان.

٢- خطأ المحققين لكتاب الامتاع في جعلهما ابن سعدان هو العارض.

أما أبو الوفاء المهندس الذي ألف أبو حيان له كتاب «الامتاع والمؤانسة» فهو محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني أحد العلماء في الهندسة، كما يقول ابن النديم في «الفهرست»، «وابن خلكان» في كتابه «وفيات الأعيان»، وكان مولده في مدينة بوزجان عام (٣٢٨هـ)، وقدم العراق عام (٣٤٨هـ)، وتوفي عام (٣٧٦هـ) كما ذكر ابن خلكان الذي يصرح بأنه نقل

تاريخ وفاة أبي الوفاء من شيخه ابن الأثير والطريف ان ابن الاثير لم يذكر وفاة أبي الوفاء عام (٣٧٦هـ)، بل عام (٣٨٧هـ)، فهل أخطأ ابن خلكان في النقل او أن الخطأ هو خطأ النساخ؟

-٤-

ويدور الكتاب على ليال، حسبما ذكرنا من قبل، حيث دون أبو حيان فيه ما كان يجري في كل ليلة بينه وبين الوزير العارض، أو بين سمار المجلس والوزير، وفي أغلب الامر كان الذي يبدأ الندوة ويقترح موضوع الحديث فيها هو الوزير، ويرد أبو حيان والحاضرون من سمار المجلس على أسئلة الوزير: حتى إذا آذن المجلس بالانتهاء سأل الوزير أبا حيان أن يأتيه بطرفة من الطرف، يسميها «ملحة الوداع» كان يقول الوزير مثلاً: أن الليل قد دنا من فجره، هات ملحة الوداع، فيذكر أبو حيان نادرة لطيفة، أو أبياتاً رقيقة، أو شعر بدوياً. وقد يطلب الوزير أن يتم أبو حيان له الموضوع المعروض للبحث في رسالة، أو أن يكتب له رسالة في موضوع ليتلوها عليه في الجلسة الاتية. وقد يدفع الوزير إلى أبي حيان بورقة فيها عدد من المسائل ليفكر فيها، أو ليتصل بمن يشاء من العلماء ويأخذ رأيهم في حلول لها.

وموضوعات الحوار في هذه الليالي متعددة منوعة، وفق ما يقترحه الوزير على الحاضرين في مجلسه، وفي أغلب الامر تدور حول الفكر والادب واللغة ومختلف ألوان الثقافة، وأحياناً تتصل المسائل بالسياسة والاجتماع. فهذه الليالي تصور الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية في عصر أبي حيان، وهو أوائل عصر البويهيين، أروع وأدق تصوير، وفيها تحليل ويبدو أن الكتاب ألف بعد عام (٣٧٠هـ)، وهي السنة التي ورد ذكرها في مقدمة الكتاب:

«قلت لي: إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الري الى بغداد سنة سبعين الخ» - وتكرر الإشارة إلى هذه السنة أيضاً في الجزء الثالث حيث يقول أبو حيان: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة.

وفي آخر نسخة ميلانو المخطوطة من الكتاب ما نصه: أنشئت هذه الرسالة في رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ووصف القفطي الكتاب فقال: هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له

مشاركة في فنون العلم فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب «الامتاع» بخط بعض أهل جزيرة صقلية، وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً، وتوسطه محدثاً، وختمه سائلاً ملحفاً».

وقد كشف أبو حيان في كتابه سر جماعة إخوان الصفا فذكر أسماءهم وأهدافهم فيما ذكره في الكتاب من روائع، وضمن ذلك الليلة السابعة عشرة من ليالي كتابه الخالد، ونقل ذلك عنه القفطي، وعن القفطي نقل كل الباحثين ممن كتبوا عن جماعة إخوان الصفا.

-٥-

مقدمة الكتاب شرح فيها أبو حيان أسباب تأليفه ولمن ألفه، ويلي ذلك الليلة الاولى، وفيها يشرح أبو حيان كيف طلب من الوزير أن يعفيه من مسائل «الرسميات» في المخاطبة والمحاورة، ثم يمتد الحديث الجيد الذي يجري على أحكام العقل ويشتمل على دعابة، ويحتوي على طرافة، ويحدد أبو حيان معنى حديث وقديم، وحادث ومحدث، ثم يختم الليلة بملحة الوداع، وهي كما يقول أبو حيان: قلت: حدثنا ابن سيف الكاتب الراوية، قال: رأيت جحظة[١] قد دعا بناءً ليبنى له حائطاً، فحضر، فلما أمسى اقتضى البناء الأجرة فتماكسا[٢]. وذلك أن الرجل طلب عشرين درهماً، فقال جحظة: انما عملت يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهما، قال: أنت لا تدري أني قد بنيت لك حائطاً يبقى مائة سنة: ... فبينما هما كذلك سقط الحائط فقال جحظة: هذا عملك الحسن؟ قال: فأردت أن يبقى ألف سنة؟ قال: لا ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك، فضحك، أضحك الله سنه».

وفي هذه الليلة يذكر أبو حيان كتاب «هزار أفسان»، ومعنى هذا الاسم ألف خرافة، وهذا الكتاب أصل من أصول «ألف ليلة وليلة».

وتتضمن الليلة الثانية أحاديث عن كثير من الشخصيات المشهورة في العلم والفلسفة والأدب والشعر، من مثل: أبي سليمان المنطقي «-٣٩٥هـ» وابن زرعة «-٣٩٨هـ».

(١) جحظة البرمكي «٢٢٤-٣٢٦هـ» أحد الأدباء الشعراء الظرفاء في عصره.
(٢) اي تشاحا في الأجر.

ومسكويه صاحب كتاب تهذيب الاخلاق وتجارب الامم «-٤٢١هـ» وابن السمح «-٤١٨هـ» ويحيى بن عدي أبي زكريا «-٣٦٤هـ» وعيسى بن علي «-٣٩١هـ» من الفلاسفة والمترجمين، ويتحدث أبو حيان عن آرائهم في النفس، من أنهاجوهر، غير فإن الخ.

وتجيء الليلة الثانية، ويمتد الحديث فيها حول بعض الماجنين والظرفاء والخبثاء.

وفي الليلة الرابعة ويبدؤها الوزير بسؤال أبي حيان عن رأيه في أبي الوفاء فيقول أبو حيان: أخذ بيدي ونظر في معاشي ونشطني وبشرني، ورعى عهدي ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى وقلدني بها القلادة الحسنى، وشملني بهذه الخدمة، وأذاقني حلاوة هذه المزية، واوجهني عند نظرائي ثم يتصل الحديث عن الوزير الصاحب بن عباد ورأى التوحيدي لهما، وينبه أبو حيان إلى ضرورة الثقافة العامة للأديب، والتي بسببها عرف ابن خلدون فيما بعد الأدب بأنه «الأخذ من كل فن بطرف».

وفي الليلة الخامسة يتصل السمر حول الصابي وابن عباد وابن العميد، وعن جماعات من الكتاب.

وفي الليلة السادسة يتحدث أبو حيان عن الشعوب وخصائصها، وفضل العرب واللغة العربية. ويرفع شأن العرب على الأمم.

ويتحدث في الليلة السابقة عن البلاغة والحساب وفضل كل منهما، وأيهما أجدى نفعاً.

وفي الليلة الثامنة يتحدث عن ابن يعيش المتفلسف ومذهبه في تذليل الفلسفة للناس، كما يتحدث عن المناظرة المشهورة التي جرت في مجلس الوزير ابن الفرات ابن أبي سعيد السيرافي رأبي بشر متّى بن يونس «-٣٢٨هـ» وذلك عام (٣٢٦هـ)، وحضرها جماعة من الكتاب والمفكرين، ودارت حول الموازنة بين النحو والمنطق ... وايهما أجدى على الكلام والمتكلم، وكان متى يرى أنه لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بالمنطق، وكان أبو سعيد السيرافي «-٣٦٨هـ» يرى أن النحو العربي هو منطق الكلام وأنه يغنى عن المنطق اليوناني، وتدور المناقشة، ويحتدم الجدل وتستمر المناظرة أخيراً بظفر أبي سعيد السيرافي على

خصمه متّى بن يونس ظفر طارت شهرته في كل مكان.

لم يوازن أبو حيان بين أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفسوي النحوي موازنة جادة، ويرى أن أبا سعيد أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق، وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق . . . وأروى في الحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأما أبو علي فأشد تفرداً بكتاب سيبويه، واكباباً عليه - ويتحدث أبو حيان عن علماء مشهورين كذلك، من أمثال: علي بن عيسى «-٣٨٤هـ»، وابن المراغي والمرزباني وسواهم. كما يتحدث أبو حيان كذلك عن بعض الشعراء: كالسلامي «-٣٩٤هـ» والخاتمي «-٣٨٨هـ» وغيرهما.

وتجيء الليلة التاسعة، ويتصل فيها الحوار حول أوصاف صنوف الحيوان وما تتميز به، والفروق بين الإنسان والحيوان، وخصال الأنفس الثلاث: النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية.

وفي الليلتين العاشرة والحادية عشرة اتصل الموضوع والبحث عن خصائص الحيوان فقرىء بحث حوله.

وتجيء الليلة الثانية عشرة وهي ساقطة من الكتاب أما الليلة الثالثة عشرة فتدور حول النفس.

وفي الليلة الرابعة عشرة حديث عن السكينة، وعن الأمم وما تشترك أو تفترق فيه من صفات، ومن جحد بلاغة العرب في الخطابة وتميزها باللسان فقد كابر، ومن أنكر تقدم يونان في اثارة المعاني من أماكنها واقامة الصناعات بأسرها، وبحثها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بهت، ومن دفع مزية الفرس في سياستها وتدبيراتها فقد عاند.

وفي الليلة الخامسة عشرة يتصل الحديث حول الممكن والواجب، والعقل والحق.

وحول القدر والجبر تدور الليلة السادسة عشرة، وذلك بمناسبة كتاب العامري «انقاذ البشر من الجبر والقدر».

وبذلك ينتهي الجزء الأول من كتاب «الامتاع والمؤانسة» ليبدأ الجزء الثاني من الكتاب،

ومطلعه الليلة السابعة عشرة . . . والتي تتضمن حديثاً لغوياً عن الكلمات التي وردت بوزن تفعال بكسر التاء وتفعال بفتحها، ويتصل الحديث حول جماعة إخوان الصفا، وهنا يبين أبو حيان أفراد هذه الجماعة ويكشف عنهم لأول مرة، ولهذه الجماعة رسائل مشهورة تسمى «رسائل جماعة إخوان الصفا».

وفي الليلة الثامنة عشرة يتصل الحديث في المجون والهزل.

والتاسعة عشرة فيها أقوال في الحكمة قرئت على الوزير أبي عبد الله العارض.

وفي الليلة العشرين يدور السمر حول البلاغة النبوية.

وفي الحادية والعشرين حول الغناء والموسيقى.

وفي الثانية والعشرين حول الجزئي والكلي، والواحد والكثير.

وفي الثالثة والعشرين حول أحاديث نبوية.

وفي الرابعة والعشرين حول الحيوان والنبات، والروح والنفس.

وفي الخامسة والعشرين تدور المناظرة والحوار حول النظم والنثر.

وفي السادسة والعشرين حول المثل وبعض الأمثال.

وفي السابعة والعشرين حول قصص ونوادر دلت على أثر المصادفة في حياة الناس، ثم الفأل والطيرة وأثرهما.

وفي الثامنة والعشرين يتصل الحديث حول بعض أهل الطرب.

وفي التاسعة والعشرين والثلاثين نرى موضوع السمر، بحوثاً لغوية.

وفي الحادية والثلاثين نرى كلاماً في الحرب. ثم في العقل والجنون.

وينتهي إثر ذلك الجزء الثاني من كتاب «الامتاع والمؤانسة» ليبدأ الجزء الثالث وفي صدره بقية الليلة الحادية والثلاثين، ويترامى الحديث فيها أيضا حول المطعمين والطاعمين والطعام، ويتصل الحديث حول ذلك في الليلة الثانية والثلاثين، وفيها أعدت خلقة لأبي

حيان لبسها وقد علا شهيقه . . . وتوالى نشيجه، وتحدرت دموعه.

وفي الليلة الثالثة والثلاثين قرئت ورقات بين يدي الوزير كتبها أبو حيان في الممالحة وأشياء من الطرائف والملح.

والليلة الرابعة والثلاثين يبدؤها ابو حيان بقوله: وقال الوزير في بعض الليالي: قد - والله- ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا.

والليلة الخامسة والثلاثون تدور حول الحديث في الجبر والاختيار، وفي الحب والشهوة والنفس والروح.

والليلة السادسة والثلاثون حول أمور في اللغة، وتحديد للنفس.

والسابعة والثلاثون حول حديث الشجاعة والشجعان وأشياء في الخلق.

وفي الثامنة والثلاثين مسائل مختلفة، ونوادر متعددة.

وفي التاسعة والثلاثين أجوبة حاضرة وألفاظ نادرة.

وفي الليلة الأربعين آراء في أبي تمام والبحتري وغيرذلك من النوادر.

وفي آخر هذه الليلة يقول أبو حيان لصديقه أبي الوفاء المهندس:

«وأما ما قلت لي أيها الشيخ: «إنه ينبغي أن تكتب رسائلك إلى الوزير، حتى أقف على مقاصدك فيها»، فأنا أفعل ذلك في هذه الورقات. وهذه الرسائل هي رسالتان كتب بهما أبو حيان إلى الوزير.

أما الرسالة الأولى منهما فهو فيها يذكر الوزير الذي شغلته أمور الدولة عن نجدة أبي حيان وبره - بما آل إليه حاله، وما استبطأه من معروف الوزير وكرمه.

وأما الرسالة الثانية منهما فهي نصيحة للوزير بأن يفتح بابه للناس وللناصحين منهم، وأن يصطنع الرجال من دولته، وغير ذلك من أمور تتصل بالسياسة وفن الحكم.

وفي آخر الكتاب يوجه رسالة الى صديقه أبي الوفاء ليمد له يد العون والانقاذ ولينتشله من فقره ومحنته وبؤسه وجوعه وظمئه . . . ويقول لأبي الوفاء في آخر الرسالة:

وآخر ما أقول: افعل ما ترى، واصنع ما تستحسن، وابلغ ما تهوى، فليس والله منك الصبر عنك، لأن الصبر عنك مقرون باليأس، والصبر عليك ربما يؤدي إلى رفع هذا الوسواس، والسلام لأهل السلام.

وبهذا ينتهي الكتاب، وينتهي ما كان أبو حيان قد أراد أن يقول للناس ولصديقه أبي الوفاء، وما كان قد أراد أن يخلده من بعده ومن بعد زمنه من آراء في الدين واللغة والأدب والسياسة والفلسفة وشتى فروع الثقافة وغير ذلك، مما جمع في الكتاب فأوعى، واستزاد فبلغ الغاية.

-٦-

وبعد فالكتاب نموذج رفيع لفن الأدب والحوار والمحاضرة، وهو مثل بليغ لكتابات أبي حيان وأدبه.

ومع ذلك فقد وقع أبو حيان فيه في أخطاء غير كبيرة ولا كثيرة. . .

فمن ذلك قوله في الليلة الثامنة في مناظرة أبي سعيد السيرافي لمتّى بن يونس: لما انعقد المجلس سنة ست وعشرين وثلاثمائة قال الوزير ابن الفرات للجماعة. . .

ثم يقول في نهاية الليلة: قلت لعلي بن عيسى: وكم كانت سنّ أبي سعيد في ذلك الوقت؟ قال مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة.

ولو كانت سنة يومئذ أربعين لكانت المناظرة سنة عشرين وثلاثمائة، واذن فقد كان يجب أن يقول وكان له يوم المناظرة ست وأربعون سنة، ولربما سقطت كلمة «ست» من الناسخ.

ويستعمل أبو حيان كلمة ساهم في معنى أعان، فيقول مثلاً: ساهمتك بالجزع والأولى أن يقول: أسهم.

ولغة الكتاب هي لغة عصر البويهيين، أي القرن الرابع على أية حال. . .

تهذيب الأخلاق

لابن مسكويه

-١-

نحن مع حضارة العقل العربي المبدع في القرن الرابع والخامس وهما قمة عصور الابتكار والتجديد في التراث العربي.

مع عالم كبير هو الإمام ابن مسكويه أحمد بن محمد «٣٣٠-٤٢١هـ! ٩٤٢-١٠٣٠م»، الفارسي الأصل، العربي النشأة والثقافة واللغة من أئمة الاسلام، وأعلامه الخالدين، حيث عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، وكان ميلاده بالري، ووفاته في بغداد دار السلام، وعاصمة الاسلام الكبرى.

وقد درس على المنهج الدراسي القديم المألوف في عصره في المدارس العربية ... فدرس اللغة والنحو والصرف والشعر والاخبار والفلسفة والطب وعلم العدد - الحساب- وشارك في علوم كثيرة، حتى ذاع فضله، وانتشر صيته في كل مكان، وقربه إليه عضد الدولة البويهي، فعينه خازناً لدار الحكمة، فصار أثيراً عنده، مقرباً لديه، ونشر علمه وفضله في آفاق ملكه.

عاش ابن مسكويه في العصر البويهي، الذي ازدهرت فيه الثقافة والمعرفة، فكان أحد الذين جمعوا بين ثقافات الإسلام وثقافات الإغريق، وألموا إلماماً واسعاً بطرف من حكمة اليونان والروم والهند والفرس، الى حكمة العرب وتجاربهم، وكان اتصاله بالوزير المهلبي المتوفى عام (٣٥٢هـ- ٩٦٣م)، ثم بابن العميد الوزير «المتوفى عام ٣٦٠هـ: ٩٧١م» ثم بابنه أبي الفتح «المتوفى عام ٣٦٦هـ: ٩٧٧م»، ثم بعضد الدولة ابن بويه بعد ذلك، من الأسباب التي أنمت تجاربه وحكمته، وساعدته على الاتصال بكل جوانب الثقافة العربية والمترجمة، خاصة أنه عاش في عصر انقسام الخلافة العباسية، إلى دويلات، وظهور القوميات المستقلة، وأنه كذلك قد عمر طويلاً، حتى اتسعت خبرته بالحياة، وزادت معارفه

في شتى جوانب الثقافة . . . وبخاصة الفلسفة. وكانت الفلسفة العربية الاسلامية قد نمت وتعددت مذاهبها، وازدهرت حلقاتها العلمية وتوالى جيل الفلاسفة المسلمين، جيلاً إثر جيل، وإذا كان من أئمتها أبو إسحاق الكندي «-٢٥٢هـ: ٨٦٦م» في القرن الثالث، فقد نبغ فيها في القرن الرابع: المعلم الثاني الفارابي «-٣٣٩هـ»، وابن سينا «-٤٢٨هـ: ١٠٣٧م»، وابن مسكويه وجماعة اخوان الصفا، وسواهم من أعلام الفكر العربي، وقرأ ابن مسكويه للسالفين والأقدمين، واطلع على أصول الفلسفة الاغريقية، إلى ثقافته الاسلامية الرفيعة، حتى صار يشار إليه بالبنان بين الفلاسفة والحكماء. . .

ومن مؤلفاته الفلسفية كتابه - المشهور: تهذيب الأخلاق، وكتبه: ترتيب السعادات والفوز الأكبر، والفوز الأصغر. وألف في الطب، وله في التاريخ كتاب قيم هو «تجارب الأمم».

-٢-

وكتاب «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه يعد أصلاً فريداً من أصول الأخلاق الاسلامية، وقد كتبه للعلماء ومحبي الفلسفة ليعالج به مشكلات الحياة والسلوك، وليصل - كما كان يحلم- بالمطلع عليه الى السعادة المنشودة، وقد تأثر في منهجه فيه بالمعلم الأول ارسطو في كتابه «الأخلاق».

وكان لابن مسكويه من التجارب الكثيرة في الحياة ما يدفعه الى الكتابة في الأخلاق، ليرشد الناس للفضيلة والسعادة والطرق التي تؤدي إليهما. ويتضح هذا من عهده الذي كتبه لنفسه وهو سطور في كتاب «المقايسات» للتوحيدي «-٣١٣هـ!٩٢٥م».

. . . وقبل أن نتعرف إلى فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه يصح لنا أن نتساءل: ما هي الفلسفة؟ وما هي الأخلاق؟ وما الصلة بينهما؟

والفلسفة هذه الكلمة المعربة اليونانية مأخوذة من كلمتي فيلوس بمعنى محبة، وسوفيا بمعنى الحكمة، فمعنى الكلمة اذن محبة الحكمة، ومعنى الفيلسوف هو محب الحكمة، وكان فيثاغورث «٥٨٢-٤٩٧ ق.م» أول من سمي حب الحكمة باسم الفلسفة، يقول

بارتلمي سانتهليز في مقدمة كتاب «الكوَن والفساد» لارسطو ترجمة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد: إن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية سيفونيا من عمله، أجاب بأنه فيلسوف، وهو اسم لم يسمع من قبل في اللغة اليونانية ومعنى الفلسفة عامة قديماً تأمل أسرار الكون الألهية الأبدية الخالدة ونواميسه الثابتة التي لا تتغير، وكان الفلاسفة الإغريق أطاليس: وانكسمندر، وانكسمينيس يسمون أنفسهم حكماء، فأنكر ذلك عليهم فيثاغورث، ودفعه تواضع العلماء إلى إطلاق اسم فلاسفة عليهم وعلى نظرائهم. وعلى الأرجح كان سبب ذلك هو إيمانه بأنه لا يصح أن تنسب الحكمة إلى غير الخالق الابدي، فالحكيم وحده عنده هو الله، ومن ثم استبدل كلمة حكمي بكلمة فيلسوف، أي محب للحكمة، وقد تطور معنى الكلمة تطوراً كبيرا على مختلف العصور.

أما الأخلاق فهي كلمة جامعة تشمل الفضائل والمثل، التي يعتنقها ويؤمن بها صفوة الناس وأخيارهم، والتي دعا إليها الأنبياء والرسل من القديم، وحضت عليها الكتب السماوية المقدسة، واصطفاها المفكرون وسيلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وفلسفة الأخلاق هي الأصول الأخلاقية التي يشرعها الفكر للسلوك الإنساني، مما يرجع الأمر فيه إلى فكر المفكرين والفلاسفة والحكماء. وذلك مما دعا إليه ابن مسكويه هذا الإمام الكبير، والمربي الروحي العظيم، والأستاذ الرفيع المنزلة عند علماء عصره، من مثل آرائه في الفضيلة، وفي نواميس الاجتماع وفي أسس السعادة.

وعاد المعري إلى بلدة مكدودا مجهداً ولزم بيته، وأطلق على نفسه لقب «رهين المحبسين»، ولزم الصوم، وامتنع عن أكل اللحوم، ونظم لزمياته، وعاش زاهداً، ولم يفكر في الزواج . . . وكان يردد بيته المأثور:

هـذا جنـاه أبـي علـي   ومـا جنيـت علـى أحـد

وظل عاكفاً على الشعر والأدب ومجالس تلاميذه، حتى توفاه الله إلى رحمته عام (٤٤٩هـ- ١٠٥٧م)، بعد مرض ألم به ثلاثة أيام، ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يؤبنونه ويرثونه بشعرهم. رحمه الله.

-٣-

يحمل «الفصول والغابات» روح المعرى وفلسفته وآراءه في الحياة والمعرفة وزهده. . .

وهو مملوء بالحكم الانسانية الرفيعة، وعليه طابع أبي العلاء في التشاؤم وإيثار العزلة وفي الزهد، وفي كل مجالات تفكيره. . .

يقول المعري في مطلع الكتاب، أي في أول الجزء الذي عثر عليه منه، وهو ليس أول الكتاب حقا، إذ مطلعه مفقود، مع ما فقد من فصول الكتاب وأجزائه:

أحلف بسيف هبار - أي: قاطع - وفرس خبار - أي: قوي سريع العدو - يدأب في طاعة الجبار- أي: بالجهاد في سبيله.

وذلك في عصر الحروب الموجهة ضد الاسلام - وبركة غيث مدرار - غزير- ترك البسيطة - الأرض - حسنة الخبار - أي المنظر - لقد خاب مضيع الليل والنهار، في استماع القينة- المغنية - وشرب العقار - الخمر - أصلح قلبك بالأذكار، صلاح النخلة بالابار - من يصلح النخل ويلقحه - لو كشف ما تحت الأحجار - القبور- فنظرت إلى الصديق المختار، أكبرت ما نزل به كل الأكبار، نحن من الزمن في خبار - يريد في امتحان، والخبار الارض الصعبة- كم في نفسك من اعتبار، ألا تسمع قديمة الاخبار، اين ولد يعرب ونزار، ما بقي لهم من أصار - أي آثار - لا وخالق النهار، ما يرد الموت بالأباء.

وينتهي هذا الفصل، أو الفقرة، الذي يكتبه المعري تمجيداً له، وتحمل الفقرة في آخرها كلمة الأباء وهي غاية، وآخرها همزة كالروى في القافية للبيت الشعري.

ويلاحظ أن فكرة الموت هي المسيطرة على هذا الفصل، إذ كان موت أمه لا يزال أمامه وفي فكره، وتأثرت به كل حياته أشد التأثير.

ويلي هذا الفصل فصل آخر تسبقه لفظة «رجع»، أي رجع بعد التفسير إلى الحديث الموصول الذي يريد تسجيله، فماذا يقول أبو العلاء، في الفصل الجديد؟. . .

يقول: ما آمل؟ وقد فقدت أبوي، وأخذت الشبيبة من يدي، ومشيت إلى الأجل على قدمي، حتى كدت اطؤه بأخمصي، ووقع كَلّ - أي عبء وثقل- الايام عليّ.

ونظرت عين المنية إلى، أن اشتعال الوضح – أي الشيب– بمفرقي، وأنا لا أفارق الغي، وأصبح أخا السلامة الحي، وأعلم أن الملحد – القبر – آخر منزلي، وأن جسدي مزابل– أي مفارق – للحوباء– أي النفس والروح.. ولفظة الحوباء غاية ... ثم يأخذ المعري في التفسير والشرح وليس هناك أروع من هذه الصور البيانية التي تحمل روح المعري وفكره وأعماق نفسه إليك، وتحمل كل مشاعره، وأدق أحاسيس وجدانه إلى نفس القارىء والسامع...

وبعد ذلك يرجع المعري إلى فصوله، وإلى حكمه وأمثاله، مسبوقة بكلمة «رجع»..

ويقول شيخ المعري من فصوله:

العمل وإن قل يستكثر إذا اتصل ودام. لو نطقت كل يوم لفظة سوء لاسودت صحيفتك في رأس العام «ولو كسبت كل يوم حسنة عددت بعد زمن من الأبرار.

ومن حكمه في استقطاع أكل لحم الحمام خاصة والحيوان عامة:

أيها المسكين الغاد، ما أنت وحمامة طوقها من الحمم، وبردها من الرماد، كان كاتبا خط في عنقها بمداد تقدس خالقها في الوضح والسواد، ولها في الصبح نبرات كنبرات الرهبان، أما هتافها: سبحانك اللهم سبحان.

ويقول المعري في فصوله وغاياته:

أما الله فأزلي، لا أعلم ما يقول المعتزلي، والناس مطالبون على حسب العقول وهو هنا يبدو مخاصماً للمعتزلة ولأرائهم العقلية الجافة.

–٤–

لقد بث أبو العلاء في كتابه «الفصول والغايات» لطلابه ومريديه كل ما دعاه صدره من معارف وأفكار، وتخير لذلك أجمل مظهر يظهر فيه الكتاب، وهو تمجيد الله وتنزيهه وتسبيحه، والمواعظ الرقيقة العميقة الهادفة، ليكون ذلك أقرب إلى النفوس، وأقرب إلى رضاء الله عز وجل وإلى ثوابه ورحمته، وإلى الجزاء الكريم والنعيم المقيم.

وفي «الفصول والغايات» روحانية عالية، وخشوع وعبادة لله ما بعدهما من حديث يفترى على شيخ المعرة أبي العلاء.

إن هذا الجزء الذي بين أيدينا من «الفصول والغايات لأبي العلاء، والذي تبتدىء غاياته من أثناء حرف الهمزة، وتنتهي بحرف الخاء، والذي فقد باقيه، لهو ثمرة تجربة طويلة وخبرة كبيرة، وثقافة واسعة، ومعاناة قاسية للحياة ولأحداثها التي عصفت بأحمد بن عبد الله ابن سليمان.

وقد اختار له اسم «الفصول والغايات»، جمعاً لفصل بمعنى فقرة في فكرة واحدة ومضمون واحد، وجمعاً لغاية، أي نهاية أو خاتمة، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر...

ولا ريب أن الكتاب يضيف إلينا كل جديد من فكر أبي العلاء، ويرسم لنا صورة واضحة لشخصيته ولمشاعره في هذه الفترة الحافلة بالمعاناة من حياة أبي العلاء.

وهو يمدنا بالكثير من المعارف عن أبي العلاء، وفلسفته.

إلى ما فيه من ثروة أدبية ولغوية لا تقدر بقيمة.

أننا لمدينون لهذه الفرصة الطيبة التي التقى فيها محب الدين الخطيب بوراق في مكة المكرمة، ليعثر على هذا الجزء من كتاب كان مفقوداً لشيخ المعرة، وليصبح الكتاب بعد فترة في أيدي قراء العربية، يقرأون فيه حكمة المعري وفلسفته وما يحمله الكتاب من نظرات المعري في الحياة والناس، ومن أقباله على الزهد والوئام الروحي والنفسي مع كل مبدعات الخالق الأعظم في الكون والوجود والطبيعة للعلم والمعرفة. والفضيلة عنده هي المعرفة كما ذهب إليه سقراط، والرذيلة هي الجهل. وقد ترك مذهب أفلاطون وأرسطو في ذلك.

ويوضح ابن مسكويه رأيه في ذلك فيقول: «إن من الناس من لا يدري كيف يحسن إلى نفسه، التي هي محبوسة فيقع في ضروب من الخطأ، لجهله بالخير الحقيقي. أما من عرف لنفسه كرامتها، واختار لها الخير الحقيقي الذي يناسب جزءها الالهي، وهو العقل، فقد أحسن إليها، وأنزلها في الشرف الأعلى. وإذا كان بهذه الحال فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات».

-٤-

والسعادة عند ابن مسكويه هي الخير التام في نفسه، وهو متأثر في نظرته هذه إليها بآراء فلاسفة الإغريق. على أن السعادة عنده ليست في المتع الحسية، التي لا يطلبها إلا الرعاع والعامة وطلاب التجارة والكسب حتى في العبادات.

بل إن السعادة عنده هي في أمر واحد هو الحكمة التي يستحق من يحوزها أن يسمى حكيماً وفيلسوفاً، وأن ينال بذلك السعادة الكاملة المنشودة.

-٥-

ومع ذلك كله فقد كان ابن مسكويه اجتماعياً، عرف لجسمه حقه، ولنفسه حقها، ولمجتمعه حقه.

فدعا الإنسان إلى أن ينيل جسمه ما به حياته، وما يتفق مع المروءة وأن يكمل نفسه العاقلة بالفضائل الخلقية، وبالفضيلة الفلسفية.

والإنسان عنده مدني بالطبع، وقد نظر أبو علي الى الذين يعيشون عالة على الناس نظرة سخرية واستخفاف.

-٦-

وهكذا كان ابن مسكويه عملياً في فلسفته الأخلاقية، في كتابه المأثور «تهذيب الأخلاق» يبحث في الفضيلة ويبينها، وفي السعادة ويحددها. ثم هذا وذاك يرسم المنهج الذي يؤدي الى الظفر بهما.

ولم يكن هذا الإمام الكبير متعصباً لرأي، ولا منحازاً مع عصبية، أخذ أصول مذهبه الخلقي من الإسلام الكريم ومع ذلك استفاد الكثير من الثقافتين الفارسية والاغريقية.

لقد مضى على وفاة ابن مسكويه تسعة قرون ونصف ميلادية، مع ذلك فلا تزال آراؤه في للفضيلة والخير والسعادة وحرية الإرادة وفي المسؤولية الإرادية وغيرها، جديدة.

وياليت تراث هذا الإمام الكبير يجد من يعنى به تحقيقاً ودراسة وبحثاً، ويجد من ينشره

في طبعات جميلة تقربه إلى اذهان شباب هذا الجيل.

وكتابه «تجارب الأمم» من أمتع الكتب التاريخية، التي تجعل من فيلسوفنا مؤرخاً كبيراً في عصر جيل الأئمة الكبار من أعلام القرنين الرابع والخامس.

رحم الله ابن مسكويه، فقد أسدى إلى الفكر العربي الكثير من الأيادي البيض وترك لشباب العرب تراثاً خالداً، يهتدون به في كل مشكلات حياتنا الفكرية والاجتماعية والسلوكية، وفي كل جوانب تربية النفس الإنسانية، وحضها على السلوك الإنساني الرفيع، المقترن بالحب والطهارة والطموح والإرتقاء في مدارج الفضائل الى أعلى عليين.

رسالة الغفران

لأبي العلاء

أبو العلاء المعري «٣٦٣-٤٤٩هـ: ٩٧٥-١٠٥٩م» من أشهر الشعراء العرب، ومن أبعدهم صيتاً، وذيوع ذكر: و«رسالة الغفران» له مشهورة، وهي رحلة تخيلها أبو العلاء في الصراط والجنة والنار، كي يبدي آراءه في مسائل الدين والأدب والنقد واللغة من خلالها.

وتذكرنا «رسالة الغفران» برسالة ابن شهيد «التوابع والزوابع»، وبالكوميديا الإلهية، وبالفردوس المفقود لملتون.

و«التوابع والزوابع» تشابه «رسالة الغفران» للمعري مشابهة كبيرة، فالموضوع واحد وهو عرض المشكلات الأدبية والبيانية والفكرية بطريقة قصصية، والخلاف في جوهر الموضوع إنما يرجع إلى روح الاديبين الكبيرين: ابن شهيد والمعري، فابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية. وأبو العلاء يحرص على عرض المشكلات التي تتعلق بالدين والفكر والفلسفة ... وقد وجه ابن شهيد رسالته الى ابن القارح علي بن منصور الحلبي الأديب الشاعر «٣٥١-٤٣٠هـ» الذي كان يمدح الوزير أبا الحسن المغربي وآله، ثم لما ذهب سلطانهم هجاهم، و«التوابع والزوابع» رسالة طريفة وفيها فكاهات حلوة، وأسلوبها يميل فيه ابن شهيد الى السجع، وكان مولعاً بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه. وحريصاً على إظهار تفوقه عليهم. ويرجع د. زكريا مبارك في كتابه «النثر الفني» أن ابن شهيد قد ألفها ما بين عامي (٤٠٣هـ و٤٠٧هـ)، لقوله فيها «انتضى على لسانه عند المستعين»، والمستعين حكم ما بين عامي (٤٠٣و ٤٠٧هـ) حين مات مقتولاً في العام الأخير...

وهذا النص لا يدل على ذلك، فمن الجائز أن يكون ابن شهيد قد قال ذلك بعد مقتل المستعين عام (٤٠٧هـ) لا في حياته ... أما رسالة الغفران فيرجح انها ألفت عام (٤٢٤هـ) لقول المعري فيها: لا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة (٤٢٤هـ) اسمه «فلان بن فلان».

ويرجح د. زكي مبارك أن رسالة ابن شهيد «توفي عام ٤٣٦هـ: ١٠٣٥م» كتبت قبل رسالة المعري بعشرين سنة.

من حيث يرجح أغلب النقاد أن رسالة الغفران هي الأصل الذي احتداه ابن شهيد، ويعرض ابن شهيد في رسالته صوراً من شعر الشعراء وينقدها، ويتحدث عن التقائه بشياطين الشعراء. وعما جرى بينهم من مناظرات وحوار أدبي.

على أن الرسالتين ترتكزان في اساسهما على رحلة الإسراء والمعراج الروحية. والغفران أشمل وأعمق وأكثر غنى في جوانبها الفنية والقصصية من «التوابع والزوابع».

-٢-

وكان ابن القارح قد بعث برسالة إلى أبي العلاء، فرد عليها أبو العلاء برسالة الغفران.

ويعلل كامل كيلاني لتسعتها بالغفران أن الفكرة الرئيسة فيها، والتي دفعته إلى انشائها، مناقشة من فازوا بالمغفرة، ومن حرموها في الدار الآخرة. وكان المعري يكثر فيها من سؤال الذين يلقاهم في الجنة بقوله: «بم غفر لك؟» كما كان يكثر من سؤال من يجده في النار: «لم لم يغفر الله قولك».

ويبدأ المعري الرسالة بقوله، يخاطب ابن القارح:

وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لا شك مأجور، وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة وفي قدرة ربنا - جلت عظمته- أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور... ولعل سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء بدليل الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

ثم يقول: وفي تلك السطور كلم كثير كله عند البارىء - تقدس - اثير. وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجر في الجنة لذيذ الاجتناء.

ويصور أبو العلاء ابن القارح وقد ركب نجيباً - أي جملاً كريماً - من نجب الجنة خلق

من ياقوت ورد، ويسير به في الجنة على غير منهج. ومعه شيء من طعام الخلود ويلتقي بالأعشى ويحاوره، كما يلتقي بزهير، وبعبيد بن الابرص، وعدي بن يزيد وبأبي ذؤيب الهذلي، وبالنابغتين وبلبيد.

ويلتقي برضوان خازن الجنة، يرفع صوته ويقول له: يا رضوان، يا أمين الملك الجبار الاعظم على الفراء يس، ألم تسمع ندائي بك، واستغاثتي إليك، فقال: لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك فما الذي تطلبه أيها المسكين؟ فيرد عليه: أنا رجل لا صبر لي على العطش وقد استطلت مدة الحساب، ومعي صك - أي وثيقة - بالتوبة، وهي للذنوب كلها ماحية، وقد مدحتك بأشعار كثيرة، ووسمتها باسمك، فقال: وما الأشعار؟ فقلت: الأشعار جمع شعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة - الدنيا- يتقربون به الى الملوك والسادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدخول، فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف، ولا ريب أني ممن يرجو المغفرة، وتصح له بمشيئة الله تعالى، فقال: إنك لغبين الرأي، أتامل أن أذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات، هيهات.

ويلتقي بحمزة سيد الشهداء، فينشده مدحاً له فيه، ويستشفع به، فيحيله على ابن أخيه علي بن أبي طالب ليخاطب رسول الله ﷺ في أمره.

ويتركه إلى شيخه أبي علي الفارسي... كل ذلك على لسان ابن القارح علي بن منصور ابن طالب الحلبي الذي كتب المعري الرسالة من أجله.

ثم يستشفع فيه آل البيت إلى فاطمة الزهراء ليراح من أهوال الموقف، ويصير الى الجنة فيتعجل الفوز، فتأخذه، ويقف عند رسول الله، فيشفع له، ويؤذن له في الدخول. ويعبر الصراط، فلما صار الى باب الجنة وقف دونه رضوان يطالبه بالجواز، إذ لا سبيل إلى الدخول إلا به، وهنا يلتفت إليه إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، ويجذبه جذبة يدخل بها الجنة، بعد أن أقام في الموقف ستة شهور.

ويحاور حميد بن ثور ولبيداً في الجنة وفي الجنة يحضر المأدب، ويسمع الغناء، ويلتقي

بالشعراء ويسحره جمال الحور، ويصنع رحلة الى جنة العفاريت، فيلتقي بالجن، ويسمع شعرهم ولغتهم، ويرى الحطيئة، والخنساء، وينظر إلى الجحيم من أقصى الجنة، ويطلع فيرى إبليس، ويشاهد بشاراً، ويتحدث إلى امرىء القيس، والى عنزة وعلقمة، وعمرو بن كلثوم، والحارث اليشكري، وطرفة بن العبد، وأوس بن حجر، والاخطل والمهلهل، والشنفري وتأبط شراً. . .

ثم يعود الى محله في الجنة، فيلقى آدم عليه السلام، ويستمر به المطاف ليلتقي بحورية، ثم بالرجاز: رؤبة والحجاج ويفيض في الجزء الأخير من الرسالة في الحديث عن النفاق والزندقة والزنادقة، وعن الحلاج ومذهب الحلول والتناسخ، ويجره الحديث الى ابن الرومي، وإلى أبي تمام، وأبي مسلم الخراساني، والى ابن الراوندي وسواهم. .

-٣-

من هذه الرسالة التي تحمل فكر المعري ونظرته الى الحياة، وآراء كثيرة له في نقد الشعر والشعراء، لهي من أنفس الذخائر في تراثنا العربي الخالد. . . وهذه الرحلة الطريفة الى العالم الأخر تحمل روحاً قصصية عالية، تصلح لأن تكون من أرفع النماذج القصصية الاسطورية، أو الخيالية لو صيغت بأسلوب جديد.

ومن الطريف أن نعرف أن في دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من الرسالة اثنتان منها في مكتبة تيمور، كما توجد نسخة من الرسالة في مكتبة سوهاج وأخرى في مكتبة جامعة الاسكندرية.

وقد طبعتها مكتبة أمين هندية بالقاهرة عام (١٩٠٣)، وكتب خاتمة لها عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان، ثم نشرتها دار المعارف والمكتبة التجارية بالقاهرة بتحقيق المرحوم كامل كيلاني.

وفي عام (١٩٥٠م) نشرت دار المعارف رسالة الغفران بتحقيق الاستاذة عائشة عبد الرحمن، ثم قدمت دراسة عن الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام (١٩٥٣)، وقد استعانت الدكتورة بنت الشاطىء بنسخة خطية من مكتبة كوبريللي زاده

باستانبول موثقة النسب بأبي العلاء برواية تلميذه الخطيب التبريزي.

وكانت الرسالة قد لقيت عناية كبيرة في دوائر المستشرقين، فنشر نيكلسون عام (١٩٠٢) ملخصاً للقسم الثاني منها مترجماً في المجلة الآسيوية الملكية وكان قد حصل على مخطوطة للرسالة كانت في مكتبة المستشرق شكسبير، وقدم نيكلسون عام (١٩٠٠) وصفاً موجزاً للمخطوطة وترجمة موجزة للقسم الأول منها مع فقرات كثيرة من الأصل العربي.

وفي عام (١٩١٦) ظهرت في مدريد باللغة الاسبانية دراسة عن الرسالة للمستشرق الاسباني المشهور بلاسيوس اكد فيها أن أصولاً اسلامية، من بينها «رسالة الغفران» قد كونت أسس الكوميديا الالهية، وقد ترجم بلاسيوس بعض النصوص من الرسالة وقارن بينها وبين نصوص من كوميديا دانتي.

-٤-

ورسالة الغفران تعد في مقدمة تراث أبي العلاء الذي وصلنا، وحفظته الأقدار لنا من الضياع، ويضاف اليها ديوان سقط الزند واللزوميات، وعبث الوليد.

وملقى السبيل الذي نشره حسن حسني عبد الوهاب في مجلة المقتبس - السنة السابعة - عن مخطوطة بالاسكوريال.

كما بقي من تراث المعري مجموعة من رسائله نشرها مرجليوث عام (١٨٩٨) وطبعت في اكسفورد .

وكذلك الفصول والغايات، وقد طبع جزء منه في القاهرة بتحقيق الزناتي.

وكذلك رسالة الملائكة التي نشرت في دمشق عن مخطوطة بالظاهرية بتحقيق محمد سليم الجندي.

وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى.

والذي فقدناه من تراث المعري كثير ومنه كتاب «الأسيك والغصون» الذي زادت أجزاؤه على المائة. . . وغير ذلك.

على أن أدب الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر، وإلى الجنة والنار مدين لرسالة الغفران ولصاحبها أبي العلاء بدين كبير، فالرسالة في جوهرها وروحها عمل فني كبير وابداع أدبي لا مثيل له . . . ومع أن في رحلة الإسراء والمعراج طرائف روحية رائعة، فإن أبا العلاء ولا ريب قد احتذلهما في «الغفران»، وتأثر بها تأثراً كبيراً، كما تأثر برحلة الموبد الزرادشتي الى الأعراف والجنة والنار.

وتصور لنا الرسالة - الغفران - عبقرية فكر أبي العلاء تصويراً رائعاً، فهذا الحوار الرفيع فيها، وهذا الخيال الممتع المتأنق الكثير التنقل، وهذا التصوير الدقيق البارع، وهذا الفكر الشرود الذي يلتفت الى الدقائق في يقظة ووعي تام. . . كل ذلك عناصر أصلية في ابداع حقيقي يتفرد به شيخ المعرة ابو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الذي نال من اهتمام الادباء والشعراء والنقاد والدارسين والباحثين ما لم ينله شاعر من قبل.

وكم كانت الاحداث والايام والخطوب تعصف بأبي العلاء في شتى مراحل حياته، مرحلة بعد مرحلة، وجيلاً بعد جيل، ووقتاً إثر وقت. . . رحمه الله.

الفصول والغايات لأبي العلاء

-١-

أبو العلاء «٣٦٣-٤٤٩هـ: ٩٧٤-١٠٥٧م».. من أشهر الشعراء العرب، ومن أبعدهم صيتاً وهو أحد المفكرين العرب، الذين يعتز بهم تاريخنا الطويل.

وكتابه «الفصول والغايات» من أشهر كتبه الباقية وبخاصة أن بعض القدماء اتهم أبا العلاء بأنه كتبه ليعارض به القرآن الكريم. وليس في الكتاب كلمة أو حرف يشير الى هذه المعارضة، أو يحمل أية صورة من صورها، وأسلوب الكتاب بعيد كل البعد عن قضية كبيرة، مثل قضية معارضة كتاب الله الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والموجود بين أيدينا اليوم من «الفصول والغايات» هو جزء منه، وكان العثور على هذا الجزء معجزة من معجزات القدر.

لقد كان من السابقين الى العثور على هذا الجزء من «الفصول والغايات» محب الدين الخطيب صاحب مجلتي الفتح والزهراء.

اذ عثر عليه في أوراق. متناثرة مخطوطة «دشت» أشتراها من شيخ وراقي مكة المكرمة عام (١٣٣٧هـ - ١٩١٩م)، فاستخرج هذا الجزء من الكتاب منها ورتبه، وكتب عنه في مجلته «الزهراء» - «المجلد الاول عام ١٤٤٣هـ»، وذكر بأن أحمد تيمور باشا أدخله في خزانته في رمضان من السنة نفسها صيانة له وحفظاً. وكتب عنه طاهر الطناجي في مجلة الهلال «المجلد ٤٢- يناير ١٩٣٤»، ويحمل المخطوط رقم «٨٣٨ أ د ب - دار الكتب المصرية - التيمورية»، وبه بتر من أوله وأربعة خروم في وسطه في الصفحات (٣٤ - ٣٦- ٥٠ - ٧٨). وهو مضبوط بالشكل الكامل.

وقد حبب صاحب «الرسالة» المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات إلى صديقه الأثير لديه، محمود حسن زناتي، رحمهما الله، آنذاك أن يولي هذا الكتاب عنايته وجهده.

فأخذ من يومئذ في تحقيقه، وجهد في ضبطه وتفسير غريبه، وتزود في ذلك بما قرأه وسمعه من العالمين الكبيرين: محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي وسير بن علي المرصفي «-١٩٣١م» في الأزهر الشريف. حتى انتهى من تحقيق الكتاب - وطبع في يناير (١٩٣٨).

والكتاب بحق، وكما قال محققه متعة الاديب وأمنية العالم، اذ ملأه المعري بشتى المعارف والعلوم من اللغة والادب والعروض والنحو والصرف والفقه والحديث، وشتى الثقافات الدينية واللغوية والادبية.

وكان المعري يملي الفقرة من كتابه على تلاميذه، ويسميها فصلاً، ثم يختمها بخاتمة يسميها غاية وهي عنده بمنزلة القافية من البيت الشعري، وقد تطول الفقرة وقد تقصر، وبعد ذلك يأخذ في إملاء التفسير والشرح للفقرة، لتوضيح ما يخفى على طلابه، من معنى بعيد، أو لفظ غريب. فإذا انتهى من التفسير، وأراد العودة الى الاملاء، قال «رجع»، يريد نفسه، أو رجع السياق في الكتاب و«الفصول والغايات» كله على هذا النسق المأثور.

وما وصل إلينا من الكتاب هو جزء منه، ونشر باسم الجزء الأول، ويبدأ بحرف الهمزة وينتهي بحرف الخاء، وباقي الكتاب مفقود..

والكثير من القدماء، ممن كتبوا عن المعري، لم يبلغهم لبا هذا الكتاب، فلم يذكروه أو يشيروا إليه. ومن ذكره منهم حملوا على المعري بسببين مدعين أن أبا العلاء المعري قد عارض به القرآن الكريم، مع أن الكتاب كله فصول في تمجيد الله جل جلاله، وتنزيهه، وفي المواعظ والحكم والأخلاق والأداب.

وفي فصول الكتاب ما يدحض هذا الافتراء الذي يبدو أنه كلام حساد شانئين وقيل: إن المعري بدأ في تأليف هذا الكتاب في الشام، وأتمه بعد عودته من بغداد. ويقول المعري في أوائل الكتاب:

«ما آمل؟ وقد فقدت أبوي، وأخذت الشبيبة من يدي».

ويقول أيضا: أعني ربي، حتى تغنيني عن أمي وأبي، فقد ذهبا، وأنا الى رحمتـ ، فقير.

وقد توفي والد أبي العلاء بالشام عام (٣٧٨هـ-٩٨٩م)، والمعري الابن في الخامسة عشرة من عمره. أما والدته فقد توفيت وهو بالعراق عام (٤٠٠هـ - ١٠١٠م)، وكان قد وصله ما ينبئه بمرضها، فأسرع بالسير إليها، فلم يدركها، ووجد المنية قد سبقته إليها عام (٤٠٠هـ)، فالكتاب إذا قد ألف بعد هذا التاريخ، وأبو العلاء في السابعة والثلاثين من عمره.

ومؤلفات المعرى لم يبق منها إلا القليل الأقل، وفي مقدمتها: «رسالة الغفران» التي حققتها الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء»، تحقيقاً علمياً دقيقاً، ويضاف إليها: «اللزوميات، وديوان سقط الزند، وتعليقات على ديوان البحتري، سماها «عبث الوليد»، وله شرح مفقود على الحماسة، ومن تراثه كتاب «ملقى السبيل» الذي نشره حسن حسني عبد الوهاب في مجلة المقتبس «السنة السابعة» عن مخطوطه بالاسكوريال.

كما بقى من تراثه مجموعة من رسائله، نشرها المستشرق الانجليزي مارجليوث عام (١٨٩٨م)، وطبعت في اكسفورد. وكذلك رسالة الملائكة التي نشرت في دمشق عن مخطوطة بالظاهرية، بتحقيق محمد سليم الجندي، وبعض الرسائل الصغيرة الاخرى، والذي فقدناه من تراث المعري كثير، ومنه كتابه «الأيك والغصون» الذي زادت اجزاؤه على المائة، وسوى ذلك.

وبعض مؤلفات المعرى ضاع أثناء الأحداث التي مرت بالعالم العربي الإسلامي خلال الحروب الصليبية المدمرة في مصر والشام، وبالغزو المغولي المخرب كذلك. وقد سقطت المعرة في أيدى الصليبيين عام (٤٩٢هـ - ١٠٩٩م).

ولقد شغل المعري الدنيا والناس، منذ وفاته، وألفت الكتب والدراسات الكثيرة عنه وعن أدبه منذ ذلك التاريخ الى اليوم، وبقي ذكره محاطاً بهالة من المجد والخلود الى اليوم.

-٢-

وشيخ المعرة هو الشاعر الحكيم أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي.

وقد ولد بمعرة النعمان عام (٣٦٣هـ - ٩٧٤م) في بيت مذكور بالعلم، مشهور بالأدب والفضل. وكانت المعرة من بلاد الدولة الحمدانية آنذاك، ويتنازعها الحمدانيون والفاطميون ضمن أقليم حلب، الذي تقع المعرة فيه.

وفقد أبو العلاء بصره وهو في الثالثة من عمره، وبعد أن اجتاز مرحلة الطفولة، ودخل في عصر الشباب، عكف على العلوم الاسلامية والعربية دراسة وحفظاً، وأصبح نادرة عصره في جودة الحفظ، وسرعة الفهم، وكثرة التحصيل، حتى لقد ضرب به المثل في ذلك كله.

وعاش في المعرة، متنقلاً في بعض بلدان الشام، ولما ضاقت به بلده، رحل الى بغداد عام (٣٩٨هـ - ١٠٠٨م)، وهي دار الإسلام، ومنارة الثقافة، وصرح العلوم والاداب، وسوق التجارة العالمية، وموطن الحضارة الإسلامية التالدة، وتموج بالوافدين عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وفي بغداد التقى العلماء والفضلاء والادباء، ولم يلبث أن بلغه مرض أمه فأسرع بالعودة الى المعرة، ولكنه قبل أن يبلغها بلغه موت أمه..

وعاد المعري إلى بلده مكدوداً مجهداً، ولزم بيته، وأطلق على نفسه لقب «رهين المحبسين»، ولزم الصوم، وامتنع عن أكل اللحوم، ونظم لزومياته، وعاش زاهداً، ولم يفكر في الزواج.. وكان يردد بيته المأثور:

هــذا جنــاه أبــي علــيّ   ومــا جنيــت علــى أحــد

وظل عاكفاً على الشعر والأدب ومجالس تلاميذه، حتى توفاه الله إلى رحمته عام (٤٤٩هـ-١٠٥٧م)، بعد مرض ألم به ثلاثة أيام، ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يؤبنونه ويرثونه بشعرهم. رحمه الله.

-٣-

يحمل «الفصول والغايات» روح المعري وفلسفته وآراءه في الحياة والمعرفة وزهده..

وهو مملوء بالحكم الإنسانية الرفيعة، وعليه طابع أبي العلاء في التشاؤم وإيثار العزلة وفي الزهد، وفي كل مجالات تفكيره.

يقول المعري في مطلع الكتاب، أي في أول الجزء الذي عثر عليه منه، وهو ليس أول الكتاب حقا، إذ مطلعه مفقود، مع ما فقد من فصول الكتاب وأجزائه:

أحلف بسيف هبار - أي قاطع - وفرس خبار - أي قوي سريع العدو - يدأب في طاعة الجبار - أي بالجهاد في سبيله، وذلك في عصر الحروب الموجهة ضد الاسلام - بركة غيث مدرار - غزير - ترك البسيطة - الأرض - حسنة الخبار - أي المنظر - لقد خاب مضيع الليل والنهار، في استماع القينة - المغنية - وشرب المقار - الخمر - أصلح قلبك بالاذكار، صلاح النخلة بالأبار - من يصلح النخل ويلقحه - لو كشف ما تحت الاحجار - القبور - فنظرت الى الصديق المختار، أكبرت ما نزل به كل الأكبار، نحن من الزمن في خبار - يريد في أمتحان، والخبار الارض الصعبة - كم في نفسك من اعتبار، ألا تسمع قديمة الاخبار، أين ولد يعرب ونزار، ما بقي لهم من أصار - أي آثار - لا وخالق النهار، ما يرد الموت بالاباء.

وينتهي هذا الفصل، أو الفقرة، الذي يكتبه المعري تمجيداً له، وتحمل الفقرة في آخرها كلمة الاباء وهي غاية، وآخرها همزة كالروى في القافية للبيت الشعري.

ويلاحظ أن فكرة الموت هي المسيطرة على هذا الفصل، إذ كان موت أمه لا يزال أمامه وفي فكره، وتأثرت به كل حياته أشد التأثير.

ويلي هذا الفصل فصل آخر تسبقه للفظة «رجع»، أي رجع بعد التفسير الى الحديث الموصول الذي يريد تسجيله، فماذا يقول أبو العلاء، في الفصل الجديد؟ . .

يقول: ما آمل؟ وقد فقدت أبوي، وأخذت الشبيبة من يدي، ومشيت إلى الأجل على قدمي، حتى كدت أطوه بأخمصي، ووقع كل - أي عبء وثقل - الايام علي ونظرت عين المنية الي، إن اشتعال الوضح - أي الشيب - بمغرقي، وأنا لا أفارق الغي، وأصبح، أخا السلامة الحي، وأعلم أن الملحد - القبر - آخر منزلي، وأن جسدي مزابل - أي مفارق - للحوباء - اي النفس والروح. . ولفظة الحوباء غاية. . ثم يأخذ المعري في التفسير والشرح وليس هناك أروع من هذه الصور البيانية التي تعمل روح المعري وفكره وأعماق نفسه إليك، وتحمل كل مشاعره، وأدق أحاسيس وجدانه الى نفس القارىء والسامع. .

وبعد ذلك يرجع المعرى الى فصوله، والى حكمه وأمثاله، مسبوقة بكلمة «رجع». .

ويقول شيخ المعري من فصوله:

العمل وان قل يستكثر اذا اتصل ودام. لو نطقت كل يوم لفظة سوء لأسودت صحيفتك في رأس العام «ولو كسبت كل يوم حسنة عددت بعد زمن من الأبرار».

ومن حكمه في استقطاع أكل لحم الحمام خاصة والحيوان عامة:

أيها المسكين الغاد، ما أنت وحمامة طوقها من الحمم، وبردها من الرماد، كان كاتباً خط في عنقها بمداد تقدس خالقها في الوضح والسواد، ولها في الصبح نبرات كنبرات الرهبان، أما هتافها: سبحانك اللهم سبحانك.

ويقول المعري في فصوله وغاياته:

أما الله فأزلي، لا أعلم ما يقول المعتزلي، والناس مطالبون على حسب العقول. وهو هنا يبدو مخاصها للمعتزلة ولأرائهم العقلية الجافة.

-٤-

فقد بث أبو العلاء في كتابه «الفصول والغايات» لطلابه ومريديه كل ما دعاه صدره من معارف وأفكار، وتغير لذلك أجمل مظهر يظهر فيه الكتاب، وهو تمجيد الله وتنزيهه وتسبيحه، والمواعظ الرقيقة العميقة الهادفة، ليكون ذلك أقرب الى النفوس، وأقرب الى رضاء الله عز وجل والى ثوابه ورحمته، والى الجزاء الكريم والنعيم المقيم.

وفي «الفصول والغايات» روحانية عالية، وخشوع وعبادة لله ما بعدهما من حديث يفتري على شيخ المعرة أبي العلاء.

إن هذا الجزء الذي بين أيدينا من «الفصول والغايات لأبي العلاء، والذي تبتدىء غاياته من أثناء حرف الهمزة، وتنتهي بحرف الخاء، والذي فقد باقيه، لهو ثمرة تجربة طويلة وخبرة كبيرة، وثقافة واسعة، ومعاناة قاسية للحياة ولأحداثها التي عصفت بأحمد بن عبد الله ابن سليمان.

وقد أختار له أسم «الفصول والغايات»، جمعاً لفصل بمعنى فقرة في فكرة واحدة ومضمون واحد، وجمعاً لغاية، أي نهاية أو خاتمة، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . .

ولا ريب أن الكتاب يضيف إلينا كل جديد من فكر أبي العلاء، ويرسم لنا صورة واضحة لشخصيته ولمشاعره في هذه الفترة الحافلة بالمعاناة من حياة أبي العلاء وهو يمدنا بالكثير من المعارف عن أبي العلاء، وفلسفته .

إلى ما فيه من ثروة أدبية ولغوية لا تقدر بقيمة .

إننا لمدينون لهذه الفرصة الطيبة التي التقى فيها محب الدين الخطيب بوراق في مكة المكرمة، ليعثر على هذا الجزء من كتاب كان مفقوداً لشيخ المعرة، وليصبح الكتاب بعد فترة في أيدى قراء العربية، يقرأون فيه حكمة المعري وفلسفته وما يحمله الكتاب من نظرات المعري في الحياة والناس، ومن إقباله على الزهد والوئام الروحي والنفس مع كل مبدعات الخالق الاعظم في الكون والوجود والطبيعة .

ديوان المؤيد الشيرازي

-١-

ها نحن أولاء في رحاب العصر الفاطمي . .

صورة دائمة لحضارة مصر الاسلامية ففي ظلاله بلغت مصر منزلة عالية من التقدم والازدهار والرخاء .

وقد شاركت في بناء حضارة هذا العصر عقول كبيرة، من مختلف الشعوب الاسلامية، وكانت الصلات الفكرية والروحية بينها آنذاك وثيقة .

ومن هذه العقول الامام المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي «٣٩٠-٤٧٠هـ: ٩٩٩-١٠٧٨م»، وهو شخصية اسلامية جليلة، أدت دوراً كبيراً في خدمة مصر في القرن الخامس الهجرى، الحادي عشر الميلادي، وفي ظلال حكم الدولة الفاطمية في مصر، والدولة البويهية في العراق وفارس .

وكان المؤيد من فلاسفة المذهب الاسماعيلي، اشهر أئمته، وقد نشأ في أسرة دينية كبيرة وكان أبوه وثيق الصلة بالحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في مصر، وفي هذا الوسط نشأ المؤيد، وتلقى ثقافته، حيث أحاط بجميع العلوم الاسلامية، وبعد سنوات أصبح رئيس الدعوة في شيراز .

وتوثقت صلته بالأمراء البويهيين، واستطاع أن يكسب عطفهم ببلاغته وقوة حجته . واستمر في القيام بالدعوة في شيراز والأهواز . ودعا في الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ومن ثم أخذت خلافة بغداد تضيق عليه الخناق . . فرحل الى القاهرة عام (٤٣٦هـ) .

وفي القاهرة رحب به الخليفة المستنصر بالله، وأستقبله استقبالاً رسمياً . . ووصف المؤيد مقابلته التاريخية له وصفاً دقيقاً في كتابه «سيرة المؤيد في الدين» .

وما لبث أن أصدر المستنصر بالله أمرا بتقليد المؤيد ديوان الإنشاء في القاهرة، وبزيادة مخصصاته المالية، واحتل مكاناً رفيعاً في البلاط المستنصري.

وبعد ثلاث سنوات من قدومه الى مصر وقد عليها الرحالة ناصر خسرو، الذي أقام في مصر ثلاث سنوات، ووصف الحضارة الفاطمية في كتابه «سفر نامه» وصفاً رائعاً.

واستغل المؤيد عمله في «ديوان الانشاء» في توسيع نطاق الدعوة الى المذهب الاسماعيلي، وامتدادها الى بغداد، حيث أمر أحد اتباعه عام (٤٥٠هـ) بالخطبة في بغداد على منابرها للخليفة الفاطمى المستنصر بالله ففعل ذلك نحو ثلاثة عشر شهراً. ومن أجل ذلك قدرت له الخلافة العباسية جهاده من أجل الدعوة والدولة وأسندت إليه عام (٤٥١هـ) رياسة الدعوة، وبذلك أصبح يلقب «رأعى الدعاة».. وبجهوده قدم حسن الصباح مصر عام (٤٦٩هـ).

وكان الخلفاء الفاطميون يعملون جادين من أجل قوة الدولة، وازدهار الحضارة ونهضة العلوم والآداب، فأجزلوا للعلماء العطاء، وأسسوا دار العلم أو «دار الحكمة» وملاؤوها بالكتب في مختلف العلوم والفنون، وخصصوا جانباً منها ليلقي فيه الدعاة محاضراتهم، بل جعلوا مكاناً للدعوة أشبه بقاعة المحاضرات في عرفنا المعاصر، وكان الدعاة والقضاة يقومون بإلقاء محاضرتهم كل يوم أحد للرجال، وكل يوم أربعاء للنساء، وكل يوم ثلاثاء لكبار رجالات الدولة.

ويصف المقريزي إقبال الناس على شهود هذه المحاضرات فيقول: إنهم ازدحموا مرة لسماع القاضي محمد بن النعمان، فمات منهم أحد عشر رجلاً من شدة الزحام «١-٢٢٢ خطط المقريزي» وكان كتاب «دعائم الاسلام» للقاضي النعمان من أهم المؤلفات لديهم وقد أسندت رياسة الدعوة عندهم إلى عالم كبير أطلق عليه لقب «داعي الدعاة» وكانت رتبته تلي رتبة «قاضي القضاة» ويساعده في شؤون الدعوة اثنا عشر نقيباً، وله نواب يتولون عنه العمل في الاقاليم، «وداعي الدعاة» هو الصلة بين الخليفة ورعاياه، وله منزلته العالية في قصر الخلافة، في مختلف شؤون الدولة والخلافة.

وعاش المؤيد مشمولاً بعطف الخليفة المستنصر بالله، وبتشجيعه، كتب إليه الخليفة مرة يقول:

يـا حجـة مشهـورة فـي الـورى — وطـور علـم أعجـز المـرتقـى
شـيـعـتـنـا عـدموا رشدهم — في الغرب يا صاح وفي المشرق
فـانشـر لهـم مـاشئـت مـن علمنـا — وكـن لهـم كـالـوالـد المشفـق

ومما كتبه المؤيد الى المتنصر.

قوله من قصيدة طويلة:

سـلام علـى العتـرة الطـاهـرة — وأهـلا بـأنـوارهـا البـاهـرة
سـلام علـى المصطفـى أحمـد — ولـي الشفـاعـة فـي الاخـرة
سـلام علـى المـرتضـى حيـدر — وابنـائـه الانجـم الـزاهـرة
سـلام عـليـكـم فمحصـولهـم — لـديـك أيـا صـاحـب القـاهـرة

وقد خلف المؤيد عدا ديوان شعره كتبا تعد من نفائس المؤلفات، ومنها:

- المجالس المؤيدية، وهي محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة.
- سيرة المؤيد في الدين.
- قصيدة الاسكندرية التي تسمى «ذات الدوحة».

-٢-

وديوان شعر المؤيد حافل بالقصائد الزاخرة بالمعتقدات الاسماعيلية، إذ كان شعره كله موقوفاً على خدمة الدعوة، وتقريبها الى أذهان الجماهير، لأنه شاعر ملتزم.

ومن ثم صار شعره مما يتغنى به الناس، لسهولته ووضوحه، وعذوبته وموسيقاه الحلوة الممتعة المؤثرة، الى جانب تدفق العاطفة الدينية فيه.

-٣-

وديوان المؤيد فريد في بابه، وفيه كل أصول الدعوة والمذهب.

وله أرجوزة طويلة في الائمة، يقول فيها:

وهم أولو الأمر أئمة الهدى.

عصمة من لاذ بهم من الورى.

مفروضة طاعتهم على الأمم.

قاطبة من عرب ومن عجم.

وفي الديوان قصائد تتحدث عن الظاهر والباطن، وعن جل المصطلحات والعقائد، وتحفل بالجدل للخصوم، وبمدح الائمة الخلفاء.

وشعره لا يزال يردد حتى اليوم في كل المناسبات الدينية، ومنه كما في الديوان:

الهي دعوتك سراً وجهرا.

أيا مالك الملك خلقاً وأمرا.

ويا من يصرفنا كيف شا.

حياة وموتاً وحشراً ونشرا.

الهي شددت رحال الرجا.

إليك فعفواً الهي وغفرا.

وللمؤيد فضل رعاية الشعراء وإعلاء شأنهم في الدولة، وتقريبهم الى الخلفاء والأمراء والوزراء..

-٤-

واذا كان الحاكم الفاطمى قد أمر وزيره الفلاحي أن يكتب الى عزيز الدولة والى حلب

ليحمل أبا العلاء المعري الى مصر، وبأن يسمح له بخراج المعرة في حياته، فإن المستنصر الفاطمي قد بدل لأبي العلاء مال بيت المال في «معرة النعمان» من أموال وإنْ كان أبو العلاء لم يقبل منه شيئاً، وقد اعتذر بأن ظروفه لا تسمح له بالسفر الى القاهرة.

وكذلك كتب المؤيد إلى والي حلب أن يرفع من منزلة أبي العلاء، وأن يجري عليه من الأموال ما يقوم بحاجاته، مما يعد لفتة كريمة عادت على الشعر والشعراء في عصره بالازدهار والقوة.

وإذا كان المؤيد قد توفي في عام (٤٧٠) للهجرة، فإن شعره خلد أسمه في صحف التاريخ، شاعراً موهوباً عبقرياً، ذائع الصيت، لحلاوة موسيقاه وخفة روحه وجمال أسلوبه، وعذوبة لفظه.

ولا يزال الديوان وأشعاره فيه موضع الحفاوة والعناية من كل محب للأدب، ويكثر في شعره الغناء من مختلف الطبقات منذ عصر المؤيد حتى اليوم..رحمه الله..

إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

-١-

حدِّث عن الإمام أبي حامد الغزالي وعن كتابه «إحياء علوم الدين» كما تشاء، وقُلْ ما تريد أن تقول، وبحسب الغزالي وكتابه أنهما صاغا الفكر الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري حتى القرن الثالث عشر، أو قلْ: إنهما قد أثرا في الحياة الإسلامية وفي وجدان الجماهير الإسلامية في كل مكان طيلة هذه الحقبة الممتدة تأثيراً بليغاً لا يُحَدُّ مداه.

وقد ولد الغزالي عام (٤٥٠هـ - ١٠٥٩م) بطوس، في قرية (غزالة) إحدى ضواحي طوس، وبين هذه المدينة الإيرانية وجرجان ونيسابور طوف أبو حامد يأخذ العلم عن علماء عصره، كالإمام الجويني إمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ)، والرازكاني وغيرهما، ثم هاجر إلى بغداد عام (٤٨٤هـ)، ولقي من عطف الوزير الأكبر نظام الملك كل تقدير، وولاه التدريس في «النظامية» فعلَت منزلته، وذاعت شهرته، ورحل إلى بغداد، فالحجاز حيث أدى فريضة الحج، فالشام، وأقام في دمشق، وفي الجامع الأموي اعتكف الغزالي وصنف كتابه «الإحياء» وزار بيت المقدس، والإسكندرية، ثم عاد إلى طوس، وتوفي بها يوم الإثنين (١٤ من جمادى الآخرة عام ٥٠٥هـ - ١١١١م).

الغزالي عاش للعلم وبالعلم، وأنعت دائرة معارفه، فكان دائرة معارف عصره ثقافته ثقافة عميقة شاملة.

يقول الغزالي: وبعد فأما علم طريق الاخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه وتعالى في كتابه: فقْها، وحكمة، وعلما، وضياءً، ونوراً، وهداية ورشداً، أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً:

إحياء لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الائمة المقدمين، وإيضاحاً لمناهج العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالح.

يقول الغزالي: لقد أسسته على **أربعة أرباع**:

● **ربع العبادات** يشتمل على عشرة كتب:

كتاب العلم، كتاب قواعد العقائد، كتاب أسرار الصلاة، كتاب أسرار الزكاة، كتاب أسرار الصيام، كتاب أسرار الحج، كتاب آداب تلاوة القرآن، كتاب الأذكار، والدعوات، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

● **ربع العادات** ويشتمل على عشرة كتب:

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة وكتاب أداب السفر وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

● **وربع المهلكات** ويشتمل على عشرة كتب:

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة التنفس، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب فآت الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والربا، وكتاب ذم الكبر والعجز، وكتاب ذم الغرور.

● **وربع المنجيات** ويشتمل على عشرة كتب:

كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق، والأنس والرضا وكتاب النية والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر وكتاب ذكر الموت.

-٢-

وكتاب «الإحياء» مرجع أصيل في شتى علوم الدين، ومختلف علوم الشريعة، بدأ في تأليفه في رجب من سنة (٤٨٦هـ)، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، والمد الصليبي يتجاوز مداه الخطير في غزو بلاد الإسلام وبخاصة الشام، وكانت صوفيته أثراً من آثار زهده في الحياة.

وقسم الغزالي كتابه إلى كتب، بدأها بكتاب العلم، ومنها: كتاب الطهارة - كتاب الصلاة - كتاب الزكاة - الصوم - الحج - آداب تلاوة القرآن - آداب الأكل والدعوة والضيافة - النكاح - آداب الكسب والمعاش - كتاب الحلال والحرام - آداب الألفة والأخوة - العُزُلة- آداب السفر - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الآداب النبوية - رياضة النفس - آفات اللسان - ذم الغضب والحقد - ذم الدنيا - ذم البخل وذم المال - ذم الجاه والرياء - ذم الكبر - ذم الغرور - التوبة - الصبر والشكر - الخوف والرجاء - الإخلاص والصدق - المحاسبة - التفكير - ذكر الموت - عجائب القلب - التوحيد والتوكل - المحبة والشوق - السماع والوجد.

وقد هذب القاسمي الدمشقي (ت ١٣٣٢هـ) كتاب «الإحياء» في جزأين كبيرين، وسمى هذا التهذيب «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين».

وكتاب العلم الذي صدر به الغزالي «الإحياء» يبدؤه بالآثار الواردة في فضل العلم ومكانة العلماء، من كتاب الله، ومن الأحاديث النبوية الشريفة، ومن كلام الصحابة والعلماء، وحسبك ما روى عن معاذ أنه قال:

«تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم».

-٣-

و«الإحياء» شهد له العلماء في الشرق والغرب وعرف مكانته الباحثون والدارسون، وهو كتاب تهذيب وإرشاد وهداية وموعظة للمؤمنين، وكتاب تعليم لشباب المسلم ليلم بأصول الإسلام، وبعلوم الدين، وكتاب تربية للنفس الإنسانية لتستقيم على الطريق السوي، ولتهتدي بهدى الإسلام، وأثره العميق في وجدان المسلمين وفي تهذيب الأخلاق، أثر لا يدرك مداه.

-٤-

وهنا أقف عند كتاب الحج، فهذا أوان رحلة المسلم إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، وللاعتمار في بيت الله، بيت إبراهيم وإسماعيل ومحمد - عليهم الصلاة والسلام-.

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام إنه فريضة تأتلف فيها مصالح المسلمين، وتجتمع بها قلوبهم وأرواحهم، وتجدد بها الروابط بينهم، وقد أعلن رسول الله ﷺ على المسلمين فريضة الحج فقال: «**يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا**»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ **فسكت حتى قالها ثلاثاً**، ثم قال رسول الله ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**».

وفي فضل الحج والعمرة ورد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**» رواه البخاري ومسلم.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**هذا البيت - بيت الله - دعامة الإسلام، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة وإن رده رده بأجر وغنيمة**».

يذكر الغزالي في «الإحياء» فضل الحج، وفضيلة البيت ومكة والمدينة، وشد الرحال إلى المساجد.

فيورد قول الله عز وجل في سورة الحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٢]، قال قتادة: لما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج، نادى: يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتاً فحجوه - وهذا على أن الأمر في «وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ» لإبراهيم، ويصح أن يكون الأمر هنا هو لرسول الله ﷺ، أي: وأذن يا محمد.

وروى أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة أستقبل الكعبة وقال: **«إنك لخير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله إليَّ، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت»**(١).

ويذكر الغزالي أنه ليس بعد مكة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ، فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة، قال ﷺ: **«صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»**(٢).

وحديث رسول الله ﷺ: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»** حديث متواتر(٣).

ويتحدث الغزالي عن شروط وجوب الحج وأركانه وواجباته ومحظوراته حديثاً مفصلاً.

فشروط صحة الحج إثنان: الإسلام والوقت، وشروط لزومه الاستطاعة.

كما يذكر وجوه أداء الحج والعمرة وهي ثلاثة:

١ - الإفراد - التمتع - القرآن.

وهي كلها جائزة لقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجه، فمنا من أهلَّ بعمرة، ومنا من أهلَّ بحج وعمرة، ومنا من أهلَّ بالحج.

فالإفراد: أن يقدم الحجّ وحده.

والتمتع: أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة، ويتحلل بمكة ويتمتع بمحظورات الإحرام إلى وقت الحج.

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري (رقم ٣٩٢١) بلفظ قريب. كما أخرجه من حديث سعد بن جبير وأبي الطفيل عن ابن عباس بنحو ذلك (رقم ٣٩٢٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم ٦٤٦، ومسلم برقم ١٣٩٤ من حديث أبي هريرة. كما رواه مسلم أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر برقم ١٣٩٥، ورواه أصحاب السنن، ومالك في الموطأ برقم ٤٦٢.

(٣) رواه البخاري برقم ٦٤٥، ومسلم برقم ١٣٩٧ من حديث أبي هريرة بلفظ: ومسجد الحرام ومسجد الأقصى، ورواه مسلم عن حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة بلفظ تشد الرحال كما أخرجه أصحاب السنن ما عدا ابن ماجه، وأخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي هريرة (٢/ ٢٣٤،٢٧٨)، كما أخرجه في حديث طويل لأبي سعيد الخدري (٣/ ٣٤٠٧).

والقرآن: أن يجمع بين الحج والعمرة، فيقول: لبيك اللهم بحج وعمرة.

ويذكر الغزالي في إحيائه أعمال الحج من أول السفر إلى الرجوع، وينتهي إلى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة التي يلتزم بها الحاج.. كما يذكر زيارة المدينة وآدابها، ويؤكد أن زيارة المدينة ومشاهدها تذكر الحاج بأن (طيبة) السلام هي البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه ﷺ وجعلها دار هجرته، وأنها مأواه الذي شرّع فيه فرائض ربه تبارك وتعالى وسننه، وجاهد منه خصوم الدين وأعداء الإسلام من أنصار الوثنية والشرك والبغي والضلال. وفي طيبة أمن المسلمون على دينهم وبدأت دولة الإسلام وانطلق المسلمون لتبليغ رسالة الله إلى العالمين إلى أن توفاه الله عز وجل، وأنها المقر الذي أختاره الله عز وجل لنبيه، ولأول المسلمين وأفضلهم، وأن فرائض الله سبحانه وتعالى أول ما أقيمت في ذلك المقر، وأنه جمع أفضل خلق الله حياً وميتاً، ﷺ.

وبهذا ينتهي كتاب الحج من «الإحياء»، رحم الله الغزالي، ونفع بكتابه «الإحياء» شباب المسلمين وشيوخهم على السواء.

الإفادة والإعتبار

البغدادي

«الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لموفق الدين عبد اللطيف البغدادي من أهم كتب التراث المتصلة بحضارة مصر ومواريثها الإنسانية، وقد فرغ البغدادي من تأليفه في العاشر من شعبان عام ثلاثة وستمائة للهجرة بالبيت المقدس وهو وصف عام لمصر في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي - السادس الهجري، ويتضمن مقالتين:

المقالة الأولى تتضمن ستة فصول:

فالفصل الأول في خواص مصر العامة.

والفصل الثاني فيما تختص به من النبات.

والفصل الثالث فيما تختص به من الحيوان.

والفصل الرابع فيما بقي من آثارها القديمة.

والفصل الخامس فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن.

والفصل السادس في غرائب أطعمتها.

أما المقالة الثانية فتتضمن ثلاثة فصول:

الأول في النيل وكيفية زياداته واعطاء علل ذلك وقوانينه.

والثاني في حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

والثالث في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

ويقول المؤلف في مقدمة كتابه:

«إني لما أنهيت كتابي في «اخبار مصر» المشتمل على ثلاثة عشر فصلاً، رأيت أن أفرد منه الحوادث الحاضرة، والآثار البادية المشاهدة، إذ كانت أصدق خبراً، وأعجب أثراً،

فألفت ذلك في فصلين منه، فجردتهما، وجعلتهما مقالتين في هذا الكتاب، وزدت بحسب ما اقتضته الحال» والبغدادي له مؤلف كبير مفقود، هو كتاب أخبار مصر الكبير، وقد جعله مصدراً لكتابه «الافادة والاعتبار»، فأخذ منه وأضاف إلى ما أخذ بعض زيادات أكمل بها هذا الكتاب، فكتاب الإفادة يحتوي على موجز لفصلين من فصول كتابه «أخبار مصر الكبير» الذي كتبه في ثلاثة عشر فصلاً، مع إضافات جديدة، وزيادات ليست في الاصل الذي أخذ منه.

والبغدادي مفكر كبير، وعالم موسوعي من الطراز الأول، عاش في عصر الدولة الايوبية وشاهد طموحاتها وانتصاراتها، واتصل بصلاح الدين الأيوبي ووزيره العالم والأديب الكبير القاضي الفاضل.

وكان موضع رعايتهما واهتمامهما، وصاحب الخطوة عندهما.

ومع ثقافته الفلسفية العميقة نبغ في علوم العربية وآدابها، وتفوق في ذلك تفوقاً كبيراً. وفي كتاب ألفه البغدادي عن سيرته الذاتية، وفقدناه مع ما فقدناه من كتب تراثنا، وبقيت منه نصوص نقلها ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» يذكر البغدادي أنه حفظ «اللمع في النحو لابن جني» بشرح الثمانيني وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح ابن برهان، وغيرهم. وحفظ «أدب الكاتب» لابن قتيبة، «ومشكل القرآن» و«غريب القرآن» له أيضا ودرس «الإيضاح» لأبي علي الفارسي وشروحه و«المقتضب» للمبرد، وكتباً أخرى. ودرس الحديث والفقه على ابن فضلان بدار الذهب وهي مدرسة بناها فخر الدولة، وقرأ كتب استاذه كمال الدين الأنباري. كما قرأ كتاب سيبويه وشرحه للسيرافي، و«العروض» للتبريزي، ومعاني القرآن للزجاج، ومقدمة ابن يا بشاط في النحو.. ثم أمعن في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها ودروس الفلسفة التي كان قد تبحر فيها استاذه المغربي ابن التلميذ، فأخذها عنه، وأكب على كتب الغزالي وابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية وغيرهم.. كما قرأ كتب السهروردي (المقتول عام ٥٨٧هـ/ ١١٩٢م).. فكان البغدادي صاحب ثقافة واسعة، وعقلية عميقة، تبدو مظاهرها فيما ألف من كتب:

فله في المنطق نحو عشرين كتاباً.

وله في الفلسفة كذلك أكثر من عشرين كتاباً.

وله في السياسة والاخلاق نحو عشرة كتب وهي كلها كتب مفقودة، ما عدا كتابه «مختصر فيما بعد الطبيعة»، وهو مخطوط في المكتبة التيمورية - المجموع رقم (١١٧) حكمة تيمور وما عدا مقالتين له في الحواس وفي المسائل الطبيعية وهما في الاسكوريال - فهرست دار بنور رقم (٨٨٩-).

وفي الطب اختصر البغدادي كتب القدماء في الطب وتبلغ مختصراته أكثر من عشرين كتاباً.

وكتب في الطب مقالات وكتباً عدة تبلغ نحو الخمسة والثلاثين. ولا ريب أنه متأثر في الطب بابن سينا تأثراً كبيراً، وطب ابن سينا هو الذي عرفته البيئات العلمية في العصور الوسطى، وفيه أثار من طب أبقراط وجالينوس وغيرهما.

وللبغدادي كتب في النقد والبلاغة، من أهمها أختصاره للصناعتين، وكتابه في شرح نقد الشعر لقدامه بن جعفر. . وغير ذلك مما أشار إليه ابن شاكر في كتابه «فوات الوفيات جـ٢ ص ٧».

-٢-

وقد ولد البغدادي في بغداد عام سبعة وخمسين وخمسمائة للهجرة (- ٦٦١م)، وتلقى ثقافته الاولى في بغداد على أيدي اساتذة المدرسة النظامية، ومنهم كمال الدين الانباري (-٥٧٧هـ/ ١١٨٢م) وغيره.

ثم رحل إلى الموصل عام (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) إذ كانت الموصل موطن أبائه الأول، فأخذ عن الكمال بن يونس بعض الرياضيات والطب، وصار مدرساً في بعض مدارسها. . ومن الموصل رحل الى دمشق عام (٥٨٦هـ)، فاتصل بعلمائها وأدبائها وكتابها ومن هناك رحل الى القدس، ثم لقي القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بالقرب من أسوار عكا. . ومن ثم توجه إلى مصر في ضيافة القاضي الفاضل وذلك في السابع عشر من جمادى الاخرة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة (- ١١٩٢م) فأكرمه نائب القاضي الفاضل وهو الشاعر الكبير ابن سناء الملك (-٦٠٨هـ/ ١٢١٢م).

وأقام البغدادي في القاهرة معلماً ومتعلماً مفيداً ومستفيداً، يشغل نفسه بالقراءة والكتابة والتأليف، ورحل إلى بيت المقدس ولقي صلاح الدين فيها، وقال عنه: رأيت ملكاً عظيماً، يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريباً بعيداً، سهلاً محبباً. وزار في هذه الرحلة عام (٥٨٨هـ) دمشق، وأمعن في قراءة كتب الفلسفة اليونانية، وكان قصده من هذه الزيارة أن يكون قريبا من صلاح الدين، ومات صلاح الدين (عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) في دمشق وبكاه الناس، وبكاه البغدادي، وعاد البغدادي الى القاهرة..

وفي مصر كان يقرىء الناس بالجامع الازهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار يرجع الى الجامع الأزهر، فيقرأ قوم آخرون، ويقضى جزءاً كبيراً من ليله في القراءة والتأليف.

وفي (عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م) رحل من القاهرة الى بيت المقدس، وطوف بالعالم الاسلامي: دمشق، حلب، وبلاد الروم ثم عاد إلى حلب، فأتم فيها كتابه «الحيوان» عام (٦٢٨هـ)، ومنها توجه الى الحجاز فبغداد حيث لقي أجله في ثاني عشر من المحرم عام تسعة وعشرين وستمائة - الثامن من نوفمبر عام (١٢٣١م).. ودفن فيها بجوار أبيه.

-٣-

تحدث البغدادي في كتابه «الإفادة» عن الآثار المصرية حديث العالم، وقد ذكر الأهرام وأبا الهول والمصاطب والمقابر والمعابد والتماثيل والتحنيط.

ويتحدث عن الأهرام حديث المذهول أمام عظمتها، فيقول: إنك إذا تبحرتها - أي الاهرام، أي دققت الفكر فيها - وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية امكانها.

حتى أنها تكاد تحدث عن قومها، وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم.

ويقول البغدادي في كتابه: وعند هذه الاهرام آثار أبنية جبارة، ومقابر كثيرة، متقنة،

وقلما ترى من ذلك شيئاً إلا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول - الخط الهيروغليفي بالطبع.

ويقول: وعند هذه الأهرام صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظيم، يسميه الناس أبا الهول.. وسألني بعض الفضلاء: ما أعجب ما رأيت؟ فقلت: تناسب وجه أبي الهول، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة، كما تصنع الطبيعة الصورة متناسبة.. والعجب من مصوره، كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب في الأعضاء مع عظمها، وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه.

وتحدث البغدادي عن آثار عين شمس، ومعابد الصعيد، وآثار الاسكندرية، ومن أهمها عمود السواري.. ووصف مدينة منف ذات التاريخ العريق الممتد عبر ثمانية وأربعين قرناً من الزمان.

ويتحدث عن التماثيل المصرية، فيقول: إنها أمر يفوق الوصف، ويتجاوز التقدير وأما اتقان أشكالها، وأحكام هيئتها، والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة، والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظمة النظام الطبيعي والتناسب الحقيقي.

ويقول: واذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام في اعتقادهم على الاوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وجثثهم عظيمة، أو أنه كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعي بين أيديهم، وذلك أن الاذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه في ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة، وتوفر العزيمة، ومصابرة العمل، والتمكن من الآلات، والتفرغ للأعمال، ولكي يدرس البغدادي التشريح درساً عملياً، يذهب موفق الدين الى المقس، حيث هناك تل اثري كبير كانت فيه مدافن قديمة» وبه أكثر من عشرين ألف هيكل آدمي، فيدرس لتلاميذه تركيب جسم الإنسان على هدى الهياكل الآدمية الكثيرة.. ثم ينتقل الى مدافن بوصير الاثرية وهكذا..

وحين يتحدث البغدادي عن النيل معجزة الله في وادى النيل، يتحدث بلغة العالم الثبت الأمين في كل كلمة يقولها.. ويصف الفيضان والطبيعة المصرية حيواناً ونباتاً وارضاً،

وتاريخاً حديثاً دقيقاً موزون الكلمات.

وينقل نصاً عن ابقراط الفيلسوف اليوناني: من أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر، فإن شعبها قد عنوا بذلك عناية تامة، ومن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيئتها - تشريح الجسم - فينبغي له أن يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء - أي هياكلهم الآدمية.

وبعد فكتاب «الافادة» الصغير الحجم، الذي طبعته المجلة الجديدة بالقاهرة منذ نحو الخمسين عاماً، والذي عنى به الباحثون في الشرق والغرب، مليء بالمجد المصري، وأخبار الحضارة المصرية، وعجائب التاريخ وأحداثه في مصر، وهو صورة كبيرة واضحة لمصر الأيوبية في عهد بطلها صلاح الدين الأيوبي ووزيرة القاضي الفاضل.. رحمهما الله..

والحديث عن الكتاب وعن مؤلفه، حديث لا ينتهي عند حد.. ويرتبط أوله بآخره وكلما ذكرنا شيئاً منه عمدنا إلى ترك أشياء كثيرة.

ولسنا ننسى أن المجلس الأعلى للفنون والآداب قد أحتفل في يونيو (١٩٦٣) بذكرى مرور ثمانمائة عام على ميلاد موفق الدين عبد اللطيف البغدادي.. وأن البغدادي في الثامن من نوفمبر عام (١٩٨١م) يكون قد مضى على وفاته سبعة قرون ونصف القرن ولا تزال مؤلفاته وكنوز تراثه محتاجة الى التنقيب عنها في كل مكان.. رحمه الله.

ديــوان مثنـوي

جلال الدين الرومي

(٦٠٤-٦٧٣هـ)

-١-

جلال الدين محمد البلخى الرومي من أشهر شعراء التصوف والوجدان الروحي في الادب العربي «٦٠٤-٦٧٣هـ: ١٢٠٨-١٢٧٣م».

وفي هذا العام - الميلادي، عام ٢٠٠١ - يكون قد مضى على ميلاد جلال الدين ثلاث وتسعون وسبعمائة عام ميلادي «٧٩٣ عاماً»، وهي ذكرى ننوه بها في هذا المقام.

ولد جلال الدين في بلخ في السادس من ربيع الأول عام (٦٠٤هـ) كما هو مشهور، ومن المأثور أن والده بهاء الدين التقي عام (٦٠٩هـ) بالشيخ فريد الدين العطار في بغداد، وأهدى العطار في هذا اللقاء إلى جلال الدين محمد نجل بهاء الدين كتابه «أسرار قامه»، وأن عمر جلال الدين آنذاك أربعة عشر عاماً، مما يدل على أن ميلاد جلال الدين كان عام (٥٩٥هـ) «١١٩٩م» لا عام ٦٠٤هـ «١٢٠٨م».

ومهما كان فإن جلال الدين نشأ في بيت مشهور بالورع والتقوى والزهد، وأبوه بهاء الدين محمد بن حسين الخطيب كان عالماً زاهداً وصوفياً ورعاً، يقال: إن أمه كانت بنت علاء الدين محمد عم السلطان محمود سلطان خوارزمشاه ويقال كذلك: إن نسبه ينتهي الى ابراهيم بن أدهم الزاهد الصوفي المشهود «١٦١هـ».

نشأ جلال الدين في بلخ، ثم رحل في سن الرابعة عشرة من عمره مع والده من موطنه الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ومنها سافر إلى الشام حيث التقى في دمشق بمحيى الدين بن عربي، وبغيره من العلماء ثم سافر الى قونية بآسيا الصغرى، فأقام فيها، وظل مقيماً بها طيلة حياته حتى لاقى ربه، وبسبب حياته الطويلة فيها لقب بالرومي، إذ كانت

«قونية» من بلاد الأناضول التي كانت تعرف ببلاد الروم.

وفي عام (٦٣٨هـ: ١٢٣١م) توفي والده بهاء الدين في قونية.

وكان جلال الدين على خُلُق رفيع، ودين قويم، وعام غزير، اذ كان قد درس على يدي والده ثم على علماء عصره، الذين أخذ عنهم علوم الشريعة والدين والتصوف وعلوم اللغة، وكان من بين شيوخه: برهان الدين الترمذي، وشمس الدين التبريزي، وفريد الدين العطار، وسواهم.

وفي قونية شهر جلال الدين بالتقوى والصلاح والزهد والورع، وكثر تلاميذه ومريدوه، وقام مقام والده في الوعظ والافادة والتدريس، وأصبح صاحب طريقة روحية كبيرة..

وفي قونية توفي جلال الدين في الخامس من جمادى الثانية من عام (٦٧٣هـ)، وترك آثاراً كثيرة، في مقدمتها: المثنوى، وكليات أو ديوان شمس الذي يشتمل على نحو ثلاثين ألف بيت من الشعر، وله رباعيات مطبوعة، ومجموعة تقريراته، ورسائله لمعاصريه، والمجالس السبعة في المواعظ. وسواها.

-٢-

نظم جلال الدين ديوانه المشهور «المثنوى» في قونية في الفترة ما بين عامي (٦٥٩هـ و٦٦٩هـ)، وما لبث هذا الديوان أن طارت شهرته في كل مكان.

ويحتوي «المثنوى» على نحو ستة وعشرين ألف بيت من الشعر بالفارسية.

وقد قام الشاعر الكبير عبد العزيز صاحب الجواهر بنقله من الفارسية الى العربية شعراً في ستة أجزاء كبار.. ويقول المترجم في مقدمته لهذه الترجمة ما نصه.

«من حسن التوفيق أني منذ عنفواني في العراق، وقبل زهاء أربعين سنة، كنت مغرماً بترجمة «المثنوى» كغرام الهزار بالجلنار، أدور حوله، وأرجع منه البيت والبيتين، بالترجيع العربي الطلق، ووصولاً لضالتي المنشودة، قرأت على أستاذ فارسي نبذاً من شرح الحكيم «ملا هادي» على بعض غوامض أبياته، وترجمت أبياتاً معدودة منه إلى النظم العربي - ثم

نزحت من العراق الى ايران، وتغيرت روحي وبلادي، وانمحت من خاطري الأبيات المترجمة المعدودة برمتها، سوى ترجمة البيت الثالث لأول قافية في الدفتر الأول منه، وهو:

ابتغـــي صـــدراً تشظـــي بـــالنـــوى لابـــث شـــرح آلام الهـــوى

ولكن ما زال حب الترجمة له كامناً في روحي، زهاء عشرين سنة صادف في انتهائها خروجي من طهران الى كرمانشاه، فمكثت فيها ست سنوات، فتحركت في فواعل الترجمة، لا عن اختيار، بالاسلوب الحر من قيود القوافي، مقتفياً وزن المثنوى، على البحر المتقارب».

-٣-

صدر المترجم ترجمته للمثنوى بأبيات يأسف فيها على ما ضاع من عمره في غير الحياة الروحية، ومن هذه الأبيات:

فوا لهفي على الأيام قد ضاعت ضياع الريح في البيداء من عمري

فأين الوصل من ليلى وشيرين؟ هما قد أحكما الميثاق في هجري

وفي مقدمة المثنوى لجلال الدين الرومي أنه - أي هذا الديوان - قد اشتمل على الغرائب والنوادر وغرر المقالات، ودرر الدلالات، على طريقة الزهاد، حديقة العباد، قصيرة المباني. كثيرة المعاني.

فإذا نظرنا في الترجمة وجدناها تنطق عن بلاغة باهرة، وشاعرية رائعة، وموهبة نادرة.

ويقع الجزء الأول في (٨٤٢) صفحة، والثاني في (٨١٦) صفحة، والثالث في (٨٧٠) صفحة، والرابع في (٨٧٨) صفحة، والخامس في (٨٢١) صفحة، والسادس في (٩٧٨) صفحة - من القطع الكبيرة.

وهذه الترجمة العربية للمثنوى مملوءة بالشروح الكثيرة المفيدة، وبالتحقيقات الدقيقة الكبيرة الأهمية في فهم مرامي المثنوى ومضامينه ومعانيه الدقيقة.

والمترجم «عبد العزيز صاحب الجواهر» أو «عبد العزيز الجواهري»، شاعر أصيل، متمكن من اللغة والبيان والشعر والموسيقى الشعرية، وهو الأخ الاكبر للشاعر العراقي المشهور، محمد مهدي الجواهري، وهما من بيت اشتهر بالعلم والأدب والشعر.

والمترجم أيضا شيخ قد أناف على الثمانين وإن كان يتمتع بحيوية الشباب وتدفقه، مما يبدو لنا في شاعريته وفي شعره الخصب العذب المتدفق، وقد استمعت إليه يلقي قصيدة من شعره، كان عنوانها «مصر أُمّ النجوم»، ويصور فيها في بلاغة وتدفق، وجلال بيان، وعبقرية خيال، وحسن تصوير عواطفه ومشاعره المتدفقة الحية نحو أرض الكنانة.

وهذه القصيدة الرائعة هي من عيون الشعر، وإن كانت كبقية شعر عبد العزيز الجواهري الرفيع، ذي الموسيقى الحلوة والصور الشعرية الخلابة، والخيال الذهبي الرائع.

وهي تحاكي شعره الجميل الأصيل في ترجمة «المثنوى»، الذي نظمه جلال الدين الرومي، وصور فيه مواجيده. ومختلف مشاعره، ونزعات نفسه وعواطفه تصويراً دقيقاً، في بلاغة وجمال فصاحة، وحسن بيان، وحلاوة موسيقى.

وقد ترجم أيضاً شاعرنا عبد العزيز الجواهري فيما ترجمه الى العربية ديوان الشاعر الكبير شمس الدين محمد حافظ الشيرازي، شعراً عربياً أصيلاً، وتقع هذه الترجمة المطبوعة في جزءين كبيرين.

-٤-

وقد سمى المترجم ترجمته الديوان جلال الدين الرومى «جواهر الآثار في ترجمة مثنوى مولانا خداوندكار، محمد جلال الدين البلخي الرومي شعراً».

ولا ريب أن «المثنوى» سواء في أصله الفارسي، أم في ترجمته العربية، ذى الستة الأجزاء، قد ترك آثاراً كبيرة، في العقل العربي، وفي الفكر الاسلامي.. وما زال يعد من روائع الآثار الإنسانية الخالدة. وقد ذاع صداه في الشرق والغرب، وما زال معدوداً من أشهر كتب التراث الإسلامي الخالد.

لقد ألف أعلام كبار مثنويات، من مثل: النسائي، والعطار، وغيرهما. لكن «مثنوى»

جلال الدين نال الشهرة الواسعة، ويقول جلال الدين فيه:

كان «العطار» روحاً، والنسائي له عيناً ونحن من بعدهما قد جئنا.

ثم يقول عن العطار:

بلغ العطار مدن العشق السبعة.

ونحن لا نزال بعده في منعطف جادة وقد بلغ في شعره فيه مبلغاً قوياً، اذ امتلأ الديوان بأفكار روحية لطيفة، وصل بها الى الغرض بجودة عبارته، ولطافة معانيه، ودقة مضمونه. وصفاء فكرته.

ونضوج ذهنه الروحي، حتى لقد بلغ بالشعر الصوفي قمة ازدهاره. وكان جلال الدين يحسن انتقاء معانيه، كما كان يحسن اختيار ألفاظه وأساليبه وصوره الشعرية، وإن كان أكبر همه موجهاً نحو المعاني.

واذا كان الفردوسي إماماً في الشعر الملحمي الحماسي، والخيام أستاذاً في فن الرباعيات الفلسفية، والانورى رائداً في القصائد الصوفية الطويلة، والسعدي إماماً في الغزل الالهي، وحافظ أستاذاً في الغزل الصوفي، فإن جلال الدين كان إماماً لكل الشعراء الروحيين في أدبنا الاسلامي.

وقد بلغ أثره في آسيا الصغرى والهند وايران مبلغاً كبيراً، وكانت له المنزلة الرفيعة على امتداد العصور. وألفت شروح كثيرة للمثنوى، من مثل «جواهر الاسرار» لكمال الدين حسين الخوازمي وشرح اسماعيل بن أحمد «وهو بالتركية».. وينقل شمس الدين أحمد الأفلاكي في كتابه «مناقب العارفين» عن لسان جلال الدين الرومي أنه قال: «إن الله تعالى قد شمل أهل الروم بعناية عظيمة، لأن أهل هذه البلاد كانوا في غفلة عن عالم الحب الالهي، وعن التذوق الوجداني.

... حتى كتب لنا مسبب الأسباب سبباً نقلنا به من خراسان الى بلاد الروم، وجعل هذه الديار مأوى لأعقابنا.

وكان أهل قونية يعدون جلال الدين ساحراً لشدة تأثيره فيهم. وكان جلال الدين شخصية متميزة قل نظيرها، وقد صار إماماً روحياً للكثير من الناس في العالم الإسلامي.

-٥-

لقد كان جلال الدين عاشقاً والهاً، وشعره البالغ في جميع دواوينه نحو السبعين ألف بيت يمثل روحاً أحرقها لهب الوجد، وضرام الحب، ونار العشق.. مما كان له قوة التأثير، وروعة السحر.. ومما جعل من «المثنوى» كتاب فكر قبل أن يكون ديوان شعر.

وفي «المثنوي» لم يكن جلال الدين يميل الى الأساليب القديمة في نظم الشعر، بل كان مولعاً بالأساليب الجديدة، والصور الخيالية المبتكرة، ونظم شعره على خمسة وخمسين بحراً مختلفاً من بحور الشعر المستعملة والمتروكة أيضاً، وقد منحته الموسيقى التي هي أساس الوزن القدرة على أن يتفنن في أوزان الشعر أكثر من أي شاعر آخر.

هذا وتطلق كلمة «مثنوي» عادة على الأشعار التي لشطري كل بيت منها قافية واحدة، وهي في مجموعها متماثلة الوزن مختلفة الروي. وقد كان هذا اللون من الشعر موجوداً من أقدم العهود في اللغة الفارسية، نظم عليه الشعراء الفرس قصائدهم.

وقد كان السبب في نظم كتاب «المثنوي» أن حسام الدين الحلبي طلب من جلال الدين أن ينظم على وزن «حديقة الحقيقة» النسائي، أو «منطق الطير» لفريد الدين العطار النيسابوري كتاباً يجمع أصول الطريقة، ويحوى أسرار المعرفة فشرع جلال الدين بناء على طلبه في نظم المثنوي وكان حسام الدين يجلس الليالي في مجلس جلال الدين يكتب ما ينظم، ويقرأ عليه ما كتب وكان النظم والكتابة والانشاد تستمر الى أن يظهر الفجر، ويطلع الصباح.

وجاء المثنوي كتاب حكمة وأخلاق وفلسفة وذوق وتربية ومعارف اجتماعية وقصص رفيعة، وتبلغ حكاياته «٢٧٥ حكاية»، منها (٢٦٤) حكاية كان لها الاسبقية في الآدب الفارسي، وفي قصائد المثنوي تشعر دائماً بروح الحكيم والفيلسوف والعالم والزاهد والشاعر والمتيم الولهان.

وما في «المثنوى» من حقائق حيّة، وموضوعات وفيرة، ليس متخلفاً عن معارف الإنسان المعاصر ولا عن البشرية اليوم في مستواها الفكري، بل لا يزال يسبقها في الحقيقة الحية، في الأخلاق. وفي المعرفة وفهم الإنسان. والتوحيد. والمبادىء الانسانية التي يجب أن تسود العالم المعاصر المتحضر.

إن «المثنوى لجلال الدين البلخي الرومي» سيبقى تراثاً حياً خالداً، وسيظل ذخراً للإنسان الذي خاطبه جلال الدين، ورمزاً للشرق وروحانيته العالية.. وما أصدق وأبدع ما يقوله جلال الدين لتلميذه حسام الدين الحلبي في «المثنوى»:

يا ضياء الحق، يا حسام الدين، أنت من بك جاوز «المثنوى» القمر بنورك.

وقد كان جلال الدين يشعر من أعماق نفسه بأنه بأشواقه الروحية، التي صورها في «المثنوى» يقود الإنسان إلى عمر جديد من الإبداع والتجديد والشموخ الروحي العظيم.

ويعد جلال الدين الموت فاتحة للحياة، ويعتقد أن الموت انطلاق للروح، الذي يتخلص به من قفص الجسم الضيق، الى حيث الرحب والسعة، ويقيم في ديار الارواح، ويتصل بالابدية. وبهذه الوسيلة يعود الفرع الى أصله مرة أخرى، ويطير في أنحاء الزمان والمكان وما وراء هذا العالم الحسى المحدود.

كما يعد جلال الدين، الموت مصدراً ومنبعاً للحياة ويقول:

حينمـــا تـــذبـــل الازهـــار ... تنمـــو الأثمـــار
وحينمـــا يقـــرب الجســـد ... تطلـــع الـــروح
إن المتجـــرعيـــن كـــأس المـــوت ... أحيـــاء مـــن حبـــك
مـــع أنهـــم قـــطـــعـــوا الأمـــل ... مـــن الحيـــاة ومـــا بهـــا

☆ ☆ ☆

مـــت مـــن عـــالـــم الجمـــاد ... الـــى عـــالـــم النمـــو
ومـــت مـــن دنيـــا النمـــو ... الـــى الكـــائنـــات الحيـــة

وفـــى حملـــة أخـــرى أمـــوت   مـــن حيـــاة البشـــريـــة
لأبســـط جنـــاحـــي   فـــي عـــالـــم الملكـــوت
ومـــرة ثـــانيـــة أطيـــر   مـــن دنيـــا المـــلائـــكـــة
وأصبـــح شيئـــاً لا يـــدركـــه   الـــوهـــم الانـــســـانـــي
وهناك أكون عدماً في جسمي   ووجـــوداً فـــي روحـــي
والعـــدم يقـــول لـــي كـــالأرغـــن   إنـــا إلـــيـــه راجـــعـــون
إن عـــواطـــف المـــوت تهـــب   عـــلـــى الـــعـــارفـــيـــن
أرق وأعـــــــذب   مـــن نسيـــم البســـاتيـــن
إن أولـــيـــاء الله ينظـــرون   الـــى الـــوصـــال نظـــرة الســـرور
ولـــذا كـــان المـــوت عنـــدهـــم   أحـــلـــى مـــن الـــعـــســـل
وليـــس مـــراً عنـــدهـــم   مـــوت الـــجـــســـم
لأنهـــم ينتقلـــون بـــه مـــن غيـــاهـــب   الجـــب الـــى فسيـــح الـــجـــنـــان

☆ ☆ ☆

والموت الحقيقي، في رأي هؤلاء، هو أن ينطفىء مصباح الأمل في قلب الانسان. أي إن الانسان يموت حقيقة، إذا ما انطفأ سراج وجدانه وضميره.

وفي رأيهم أيضاً أن الموت كالمرأة، يرى فيه كل انسان وجهه الحسن أو القبيح، فكل من يهرب من الموت، أنما يهرب من أعماله السيئة، الحالكة السواد.

يا بني:

مـــوت كـــل شخـــص إنمـــا يكـــون   مثيلـــه وصـــورة مـــنـــه
فـــالمـــرآة الصـــافيـــة دائمـــاً   تعكـــس نفـــس الـــوجـــه

فصفحـــة المــرآة فـــي وجـــه الابيـــض بـيـــضـــاء
كمـــا أنهـــا أمـــام الـــزنجـــي ســـــــودا
فيـــا أيـــهـــا الـــذى تفـــر مـــن المـــوت
حـــذار فـــإنـــك يـــا حبيبـــي تفـــر مـــن نفســك
إن أعمـــالـــك الصـــالحـــة والطـــالحـــة هـــي منـــك واليـــك
كـمـــا أن الـحـســـن والـقـبـــح ينبعـث مـن ضميـرك
فـيـــا حـيـــاة الـعـــاشـقيـــن فـــي مـــوتهـــم
لا تـــجـــد قـــلـــبـــاً الا فـــــي الذين خطفت قلوبهم
ولمـــا وجـــدنـــا الثمـــن وديـــة الـــدم فـــي المـــوت
هـــرعـــنـــا لـنـفـــدي بـــأرواحنـــا

وقال أحد علماء المغرب العارفين حين وافته منيته:

هذا هو الوقت الذي أهدي فيه جسمي الى التراب، وأهدي أسمي الى شعوب الارض، وروحي الى المقام الالهي.

والموت عند مولانا جلال الدين البلخي الرومي، نجاة من الأيام المليئة بألآم الحياة، وثمرة لشجرة الحياة.

والموت هو الطريق الذي يصل بنا الى ديار الصديق، إلى الأفق الذي ينبعث منه نور الأمل.

لا تقل اننا لا نصل الى ملكنا البار الكريم.

لأنه لا يوجد ما يصعب عن الابرار الكرام..

لا تركن الى اليأس. فهناك آمال ولا تذهب نحو الظلام، فهناك شموس..

إن للمسلمين والنصارى واليهود، والصالح والطالح.

لكل هؤلاء طريق خاص الى الواحد الاحد..

ويتصور مولانا جلال الدين أن أبواب الرحمة مفتحة أمام قلبه المليء بالأمل. ويعتقد أنه جاء للموت لكي يحطم قفل هذا السجن الذي يبتلع بني البشر.

جئت مرة ثانية لأحطم قفل السجن..

وأكسر مخالب وأنياب هذا الفلك الدوار المتعطش للدماء.

وطرت من الملك الكريم الأزلي كبازي أشهب.

لأفتك بالبومة التي تبطش بالببغاء الجميلة..

قلت لا تسمح لمجنون مثلي ليدخل دارك.

فأسكر وأغيب عن وعيى، وأحطم هذا وذاك.

لقد دعوتني إلى مائدتك الحافلة العامة..

فلماذا تفرك أذني، اذا قطعت قطعة من الخبز.

☆ ☆ ☆

ويقال: إن مولانا جلال الدين كان طريح الفراش، يعاني آلام المرض، وكانت قرينته تدعو له بالشفاء وطول العمر، فقال مولانا جلال الدين: هل نحن أمثال «فرعون شداد» لنعاقب على حبسنا في هذا القفص المظلم..

لقد جئنا الى سجن العالم، لبضعة أيام..

ولكن لماذا نحبس ونحن لم نسرق بضائع أحد.

أسد الغابة

لابن الأثير

ثلاثة أخوة كانوا أئمة في العلم عاشوا في عصر الحروب الصليبية عصر الدولة الأيوبية التي كانت لها السيادة الكاملة على مصر والشام وفي ظلالها عاش العلماء الثلاثة:

(١) أبو الحسن علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين ابن الأثير صاحب كتابنا الذي نتحدث عنه اليوم.. وقد نشأ في أسرة علمية لها جلالها ومجدها ولها الشرف الباذخ في إقليم الموصل الذي تنتمي هذه الأسرة الى قرية من قراه هي جزيرة ابن عمر يوسف الثقفي أمير العراقين.

وكان أحد المؤرخين المسلمين الأعلام فهو مؤلف كتاب «الكامل» في التاريخ.

(٢) مجد الدين أبو السعادات المبارك «٥٤٤-٦٠٦هـ» وهو مؤلف «جامع الأصول في أحاديث الرسول».. وكتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر».. وكان مُحدِّثاً كبيراً له شهرته في مجال الحديث النبوي الشريف.

(٣) ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (٥٥٨-٦٣٧) وكان أديباً شاعراً وكاتباً وناقداً وكتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» مشهور بالنسبة الى كتب كثيرة له في الأدب والنقد والبلاغة.

ويقول ابن حجر عن صاحب كتاب «أسد الغابة»: «في أوائل القرن السابع جمع عز الدين ابن الأثير كتاباً حافلاً سماه «أسد الغابة» جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة».. وقد ترجم في هذا الكتاب لسبعة آلاف وخمسمائة وخمس وأربعين صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ.

وقد عنى العلماء المسلمون بالتاريخ لصحابة رسول الله ﷺ عناية كبيرة.. وكان من أشهر من ألف في ذلك ابن سعد وهو محمد بن سعد الزهري (١٦٨-٢٣٠هـ) وكتابه «الطبقات الكبرى» مطبوع ومشهور.

وممن عنى كذلك بضبط أسماء الصحابة والتاريخ لهم:

- خليفة بن خياط (٢٤٠هـ).

- الامام البخاري محمد بن اسماعيل (١٩٤-٢٥٦هـ).

- الحافظ أبو بكر عبد الله بن أبي داود (٣١٦هـ) وكتابه «حلية الأولياء» معروف.

- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٣٣٦-٤٣٠هـ).

- أبو عمر النمري القرطبي ابن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣هـ) صاحب كتاب «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» ذكر فيه (٤٢٢٥) صحابياً.

- أبو موسى بن عمر الأصبهاني المدني المحدث (٥٠١-٥٨١هـ).. وقد ألف ذيلاً على كتاب ابن منده (٣٠١هـ) في تاريخ الصحابة أشتمل على أسماء كثيرين منهم رضوان الله عليهم أجمعين.. وكثيرون آخرون من العلماء ممن عنوا بتاريخ صحابة رسول الله والتأليف فيه وممن يضيق هذا المقام عن ذكرهم.

-٢-

وكتاب ابن الأثير من أجمع ما كتب في هذا الباب، وشهرته العلمية عند العلماء والمحدثين والمؤرخين معروفة.

□ ويقول ابن الأثير في صدر كتابه: أن رواة سُنَّة رسول الله ﷺ لم يضبطوا ولا حفظوا في عصرهم كما فعل بالتابعين وغيرهم الى زماننا هذا».

□ ويعرف الصحابة بأنهم الذين شهدوا رسول الله ﷺ وسمعوا كلامه وشاهدوا أحواله ونقلوا ذلك إلى من بعدهم من الرجال والنساء.

ويشير ابن الأثير في المقدمة بصنيع ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في هذا الباب.

□ ويذكر سبب تأليف الكتاب بأنه قرأ ما كتبه ابن منده وأبو نعيم وأبو موسى الأصفهاني وابن عبد البر فعزم على أن يجمع بين كتبهم الأربعة ولكن الأيام لم تسعفه.. ثم يقول: واتفق أن سافرت الى البيت المقدس جعله الله داراً للاسلام أبداً فاجتمع بي جماعة من أعيان

المحدثين حثوا عزمي على جمع كتاب لهم في أسماء الصحابة استقصي فيه ما وصل اليّ من أسمائهم فثار العزم الأول وتجدد ما كنت أحدث به نفسي وشرعت في جمعه والمبادرة إليه.

ويذكر ابن الأثير أنه رتب كتابه على حروف المعجم.. ويعنى بذكر المصادر التي رجع إليها في تخريج الأحاديث التي أوردها في كتابه هي ترجمة رسول الله ﷺ.

ثم يرتب تراجمه على حروف الهجاء فتأتي الترجمة للصحابي الجليل أبي اللحم الغفاري المقتول يوم حنين ثم تأتي الترجمة للصحابي أبان بن سعيد بن العاصي القرشي الأموي وهو صحابي تأخر إسلامه حيث أسلم في أواخر عام ستة من الهجرة وسبب إسلامه - كما يذكر ابن الأثير - مع ما كان عليه من الشدة على رسول الله والمسلمين أنه خرج في تجارة الى الشام فلقي راهباً فسأله عن رسول الله وقال له: إني رجل من قريش وإن رجلاً منّا خرج فينا يزعم أنه رسول الله أرسله مثل ما ارسل موسى وعيسى، قال له الراهب: وما اسم صاحبكم؟ فقال له أبان: محمد.. فرد عليه الراهب واصفاً له محمداً رسول الله وسنه ونسبه فقال أبان: هو كما وصفت فقال الراهب: والله ليظهرن على العرب ثم ليظهرن على الأرض فإذا جئت مكة فاقرأ عليه مني السلام فعاد أبان الى مكة فلما سار رسول الله إلى الحديبية تبعه أبان فأسلم وحسن إسلامه وبعثه رسول الله إلى نجد على رأس سرية من المسلمين ثم ولاه البحرين بعد العلاء ابن الحضرمي.. فلما توفي رسول الله عاد أبان إلى المدينة فأراد أبو بكر أن يرده الى البحرين فأبى أبان وقال: لا أعمل لأحد بعد رسول الله وقتل أبان وأخوه سعيد يوم اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر.. وقيل: بل قتل يوم أجنادين في جمادى الأولى سنة أثنتى عشرة من الهجرة في خلافة أبي بكر وقبل وفاته بقليل.. وقيل: بل توفي يوم مرج الصغر عند دمشق سنة أربع عشرة من الهجرة.. وقيل: بل توفي عام تسعة وعشرين.

ويؤيد هذا القول الأخير رواية من روى أنه قد أملى مصحف عثمان على زيد بن ثابت بأمر عثمان خليفة المسلمين.

ويترجم في حرف الهمزة لإبراهيم ابن رسول الله وأمه مارية القبطية التي أهداها المقوقس

لرسول الله هي وأختها سيرين فوهب رسول الله سيرين لحسان بن ثابت فولدت عبد الرحمن ابن حسان وقد ولد ابراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة في مدينة رسول الله في العالية وكانت قابلته سلمى مولاة رسول الله وبشَّر أبو رافع مولى رسول الله النبي بمولده فوهب له عبداً وسر الرسول بمولده كثيراً. ثم دفعه الى امرأة بالمدينة ترضعه اسمها أم سيف. . وقال الزبير: إن الأنصار تنافسوا فيمن يرضعه فجاءت أم برده من بني النجار فكلمت رسول الله في أن ترضعه فكانت ترضعه بلبن ابنها في بني مازن بن النجار وترجع به الى أمه. وتوفي إبراهيم وهو ابن ثمانية عشر شهراً كما قال الواقدي وقيل: توفي عن ستة عشر شهراً وثمانية أيام. . وصلى عليه رسول الله ﷺ ودفن بالبقيع وكان إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه فأخذه رسول الله فوضعه في حجره وهو يقول: «**يا إبراهيم أنا لا نغني عنك من الله شيئاً**». . ثم ذرفت عيناه بالدموع ثم قال ﷺ:

«**يا إبراهيم: لولا أنه أمر حق. . ووعد صدق. . وإن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا. . وإنا بك يا إبراهيم لمحزنون تبكي العين. . ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب**».

ولما توفي ابراهيم اتفق أن الشمس كسفت يومئذ فقال قوم: إن الشمس انكسفت لموته فخطبهم رسول الله فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله والصلاة**».

وهكذا يستمر ابن الأثير في تراجمه لصحابة رسول الله علماً محققاً ومدققاً ومحاوراً ومناقشاً لمختلف الروايات ومخرجاً للأحاديث ومسنداً لها وضابطاً للأعلام.

□ ولا يذكر من الأعلام إلا من لقي رسول الله ﷺ وسمع كلامه وشاهد أحواله. . ويعيب على من ترجموا للصحابة حين يعدون الأحنف بن قيس وهو لم يلق رسول الله وكان ظهوره في خلافة عمر وإن كان عاش في حياة النبي ولكنه لم يره ودليل أنه شاهد عصر الرسول أنه لقي عمر في وفد أهل البصرة وهو رجل من أعيانهم. ويقول ابن الأثير في صدر كتابه عن الأحنف: «ولا أعلم لم ذكروه وغيره ممن هذه حاله فإن كانوا ذكروهم لأنهم كانوا موجودين على عهد .

رسول الله مسلمين فكان ينبغى أن يذكروا كل من أسلم في حياة الرسول ووصل اليهم اسمه» مقدمة الكتاب.

□ وأول علم يذكره ابن الأثير في حرف الباء هو «باقوم الرومي». وكان نجاراً بالمدينة فأسلم وهو مولى سعيد بن العاصى وهو الذي صنع لرسول الله منبره ثلاث درجات.

ويترجم لبلال بن رباح الحبشي فيذكر أنه شهد بدراً والمشاهد كلها وأنه كان من السابقين الى الإسلام وممن عذب في الله فصبر على العذاب وكان يؤذن لرسول الله في حياته سفراً وحلاً.. وهو أول من أذن له في الاسلام. وأقام في الشام بعد وفاة رسول الله مجاهداً ولم يؤذن بعد رسول الله لأحد فلما دخل عمر الشام أذنّ له مرة واحدة ولم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ومات بلال سنة (١٧هـ أو ١٨هـ) وقيل: سنة (٢٠هـ) بدمشق.

ويذكر ابن الأثير أن بلالاً قدم من الشام لزيارة مسجد رسول الله فأقبل الى المدينة فأتى قبر رسول الله فأقبل الحسن والحسين فأخذ يقبلهما ويضمهما إلى صدره فقالا له: نشتهي أن تؤذِّن في السحر فعلا سطح مسجد رسول الله فارتجت المدينة حين سمعت صوت بلال مؤذن رسول الله.

ويترجم للحسن بن علي بن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين «٤٩٣هـ» وفيه وفي الحسين أخيه قال رسول الله: **«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»**.

وقال فيهما: **«هما ريحانتاي من الدنيا»**.

كما يترجم ابن الأثير للحسين بن علي «٤-٦١هـ» سيد الشهداء.. ويترجم لخالد بن الوليد القائد البطل أو صاحب النصر في معركة اليرموك وغيرها من كبريات المعارك في الاسلام وتوفي خالد بحمص من الشام سنة احدى وعشرين في خلافة عمر.

ويخصص ابن الأثير آخر الكتاب لتراجم الصحابيات من النساء ويرتبهن كذلك على حروف المعجم صحابية إثر صحابية.

-٣-

والكتاب بحق موسوعة كبرى في تاريخ الاسلام وأعلامه في عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين وصدر من بني أمية ولا يستغني عنه مؤرخ يريد أن يؤرخ لحياة المسلمين يفي تلك الحقبة الخالدة من تاريخ الاسلام كما لا يستغنى عنه مؤرخ لسيرة رسول الله ولسيرة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين. . والكتاب في جودة تحقيقاته وفي تثبت صاحبه في الأخبار والروايات وفي كل ما يورده من أسباب وحقائق تاريخية واسلامية مثل يحتذى وعمل جليل ينتفع به.

وهو مطبوع طبعات عدة منها طبعة في إيران وأخرى في القاهرة في دار الشعب إضافة إلى طبعات أخرى كثيرة.

وهكذا كان لابن الأثير المؤرخ عمل كبير في تاريخه لصحابة رسول الله ﷺ في هذا الكتاب الخالد كما كان له عمل كثير في تأريخه لدول الاسلام وملوكه الى عصر الحروب الصليبية حتى عام (٦١٦هـ). . وعاش ابن الأثير المؤرخ وأدرك طرفاً من غارات التتار على شرقي العالم الاسلامي ثم مات عام (٦٣٠هـ/ ١٢٢٣م) ودفن بالموصل قبل سقوط بغداد في أيدي التتار وانتهاء الخلافة العباسية بستة وعشرين عاماً وكان النذير للمسلمين في كتابه «**الكامل**» بما يهدد الاسلام والمسلمين على أيدى التتار من نكبات لا يتصورها عقل.

وإذا كان ابن الأثير المؤرخ قد انتقل الى عالم الخلود منذ (٧٦٠) عاماً ميلادياً فإن كتابيه «أسد الغابة» و«الكامل» لسان ذكر له في كل مكان منذ وفاته حتى عصرنا - رحمه الله-.

تاريخ الإسلام
للذهبي

-١-

صدر عن دار الكتاب اللبناني المصري المجلد الأول من التاريخ الكبير المشهور المسمى «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام»، الذي ألفه في مطالع القرن الثامن الهجري مؤرخ الاسلام ومحدث الشام، الامام الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي. وهذا المجلد يعد كتاباً مستقلاً، حيث قصره المؤلف على المغازي النبوية.

والإمام الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ: ١٢٧٤-١٣٤٨م) ولد ونشأ وعاش في دمشق، وتلقى العلم على الشيوخ من أسرته، وعلى كبار شيوخ عصره، وقد ذكر جماعة منهم في خاتمة كتابه «تذكرة الحفاظ»، وتتلمذ عليه طائفة من العلماء، منهم تاج الدين السبكي (٧٢٧-٧٧١هـ) وغيره، وانصرف الى القراءة والتأليف والتدريس وتولى مشيخة دار الحديث بدمشق، وذاعت شهرته العلمية في كل مكان، وشهد له معاصروه من شيوخه وتلاميذه بالنبوغ.

وجمعت الصداقة بينه وبين ابن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨هـ)، ولما وقفت الجماهير موقفاً خاصاً من ابن تيمية كتب الذهبي الى صديقه ابن تيمية ناصحاً ومشفقاً رسالته «النصيحة الذهبية لابن تيمية».

ومن مؤلفاته: **تاريخ الاسلام** في ستة أجزاء، وقد نشرته في القاهرة مكتبة القدس عام (١٣٦٧هـ)، ويبدأ بالسيرة النبوية، **تذكرة الحفاظ** في أربعة أجزاء، وقد طبع في حيدر أباد بالهند؛ **دول الاسلام** وقد طبع في حيدر آباد، ثم في القاهرة، **ذيل العبر**، وقد طبع في الكويت بتحقيق من محمد رشاد عبد المطلب؛ **سير أعلام النبلاء**، طبع منه ثلاثة أجزاء، **العبر في خبر من عبر** في خمسة أجزاء، وقد طبع في الكويت؛ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** في أربعة أجزاء وقد طبع في لكناهور بالهند، ثم في القاهرة.

-٢-

وكتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي من أهم مؤلفاته وأعظمها وهو موسوعة كبرى في التاريخ الاسلامي، أرخ فيه الامام الذهبي للاسلام على مدى سبعة قرون من السنة الأولى من الهجرة الى تمام المائة السابعة، ورتبه على السنين والطبقات، وانتشر الكتاب وراج رواجاً كبيراً، وقرأه عليه تلميذه صلاح الدين الصفدي (٦٩٦-٧٦٤هـ).

وفاتحة كتاب «تاريخ الاسلام» في السيرة النبوية والمغازي والمجلد الأول منه هو في المغازي، والثاني في السيرة النبوية الشريفة.

وقد نهض الأستاذ محمد محمود حمدان بتحقيق كتاب المغازي ونشره لأول مرة عن نسخة كمبردج رقم (٢٩٢٦) وهي منسوخة عام (٨٤٥هـ) وتقع في (٢٣٨) ورقة، ونسخة مكتبة الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل بالرياض المنسوخة عام (١٢١٣هـ)، ونسخة الدكتور محمد حميد الله، ومصادر التحقيق وفيرة، وعمل المحقق عمل علمي جليل مشكور.

-٣-

ويعتمد الذهبي في المغازي على ابن اسحاق (٨٥-١٥١هـ)، وموسى بن عقبة (١٤١هـ)، والواقدي (١٣٠-٢٠٧هـ)، وعلى كثير من كتب التاريخ والمصادر الإسلامية الأولى في الطبقات وغيرها.

ويبدأ الجزء الأول من تاريخ الإسلام بتاريخ السنة الأولى من الهجرة، فالثانية، فالثالثة، فالرابعة الى تمام السنة العاشرة.

وهذا القسم خصصه الذهبي لمغازي رسول الله ﷺ، والمغازي وقعت بعد الهجرة، ومن ثم كان هذا القسم كله خاصاً بمغازي رسول الله، صلوات الله عليه إلا ما ندر من أحداث وقعت في هذه السنوات العشر الحافلة الخالدة، لكنها على الجملة ترتبط بالمغازي برباط وثيق. ويقع هذا القسم في (٧٦٠) صفحة.. والفهارس الموضوعة له تشمل أكثر من (١٦٠) صفحة منها، وتحتوي على فهارس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأعلام، أو رجال الإسناد، والبلدان والأمكنة، والأمم والقبائل، والغزوات والسرايا والبعوث،

والوقائع والأيام، والأديان والقصائد، والاشعار والأراجيز، والكتب، والموضوعات.

وتبلغ غزوات الرسول وسراياه ثلاثاً وأربعين، كما يذكرها الذهبي.

ويبدأ الذهبي بتاريخ السنة الأولى من الهجرة بشهر ربيع الأول وهو شهر الهجرة النبوية من مكة الى المدينة، وفي السنة الثانية يبدأ بأحداث وقعت في ربيع الأول أيضاً، ومن السنة الثالثة يبدأ بأحداث المحرم، وكذلك في السنة الرابعة وما بعدها الى آخر الكتاب، ولعل السنتين الأوليين لم تقع فيهما أحداث في شهري المحرم وصفر.

ولكن الذهبي في أخبار مطلع السنة الحادية عشرة التي توفي فيها يذكر أخبار شهري المحرم وصفر عندهما ويقول في ختام هذا الجر دخل شهر ربيع الأول، وبدخوله عشر سنين من التاريخ للهجرة النبوية، فهو لم يعتبر العشر السنين الأولى من تاريخ الاسلام بعد الهجرة تنتهى بنهاية السنة العاشرة، بل وصلها بشهري المحرم وصفر وهما مطلع السنة الحادية عشرة، ووقف عند شهر ربيع الأول الذى توفي فيه رسول الله صلوات الله عليه، وهو الذي وقعت فيه الهجرة النبوية أيضاً.

ويقودنا ذلك إلى أن الهجرة هي بداية التاريخ الاسلامي وقد حدثت في شهر ربيع الأول ولكن بداية العام الهجري جعلت من المحرم لا من ربيع الأول الذي حدثت فيه الهجرة، ويرجع ذلك إلى أن العام الهجري جعلت بدايته من نهاية موسم الحج وبدء انصراف الحجاج من مكة والمدينة، وللحج عند العرب وعند المسلمين مكانة عظمى ومن ثم عادوا بالعام الهجري الى أول المحرم، ولم يجعلوا بدأه شهر ربيع الأول اعتزازاً بمكانة الحج وعظمه مشاعره، ولأن المحرم شهر حرام تعظمه العرب جميعاً وتحرم فيه القتال، ولأنه كان بداية التفكير في الهجرة والإعداد لها.

-٤-

وغزوات رسول الله ﷺ لم يكن عدواناً من المسلمين على غيرهم، إنما كانت دفاعاً عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الانسان وحقوقه المشروعة في الحياة، فغزوة أحد والأحزاب مثلاً هل يمكن عدها عدواناً من المسلمين، وجيوش المشركين جاءت إلى المدينة مهاجمة لتدميرها، وللقضاء على المسلمين فيها؟

وغزوة فتح مكة هل يمكن عدها عدوانا من المسلمين، وقد نقضت قريش المواثيق والمعاهدة بينها وبين رسول الله، وهاجمت حلفاء الرسول صلوات الله عليه من القبائل العربية؟

وغزوة الطائف هل يمكن عدها عدوانا وجميع خصوم الرسالة والرسول قد تجمعوا فيها وبدأوا يعدون جيشاً ضخماً لمهاجمة رسول الله والقضاء عليه.

غزوة الرجيع في السنة الرابعة من الهجرة، وبنو لحيان من هذيل بأسرهم، قبيلة كاملة: تهاجم عشرة من صحابة رسول الله لا يملكون سلاحاً، ولم يكونوا مهاجمين ومعتدين على أحد، ويقتلون من أصحاب رسول الله من يقتلون، ويأسرون من يأسرون، وممن قتلوهم خبيب، الذي قال عند مقتله:

لقد جمع الأحزاب حولى وألّبوا قبائلهم، واستجمعوا كل مجمع فكلهم ابدى العداوة جاهداً على لأني في وثاق مضيع وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقرّبت من جذع طويل ممّنع وقد خيروني الكفر، والموت دونه وقد هملت عيناى عن غير مجزع ووالله ما أرجوا إذا مت مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي.

وقتل بنو لحيان حبيباً غدراً وصلبوه على جذع نخلة طويل؛ فهل يمكن أعتبار المسلمين في هذه الغزوة كانوا معتدين على أحد، أو مهاجمين لأحد، وهم عشرة مسالمون، ساروا في الطريق، فأسرتهم بنو لحيان، ومثلت بهم شر تمثيل.

وغزوة بئر معونة مثلاً - في السنة الرابعة - هل يمكن أن نعدها عدواناً من المسلمين أو من الرسول بينما كان عامر بن مالك ملاعب الأسنة المشرك يلح على رسول الله أن يبعث معه بعض المسلمين لدعوة قومه الى الاسلام، وتعهد بأن يحميهم، ففعل الرسول فسمع عامر بن الطفيل بجماعة المسلمين الذين قدموا الى نجد للدعوة للاسلام، فاستنفر القبائل، فتجمعت واجتمعوا على المسلمين فقتلوهم ببئر معونة، واستشهد المسلمون جميعاً إلا كعب بن زيد من بني النجار، الذي جرح، وعاش حتى مات في غزوة الأحزاب.

وغزوة مؤتة لحدود الروم في الشام هل يمكن عدها عدواناً، مع أن الرسول صلوات الله عليه، كان قد بعث الحارث الأزدي سفيراً الى ملك بصري بالشام، فقتله شرحبيل الغسّاني

دون ما جريرة، فكانت غزوة تبوك بسبب ذلك.

وغزوة بدر لا يمكن عدها عدواناً، والرسول يرى أن يهاجم قافلة تجارة لقريش، لأن قريشاً صادرت أموال المسلمين في مكة، وحرمتهم من أموالهم وديارهم وتجاراتهم وكل ما يمتلكون، ولأن قريشاً خرجت إلى بدر مهاجمة معتدية، حتى إذا انتصرت في بدر سارت الى المدينة تهاجمها وتقضي على المسلمين فيها.

الغزوات النبوية كلها كانت دفاعاً عن النفس والعقيدة ولم تكن عدوانًا على أحد، ولم تكن مبادأة بالحرب، ولم تكن رغبة في شيء من أغراض الدنيا.

-٥-

ويقص الذهبي قصة هذه الغزوات كلها سنة بعد سنة فالسنة الأولى بعد الهجرة لم تقع فيها غزوات، إنما كانت سنة الهجرة، وبناء المسجد الشريف، وفي السنة الثانية تقع غزوة الأبواء، وبدر الأولى ثم غزوة بدر الكبرى وغزوة السويق، وغيْرها.

وفي السنة الثالثة تقع غزوة بني قينقاع، لأن اليهود عبثوا بعرض عربية، فدافع عنها مسلم فقتلوه، فغضب المسلمون، وحاصروا اليهود من بني قَيْنُقَاع. وكذلك تقع غزوة بني النضير في السنة نفسها، وبنو النضير طائفة من اليهود بناحية المدينة أيضاً، وكانوا يعدون لحرب رسول الله، بمؤامرة دبرها معهم المشركون في مكة.

وفي السنة الرابعة تقع غزوة الأحزاب، وهي معروفة؛ وغزوات أخرى بعدها.

وفي السنة الخامسة تقع غزوة دومة الجندَل على أطراف الشام، لأن الروم جمعوا جموعاً كبيرة هناك لمهاجمة الرسول، ثم غزوة بني قريظة، وهم جماعات من اليهود كانوا قد دبروا مع قريش المؤمرات ضد رسول الله، وظاهروا المشركين وأعانوهم على حرب رسول الله ﷺ، وفي السنة السادسة كانت غزوة الحديبية، وفي السنة السابعة تقع غزوة خيبر وفيها اليهود الذين كانوا يتآمرون على رسول الله مع قريش والمشركين. .وتقع كذلك في السنة الثامنة للهجرة غزوة فتح مكة، ثم غزوة حنين والطائف، وغزوة مؤتة، ثم كانت رسل النبي ﷺ الى الملوك والأمراء في كل مكان.

وفي السنة التاسعة والعاشرة جاءت الوفود من أنحاء جزيرة العرب إلى رسول الله ﷺ، تعلن خضوع القبائل العربية، ووفودها لأول مرة مع رسول الله ﷺ.

-٦-

ويقص الذهبي في كتابه كل ذلك وغيره في إفاضة وسعة تحليل، وفي استيعاب ودقة وعمق ووفور مصادر.

والذهبي يستقصي الروايات ويناقشها ويصحح أخطاء بعضها إن كان هناك خطأ، ويقف دائماً مع أقوى الروايات.

ويعتمد الذهبي في تأريخه للحوادث على أوثق المصادر من كتب السنة، والتأريخ والمغازي والطبقات والسيرة النبوية مناقشاً ومحللاً ومرجحاً في عقلية مؤرخ وإحاطة محدّث، وإستقصاء باحث، واهتمام عالم والتزامه بالمنهج العلمي التاريخي الرفيع.

في غزوة الحديبية مثلاً يستوثق مصادر من الصحيحين ومن رواية الزهري عن عروة بن الزبير عن المِسْوَر بن مَخْرَجة وفي عدد المسلمين في هذه الغزوة يروى عن ابن مخرجة أن رسول الله خرج عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، ويذكر رواية شعبة عن عمرو ابن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى أن عدد المسلمين يومئذ كان ألفاً وثلاثمائة، ويذكر رواية جابر أن عددهم كان خمس عشرة مائة، ورواية أخرى عنه أن عددهم كان أربع عشرة مائة، ويقول: وكأنَّ جابراً قال ذلك على التقريب، ولعلهم كانوا أربع عشرة مائة كاملة تزيد عدداً لم يعتبره أو خمس عشرة مائة تنقص عدداً لم يعتبره والعرب تفعل ذلك كثيراً، كما نراهم قد أختلفوا في سنّ رسول الله ﷺ، فاعتبروا تارة السنة التي ولد فيها والتي توفي فيها، فأدخلوهما في العدد، واعتبروا تارة السنين الكاملة وسكتوا عن الشهور الفاضلة - أي الزائدة - ويبين هذا أن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا غزوة الحديبية - بيعة الرضوان -؟ قال: أخمس عشرة مائة، قلت: إن جابراً قال: أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله، لقد وهم - أي ظنّ ذلك وأخطأ في ظنه - هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة، أخرجه البخاري.

هذا الاستقصاء العجيب في ذكر الروايات يدل على أننا أمام مؤرخ جليل، وعالم عظيم، وبحسبنا أن يقول عن كتابه هذا «تاريخ الاسلام» معاصر له مثل ابن الزَّمْلكاني: هذا الكتاب جليل، وهو كتاب علم، ويقول فيه حاجي خليفة (١٠١٧-١٠٦٧هـ): هو تاريخ كبير على ترتيب السنوات، جمع فيه بين الحوادث والوفيات، ويقول عنه ادوارد فانديك (١٨٤٦-١٩٣٧؟) في كتابه «إكتفاء القنوع بما هو مطبوع»: «الكتاب في التاريخ السياسي وطبقات العلماء لغاية سنة (٧٠٠هـ)، وقيل: بل لغاية سنة (٧١٥هـ)، وجعله على جملة أجزاء، ورتبه على سبعين طبقة، كل طبقة عشر سنين.

-١-

«بدائع الزهور في وقائع الدهور» للمؤرخ المصري الكبير محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، من أشهر موسوعات التاريخ المصري، ومن أهم ما خلفه المؤرخون المصريون من تراث جليل على طول الأجيال.

وقد بدأ ابن إياس التأليف فيه عام (١٤٩٣م-٨٩٩هـ)، وانتهى من الجزء الرابع منه في اوائل عام ١٤٩٥م - ٩٠١هـ، وبعد نحو ثلاثة عشر عاما كان قد انتهى من الجزء الثامن (٩١٣هـ-١٥٠٧م)، وبعد ذلك بثمانية أعوام كان قد انتهى من الجزء العاشر من هذه الموسوعة التاريخية، أي عام (٩٢٢هـ - ١٥١٦م)، وهو عام دخول العثمانيين مصر، وبعد ذلك ستة أعوام أتم كتابة الجزء الحادي عشر، أي عام (٩٢٨هـ - ١٥٢٢م)، وبدأ في كتابة الجزء الثاني عشر منه، وهو في السادسة والسبعين من عمره، ولكنه مات في العام التالي، أي عام (٩٢٩هـ - ١٥٢٣م)، ولم يوقف على شيء من هذا الجزء «الثاني عشر»، ولا يدرى: هل بدأ فيه وكتب منه شيئاً أو لم يكتب فيه على الاطلاق.

وصار «بدائع الزهور» مصدراً كبيراً من مصادر التاريخ المصرى، وتداوله النساخ بالكتابة وبالاختصار أحياناً.

وطبع الكتاب في مطبعة بولاق عن نسخة مختصرة في أواخر القرن التاسع عشر، ثم نشرت جمعية المستشرقين الألمان في استنبول ثلاثة أجزاء منه ضاعت خلال الحرب

العالمية الثانية، ونشرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في القاهرة جزءاً من هذه الموسوعة، حققه د. محمد مصطفى زيادة وعملت وزارة الثقافة المصرية بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم وعدة هيئات علمية في مصر والخارج على نشر الكتاب نشراً علمياً محققاً كاملاً، وطبعت دار الشعب مختصراً للكتاب في عدة إجزاء صغيرة، بدءاً من عام (١٩٦٠).

وابن إياس ولد في القاهرة عام (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، وتوفي فيها عام (٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م) عن سبعة وسبعين عاماً هجرياً، أو خمسة وسبعين عاماً ميلادياً، وهو من أسرة جركسية الأصل، فهو من الطبقة المملوكية الأميرية، وأسرته يرجع تاريخها في مصر الى نحو عام (٧٧٥هـ)، وبمرور الزمن أصبحت مصرية في جميع جوانب حياتها، فلقد جاء جده لأمه أزدمر العمري الناصري رقيقاً مملوكاً للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وصارت نسبته إليه، وتوفي عام (٧٨٥هـ - ١٣٦٦م) - وجده لأبيه وهو أياس الفخري كان من المماليك الجراكسة الذين جلبهم السلطان برقوق، ونسبوا اليه.

ووالد ابن إياس، وهو أحمد بن إياس كان من الطبقة المملوكية التي تشمل أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة، وهي طبقة على هامش المجتمع المملوكي، وتسمى «فرقة الأولاد الناس»، وكان أحمد بن إياس مشهوراً في طبقته، كثير الاتصال بأمراء الدولة وكبار المسؤولين فيها، وكان ابنه شيخ المؤرخين واحداً من خمسة وعشرين ولداً هم أخوته ما بين ذكور وأناث وقد ماتوا في حياة والده ما عدا ابنه المؤرخ وأخاً له اسمه يوسف وبنتاً واحدة.

وحياة ابن إياس غامضة فلم يكتب هو عن حياته شيئاً، ولم يكتب عنه أحد من المؤرخين ترجمة تذكر، وحين بلغ الخامسة من عمره كانت القسطنطينية قد فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح عام (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م)، واحتفلت القاهرة بهذا الحدث الإسلامي الكبير، فأقيمت الزينات والافراح فيها ثلاثة أيام متوالية، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي أينال الذي كان شيخاً كبيراً في الرابعة والسبعين من عمره آنذاك والذي تولى بعده السلطان خشقدم، وثم جاء بعده السلطان قايتباي المحمودي «١٤٦٨م: ٨٧٢هـ-١٤٩٦م: ٩٠١هـ»، وبعد ذلك بسنوات حكم السلطان الفوري عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م).

وقد قضى ابن إياس حياته عاكفاً على العلم، وعلى التبحر في التاريخ، وكانت مدرسة المؤرخين المصريين ذات شهرة كبيرة، ومن أعلامها في عصر ابن إياس: المقريزي، والسيوطي، والسخاوي، وابن تغرى بردى وابن طولون، وابن الصيرفي، وخليل بن شاهين الصفوى، وسواهم. وكان من اساتذته من المؤرخين شيخه عبد الباسط بن خليل الحنفي. ولابن إياس كتب اخرى عدا بدائع الزهور منها:

- نزهة الامم في العجائب والحكم.
- مروج الزهور في وقائع الدهور.
- عقود الجمان في وقائع الازمان.
- نشق الأزهار في عجائب الأقطار انتهى من تأليفه عام دخول العثمانيين مصر «٩٢٢هـ / ١٥١٦م».

-٢-

و «بدائع الزهور» من المصادر الأصلية في تاريخ عصر السلطان الغوري وقصة الغزو العثماني لمصر. وهو في ذلك يعد مصدراً فريداً في بابه، فقد سجل الأحداث التي شاهدها بنفسه في هذه الفترة الحافلة بالأحداث من تاريخ مصر، وكانت قمة المأساة في هذه الفترة هي هزيمة مصر العسكرية في «مرج دابق» عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) أمام الجيش العثماني، بعد خيانة عسكرية في صفوف الجيش المصري، سقط فيها الغوري ميتاً ولم يعثر على جثته، ودخل سليم الأول العثماني القاهرة، وبددت الامبراطورية المصرية العظيمة التي أقامها المماليك والمصريون بدمائهم وأرواحهم منذ أن هزموا التتار في عين جالوت، واخرجوا الصليبيين من سواحل مصر والشام، وحموا العالم الاسلامي كله من الدمار.

وقد بدأت الأحداث في أواخر القرن التاسع الهجري واوائل القرن العاشر بطواف البرتغاليين حول افريقيا وفي المحيط الهندي ووصولهم إلى سواحل الهند، ثم هزيمة الاسطول المصري أمام الاسطول البرتغالي في جنوب البحر الاحمر ومداخل المحيط الهندي، واستيلاء البرتغاليين على مفاتيح التجارة العالمية من أيدى مصر، ثم بتهديد الجيش

العثماني لحدود مصر في الشمال حول أطراف الشام باستمرار، ونفذت ارادة الله الغالبة، وقضاؤه النافذ، ولا راد لقضائه. وضاعت أمبراطورية مصر الممتدة شرقاً نحو سواحل الهند وشمالاً في أطراف حدود الشام، ووضع العثمانيون أيديهم على مقاليد الأمور في كل مكان كانت مصر وجيش مصر واسم مصر فيه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ويسجل ابن إياس كل هذه الأحداث الدامية والدموع في عينيه، والأحزان في قلبه، والمأساة تتمثل دائماً في خواطره، وهو لا يعرف ماذا يكتب وماذا يقول؟

وفي مقدمة كتابه يقول ابن إياس في مطلع الجزء الأول منه:

«هذا جزء من كتابنا المؤلف في التاريخ الموسوم ببدائع الزهور في وقائع الدهور، ذكرت فيه ما وقع في القرآن العظيم من الآيات المكرمة في أخبار مصر، كناية أو تصريحاً، وما ورد فيها من الأحاديث الشريفة النبوية في ذكرها، وما خصت به من الفضائل، وما جاء فيها من المحاسن دون غيرها من البلاد، وما اشتملت عليه من عجائب وغرائب ووقائع وغير ذلك، ومن نزلها من أولاد آدم ونوح عليهما السلام، ومن دخلها من الأنبياء عليهم السلام ومن ملكها من مبتدأ الزمان، من الجبابرة والعمالقة والفراعنة واليونان والقبط وغير ذلك، ومن وليها في صدر الاسلام من الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، ومن وليها من طائفة الاخشيدية والفاطمية العبيدية، ومن وليها من بنى أيوب، وهم الأكراد، ومن وليها من ملوك الترك والجراكسة إلى وقتنا هذا وهو افتتاح عام أحدى وتسعمائة «٩٠١هـ» وهذا بالطبع تاريخ الانتهاء من تأليفه للجزء الأول من موسوعته - ومن كان بها من الحكماء، والعلماء والفقهاء، والمحدثين، والقراء ومن كان بها من الصلحاء والزهاد، ومن كان بها من الشعراء، وغير ذلك من أعيان الناس.

ويشيد المستشرق الانجليزي مارجليوث بأسلوب ابن إياس في تاريخه الكبير هذا، وبنهجه فى التفكير والنقد، مما ينم عن فردية واستقلال في الرأي، ومما لا يدانيه فيهما معظم المؤرخين..

ووطنية ابن اياس جعلته وهو يكتب عن العثمانيين في مصر، وعن تدميرهم لجيش مصر

وامبراطورية مصر يكاد يبكي، ويكاد يذرف الدموع حزناً على هذا المجد العظيم الذي بناه جيش مصر ببطولاته وتضحياته، ويذكر الكثير من أسماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم الى استنبول، ويشير الى ما أخذ من أموال مصر وكنوزها، ومن شحنهم على سفن الاسطول العثماني من العمال والفنيين وارباب الصناعات وغيرهم ليبنوا حضارة القسطنطينية في ظلال الراية العثمانية، والله غالب على أمره.

ويذكر ابن إياس أخبار العالم القديم، ثم البعثة المحمدية، وتاريخ الاسلام، وتاريخ الفتح الإسلامي لمصر، وابتداء دولة الإسلام فيها، ثم تاريخ الدولة الطولونية في مصر، والدولة الاخشيدية، فالفاطمية فالأيوبية، فابتداء دولة المماليك في مصر، فإذا ما وصل إلى السلطان بيبرس، بدأ يؤرخ الأحداث بالسنين على نظام الحوليات، من سنة لأخرى حسب الحوادث.

-٣-

يكتب ابن اياس عن سنة ٩٠١هـ «١٤٩٥-١٤٩٦م»، يقول:

«ختمها الله بخير، وهو أول القرن العاشر، وكان أول مستهلها بالأحد، وأول افتتاح العام بالأحد، ففي المحرم كان خليفة الوقت الإمام المتوكل على الله العباسي، وسلطان العصر الملك الاشرف أبو النصر قايتباي المحمودي الظاهري.

ثم يتحدث عن حكم قانصوه الغوري «٩٠٦-٩٢٢هـ: ١٥٠١-١٥١٦م» عاماً بعد عام، ويصف مأساة هزيمة معركة «مرج دابق» المشؤومة في شعبان من عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، ويعقب على ذلك بقوله: «وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر، غلت أيديهم عن القتال، وشخصت منهم الأبصار».

ثم يقول: ومات السلطان من شدة قهره، فلم يعلم له خبر، ولا وقف له على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلى، فكأن الأرض قد ابتلعته في الحال، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.. وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً فإنه ولي ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة للهجرة «٩٠٦هـ»، وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة (٩٢٢هـ).

ويقول ابن إياس في حزن عميق: «ولم يقع قط لملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة، بل إن تيمور لنك حارب أحد أجداده فلما حاربه أنكسر فأسره تيمور ووضعه في قفص حديد، ولم يقع لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة - النكبة - ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله بيد عدوه غير الغوري».

ويصف ابن إياس حزن القاهرة على اثر علمها بهزيمة مرج دابق، ويتحدث عن تولى الملك الأشرف أبو النصر طومان باي ابن أخي الغوري امور البلاد بعد عمه.

ثم يصف ابن إياس معركة الريدانية بين طومان باي وسليم الاول يوم الخميس التاسع عشر من ذي الحجة عام (٩٢٢هـ) وهزيمة طومان باي أمام جيوش سليم ودخول سليم القاهرة وما صنعه فيها من نهب وتدمير طيلة ثلاثة أيام مكللة بالسواد ويقول: أنفتحت للعثمانية كنوز الارض بمصر، من كل شيء جليل، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط في بلادهم، ولم يروها قبل ذلك، ومع ذلك أخذ طومان باي يعلن المقاومة في القاهرة، ويحارب جيوش سليم، الى أن كلَّ عزمه وعزم أعوانه، فهرب، ووقعت في القاهرة المصيبة العظمى التي لم يسمع بمثلها قط فيما تقدم من الزمان، وهي أنه لما هرب السلطان طومان باي صبيحة يوم السبت ثامن المحرم «٩٢٣هـ» أحرقت العثمانية جامع شيخو فاحترق سقف الايوان الكبير والقبة التي كانت به، وهجموا على الجامع الأزهر، وجامع الحاكم، وجامع ابن طولون وغيرها، وقتلوا من وجدوه من المماليك الجراكسة فيها، ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط، وقد وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولاكو، وهجم العثمانية على مقام الإمام الشافعي ونهبوا ما فيه، وكذلك مقام الليث بن سعد أيضاً نهبوا ما فيه وخرب ابن عثمان غالب الأماكن التي بالقلعة وفك وخامها ونزل به في المراكب إلى القسطنطينية ويتحدث ابن إياس عن مقاومة طومان باي والمصريين لسليم في الصعيد، وعن المعارك العديدة التي خاضوها مع الجيش العثماني، وعن فظائع سليم وغدره وسفكه للدماء، ونهبه للأموال، وعن قبضه على طومان باي وشنقه له على باب زويلة.

وهنا تتجلى أصالة شعب مصر ووطنيتهم، يقول ابن إياس: فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والاسف، وكان شجاعاً بطلاً تصدى

لقتال ابن عثمان، وفتك في عسكره، وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات، وهو في نفر قليل من عسكره، ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الابطال.

ويسجل ابن إياس في كتابه قصيدة له في رثاء دولة المماليك، ومنها:

أيـن الملـوك بمصـر مـن سـاداتهـا مثـل البـدور قضـى، وكـانـت أنـورا

يـا لهـف قلبـي للمـواكـب كيـف لا تلقـى بقلعتهـا الحـزينـــة عسكـــرا

-٤-

ويقول ابن إياسر: ومن العجائب أن مصر صارت نيابة «أي ولاية يتولاها نائب» بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوي ملك مصر الذي أفتخر به فرعون، وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر، وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ويتم أطفالها، واسر رجالها وبدد أحوالها، وأظهر أهوالها، وقد خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة، عدا ما غنمه من التحف، وغيرها حتى نقل منها الرخام الفاخر، وأخذ منها من كل شيء أحسنه، مما لم يفرح به أباؤه ولا أجداده من قبله أبداً.

وكذلك ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة، وكذلك عسكره فإنهم غنموا من النهب ما لا يحصى. وفي أثناء إقامة ابن عثمان «سليم» بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل، وبطل منها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها، وكانت مدة اقامته ثمانية أشهر إلا إياماً قلائل.

ويصف «سليما» وجيشه وصفاً يدل على صدق وطنيته، وعلى روح مصر العظيمة في نفسه.

وفي آخر الكتاب يقول ابن اياس: انتهى ما أوردناه في هذا التاريخ من الأخبار العجيبة، والوقائع الغريبة، وقد أشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية. وقد وقع لي من المحاسن في هذا التاريخ ما لم يقع لغيري من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة، وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير. ولله الحمد والمنة على ذلك.

-٥-

إن شخصية ابن اياس في تاريخه، وصدق أحكامه التاريخية، ودقة ملاحظته، وبعد فراسته وصدقها، وعمق فهمه للأمور ونقده لسياسة الملوك والامراء، لشيء مذهل حقاً. هذا الى صدق وطنيته، ووضوح مصريته، وعمق إيمانه بالشعب، ونضاله الواضح ضد الظلم والظلام والجبروت والطغيان.

وما أروع ابن إياس وهو يتحدث عن عظمة مصر حيناً، أو عن بعض مآسيها وأحزانها حيناً آخر.

فهو ولا شك جدير بتقديرنا وتكريمنا واحترامنا، ولقد مضى على وفاته اليوم أربعة قرون وثمان وسبعون عاماً ميلادياً «٤٧٨ عاما» وجدير بنا أن نذكر ابن إياس كل لحظة، وكل وقت هذا المصري الوطني العظيم، وذاك المؤرخ العالم الكبير، الذي خلدته موسوعته التاريخية هذه على امتداد الأيام والأجيال.

حسن المحاضرة
للسيوطي

يعتبر هذا الكتاب من أهم الموسوعات التاريخية التي كتبت عن مصر الاسلامية. فلم يفت مؤلفه الامام جلال الدين السيوطي أن يؤرخ فيه للفكر المصري وللآثار والخطط المصرية حتى عصره.

ويبدو أن الكتاب من تراث السيوطي الذي كتبه في أواخر حياته، ففي ترجمته لنفسه فيه يقول عن نفسه فيها يقول:

«وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر».

وإذا كان السيوطي قد توفى عام (٩١١هـ / ١٥٠٥م)، فلعله يكون قد ألفه في نهايات القرن التاسع الهجري وقبل وفاته بنحو أحد عشر عاماً أو يزيد قليلاً.

وقد طبع الكتاب في القاهرة طبعات كثيرة طبع بالحجر عام (١٨٦٠م-١٢٢٧هـ)، وطبع في مطبعة الوطن العربي عام (١٨٨٢م/٩٧٩٩هـ)، وطبع في مطبعة الموسوعات عام (١٩٠٣م/ ١٣٢١هـ)، وفي مطبعة السعادة عام (١٩٠٦م/ ١٣٢٤هـ)، وقد ذكر هذه الطبعات كلها سركيس في كتابه «١٠٧٨/١» ولكن الطبعة التي لدى هي طبعة الطبعة الشرقية، وعليها تاريخ الطبع وهو عام (١٣٢٧هـ)، وقد طبع في القاهرة طبعة حديثة عام (١٩٦٧) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ومن قبل طبع جزء صغير منه مع ترجمة لاتينية في خمسين صفحة في أو بسالا عام (١٨٣٤م) باهتمام ترنبرج.. وفي مكتبة جامعة الرياض نسخة خطية منه برقم (١٠٥٦)، تم نسخها عام (١٠٠٦هـ) وتقع في (٢٨٣) ورقة.

آية في سرعة الكتابة:

وللسيوطي أثار كثيرة في التاريخ، من مثل كتبه: تاريخ الخلفاء، وتاريخ السلطان الأشرف قايتباي، وتاريخ الصحابة، وتاريخ أسيوط، ومن أجلها كتابه «حسن المحاضرة».

وله في التراجم لأعلام الثقافة العربية الإسلامية كتب كثيرة من مثل: طبقات المفسرين، وطبقات الحقائق، وطبقات الاصوليين، وطبقات الشافعية، وطبقات الاولياء الذي سماه «حلية الأولياء»، وطبقات الكتاب، وطبقات شعراء العرب، وطبقات النحويين، ومناقب أبي حنيفة، ومناقب مالك، و«نظم العقيان في اعيان الأعيان» الذي يحتوي على مائتي ترجمة لأعلام عصره، ونشره فيليب حتى، وله كذلك: الرحلة الملكية، والرحلة الفيومية، والرحلة الدمياطية الى غير ذلك من تراثه الذي يتصل بالتاريخ.

وقد عاش السيوطي حياته كلها وهو يؤمن بوطنه العظيم، مصر الخالدة، إيماناً كبيراً، ويؤمن بحضارتها الفكرية والمادية، ويؤمن بتاريخها وعروبتها واسلامها إيماناً راسخاً.

وكان السيوطي مولعاً بقراءة التاريخ المصري، ومتأثراً بمدرسة المؤرخين المصريين الذين عاشوا في القرن التاسع الهجري خاصة، والذين عاشوا قبل ذلك عامة، وكان فيه انطباعات كثيرة عن فلسفة ابن خلدون للتاريخ، وكان ابن خلدون قد هاجر من تونس الى القاهرة عام (١٣٨٢هـ)، وأقام فيها، وألقى محاضراته في الجامع الأزهر وفي المدرسة القمحية وغيرهما، وتوفي في القاهرة عام (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). كما تأثر السيوطي بالمقريزي، وابن حجر وغيرهما من أعلام المؤرخين في القرن التاسع وكان من بينهم معاصر السيوطي، المؤرخ ابن إياس، صاحب كتاب «الضوء اللامع» في أعيان القرن التاسع.

وكان السيوطي من الأعلام الكبيرة التي عاشت جل حياتها في القرن التاسع الهجري «٨٤٩-٩١١هـ: ١٤٤٥-١٥٠٥م»، وكان والده من كبار علماء عصره وقضاته، وكانت أسرته تنتمي في أصولها البعيدة الى أصول بغدادية، وهاجرت الى مصر في عصر الدولة الايوبية على وجه التقريب، ولعل مما يؤيد هذا تقرب هذه الاسرة إلى الخلفاء العباسيين في القاهرة، ونجد السيوطي يجعل عنوان كتاب من كتبه «المتوكل» نسبة الى الخليفة العباسي المتوكل على الله في القاهرة، وقد ولى أبوه مشيخة الجامع الشيخوني في القاهرة، وتولى السيوطي نفسه كذلك تدريس الفقه فيه أيضاً، كما تولى منصب المشيخة في المدرسة الشيخونية، وهو المنصب الذي كان يشغله أبوه من قبل، كما شغله أيضا أستاذه الكمال بن الهمام الحنفي «٨٦١هـ».

وتولى السيوطي كذلك منصب الاستاذية في الحديث والفتوى في الجامع الطولوني، ودرس الحديث بالخانقاه «بيوت الصوفية» الشيخونية، وتولى مشيخة التصوف بمقبرة برقوق الناصري، ثم مشيخة المدرسة البيبرسية، وهي أكبر خوانق القاهرة آنذاك، وأكبرها أوقافاً في عصره.

وعاش السيوطي حياته كلها مع الكتاب والتأليف والتدريس والفتيا، ومع تلاميذه ومريديه، ولكنه في العشرين سنة الأخيرة من حياته أعتزل الناس، ولزم بيته للتأليف والكتابة والقراءة، وكان من ثمرة ذلك كله كتبه الموسوعية الكبيرة في مختلف فروع الثقافة الاسلامية التي عد من أئمتها وروادها الكبار، وقد بلغت مؤلفاته ستمائة كما يذكر ابن اياس المؤرخ الكبير، وذكر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» أن مؤلفاته بلغت حتى وقت تأليفه لهذا الكتاب ثلاثمائة.

ويذكر بروكلمان أنها تبلغ أكثر من أربعمائة، وأحصى له المستشرق فلوكل (٥٦١) مؤلفاً، وقد تكون بعض مؤلفاته وريقات قليلة ككتابه «المتوكل» مثلاً، وقد تكون أجزاء كثيرة ضخمة ككتابه «الدر المنثور». وغيره.

ويقول تلميذه الداودي «٩٤٥هـ» الشافعي المحدث العلامة في انبهار بعظمة شيخه السيوطي: «كان السيوطي في سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله».

رأس المائة التاسعة:

وليس في العالم من بلغ ما بلغه السيوطي في كثرة المؤلفات سوى «رامون قول» الإسباني أحد كتاب العصور الوسطى الذي بلغت مؤلفاته نحو الخمسمائة، وقد كتب في الفقه والحديث والتفسير، وعلوم العربية، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، والتراجم، والرحلات، والأصول، وابتكر علم أصول اللغة، وغيرها.

وانتشرت مؤلفاته في العالم الإسلامي كافة، وأقبل عليها الطلاب والعلماء والدارسون بشوق ولذة، واعتمد على العقل والنقل، وإضافة إضافات كثيرة وجديدة إلى ما سبق إليه أسلافه من العلماء وكان يعد نفسه المبعوث الالهي في القرن التاسع الهجري، ليجدد للأمة

الاسلامية دينها، مصداقاً للحديث الشريف: «أن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها».

ومن عظمة إيمان السيوطي بالفكر المصري الاسلامي أنه قال: «ومن اللطائف أن المبعوثين على رأس أكثر القرون مصريون عمر بن عبد العزيز في المائة الاولى، والشافعي في الثانية، وابن دقيق العيد «٧٠٢هـ» في السابعة، والبلقيني «٧٩١-٨٦٨هـ» في الثامنة، ثم استدرك السيوطي الذي يرى نفسه هو امام علماء المسلمين في القرن التاسع الهجري، فقال: «وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر»، وهو بذلك يعني نفسه..

وفي مقدمة كتاب «حسن المحاضرة» يذكر مصادر كتابه العديدة، من مثل: فتوح مصر لابن عبد الحكم، وفضائل مصر للكندي، وتاريخ مصر لابن زولاق، وتاريخ مصر لابن يوسف، والخطط للمقريزي، والمسالك لابن فضل الله، والإصابة لابن حجر، ومرآة الزمان لسبسط ابن الجوزي، وتاريخ الاسلام للذهبي، والعبر للذهبي كذلك، والبداية والنهاية لابن كثير، وغيرها من مختلف المصادر.

الوظائف السياسية في عصره:

وفي صدر المقدمة يقول السيوطي: «هذا كتاب سميته «حسن المحاضرة، في أخبار مصر والقاهرة»، أوردت فيه فوائد سنية، وغرائب مستعذبة مرضية، تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للوحيد نعم الأنيس».

ثم يتحدث السيوطي في الجزء الأول من الكتاب عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ورد فيها ذكر مصر، تنويها بها، وتشريفاً لها، ثم يتحدث عن تاريخ مصر القديمة قبل الفتح العربي لها، مما أطلع عليه من روايات ونصوص للمؤرخين من قبله، ويتحدث عن الفتح الاسلامي لها طويلاً، ثم يذكر امتدادات الفتح لكل أقاليمها، ومن دخل مصر من الصحابة، ومن التابعين، ومن تابعي التابعين. ويفيض في ذكر عظمة التاريخ الفكري والعلمي لمصر، فيتحدث عمن ظهر في مصر من الأئمة المجتهدين، ومن رواة الحديث

وحفاظه، ومن المحدثين، والفقهاء، وأئمة القراء، والأعلام في العربية، ومن نبغ فيها من الفلاسفة والأطباء والمهندسين وغيرهم.

وفي الجزء الثاني يتابع الحديث عن وطنه العظيم مصر، فيتحدث عن الجوانب السياسية، وعن أمراء مصر وملوكها منذ الفتح الإسلامي إلى عصره، ليذكر ولاة مصر وملوكها من الفاطميين، والأيوبيين، وسلاطينها من المماليك، والعلماء العباسيين الذين جلسوا فيها على عرش الخلافة العباسية في القاهرة.

ويتحدث عن الوظائف السياسية في عصره وعن قضاة مصر، وعن آثارها الاسلامية: جامع عمرو، وجامع ابن طولون، والجامع الازهر، وغيرها، كما يتحدث عن المدارس العلمية في القاهرة، وعن الآثار المصرية وعن النيل، والروضة، والمقياس والخليج المصري، وغيرها من مختلف الآثار والمشاهد والأحياء.

والسيوطي يكاد يجعل كتابه في وصف الحياة العلمية والفكرية في مصر الاسلامية، وفي تاريخها السياسي منذ الفتح الاسلامي، وفي آثارها ومدارسها ونيلها وأحيائها، وكل ما يتصل بها سياسياً وفكرياً وحضارياً.

عجائب لا يصدقها عقل:

والكتاب موسوعة كبيرة في التاريخ المصري، وهو مصدر مهم للمؤرخين منذ تأليف الكتاب إلى اليوم، والسيوطي فيه مفتون بمصر: فكراً، وطبيعة، وآثاراً.

نقرأ له في آخر الكتاب وهو يقول: «وكنت أبيت بعض الليالي في الفسطاط على ساحلها، فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل، أما سور هذه الجزيرة - أي الروضة - الدري اللون، فلم ينفصل عن مصر، وفي داخله من الدور السلطانية ما أرتفعت إليه همة بانيها، وهو من أعظم السلاطين همة في البناء، وأبصرت في هذه الجزيرة - الروضة التي كان يقيم السيوطي فيها، وكان منزله بها - إيواناً لجلوسه لم تر عيني مثالاً له، ولا يقدر ما أنفق عليه، وفيه من الكتابة بصفائح الذهب والرخام الأبنوسي والكافوري ما يذهل الأفكار،

ويستوقف الأبصار، وقد تفرجت كثيراً في طرق هذه الجزيرة، فقطعت بها عشيات مذهبات، لا تزال لأحزان الغربة مذهبات».

وينقل السيوطي عن علي بن سعيد صاحب كتاب «المغرب» أن الخليفة الفاطمي الآمر بنى فيها لزوجته البدوية التي هام في حبها بناء شبيهاً بالهودج، كما يذكر أن قلعة الروضة كانت عمدها الفخمة منقولة من مراكز الآثار في مصر، وأن السلطان قلاوون قد أخذ أعمدة هذه القلعة ليبنى بها المارستان والقبة والمدرسة المنصورية، وكذلك فعل ابنه السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. والسيوطي في كتابه مفتون بمصر وبطبيعتها الجميلة، ونيلها الساحر، والآثار المصرية ليس مثلها، وعجائبها لا يصدقها عقل.

ويذكر أن بمصر من المدارس والزوايا وبيوت الصوفية «الخوانق» والعمائر الجليلة الفائقة المعدومة المثيل، المفروشة بالرخام، المسقوفة بالاخشاب المدهونة الملمعة بالذهب واللازورد ما لا يحصى.

وينقل السيوطي عن الجاحظ أن عجائب الدنيا ثلاثون: عشرة منها في بلاد الدنيا، وعشرون في مصر، ومنها الهرمان.

ويقول عن الأهرام: إنها أطول بناء واعجبه وليس على الأرض بناء أطول منه.

ويذكر منارة الاسكندرية العجيبة، فيقول: ويقال: إن الذي بنى منارة الاسكندرية قليوبطرة الملكة «كليوباترا».

ويروى أنه في عام (٢٤٤هـ / ٨٥٩م) اتفق عيد الأضحى وعيد الفطر لليهود وعيد الشعانين للنصارى في يوم واحد.

مصر كما يذكر السيوطي ذكرت في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعاً، كما ذكرت في الحديث النبوي الشريف مرات كثيرة.

وفي اعتزاز كبير بمصر يذكر السيوطي من دخل مصر من الانبياء، ويتحدث عن معجزات الفتح الإسلامي لمصر حديثاً طويلاً ويمزج السيوطي في كتابه بين الحقائق التاريخية

والاساطير المروية التي تخدم التاريخ، فيذكر نبوءة كاهن مصرى لعمرو ابن العاص بأنه سيملك مصر.

ويذكر السيوطي أن القبط الذين كانوا بمدينة «الفرما» حين قدوم عمرو بجيشه الاسلامي كانوا يومئذ لعمرو أعواناً، ويذكر أن القبط كان منهم معظم الجند في جيش مصر قبيل الفتح العربي لها، ولاشك أن مثل هؤلاء إذا كفوا عن الحماس في قتال جيش عمرو كان ذلك مدعاة للنصر الكبير الذي ناله القائد العربي المسلم عمرو بن العاص بفتح مصر.

الفكر المصري البناء:

ومن عظمة الفكر الاسلامي في الفتح ما ذكره السيوطي عن حديث حاطب بن أبي بلتعة مع المقوقس أمير مصر من قبل قيصر الروم، وأن حاطباً قال للمقوقس: «ما بشارة موسى بعيسى الإ كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل».

ويذكر السيوطي أن سكان مصر في زمن الفتح العربي كانوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس «أي ستة ملايين». ويفيض في ذكر فتح الاسكندرية.

ويتتبع السيوطي تاريخ مصر بعد الفتح الاسلامي، مبيناً عظمة مصر، التي طبعت العرب الفاتحين بطباعها، واكسبتهم الروح المصرية الباهرة الأصيلة.

ويحدد السيوطي حدود مصر من رفح والعريش الى الفرما الى دمياط ورشيد والاسكندرية وبرقة على الساحل الذي يقع على ضفافه حوض البحر الابيض المتوسط الجنوبي.

ويذكر بناء القاهرة وسبب تسميتها بهذا الاسم بعد أن كان جوهر قد سماها المنصورية، فلما قدم المعز اليها غير اسمها وسماها «القاهرة».

ولقد عاش السيوطي في عصر المماليك الذين حكموا الدنيا، ودان لهم المشرق، وامتد نفوذهم من الهند الى ساحل المحيط الاعظم «الاطلس»، بعد هزيمتهم للتتار في عين جالوت، وبعد اجلائهم للصليبيين اجلاء كاملاً من سواحل الشام، وكانت مصر في أيامه بأصالتها وحضارتها وعظمتها ومجدها الكبير، وبامتلاكها لناصية السيطرة العالمية على

الشرق، أكبر قوة عسكرية في العالم، ولم يكن يضارعها على أيامه الا دولة آل عثمان التي فتحت جيوشها القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م).

وكان السيوطي هو أشهر علماء عصره، وهو مثال رائع للفكر المصري المتوثب البناء العامل من أجل استمرار الحياة والحضارة والتقدم والازدهار في بلاده.

كان الشعب المصري على أيامه يملك زمام التجارة العالمية، وقد جاء البرتغاليون مزاحمين لمصر ولسيادتها البحرية، ولتفوقها التجاري، حتى لقد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح فأخذت تجارة أوروبا تتحول الى هذا الطريق الجديد، وكان ذلك عاملاً كبيراً في بدء ظهور الأزمة الاقتصادية التي أضرت باقتصاد مصر وبتجارها وتجارتها العالمية.

وقد توفي السيوطي قبيل الغزو العثماني لوطنه باثني عشر عاماً، فلم يشهد الأحداث الدامية التي حدثت مصاحبة لهذا الغزو المدمر، الذي حطم الامبراطورية المصرية.

ونقل مصر من دولة لها السيادة على الشرق ولها مكانتها العالمية الكبرى الى دولة مغلوبة على أمرها، الخلافة الاسلامية تنتقل منها الى القسطنطينية، وكانت قبلا في القاهرة منذ عام (٦٥٩هـ)، بل كانت مصدراً من مصادر عظمة مصر وجلالها، حتى ليقول السيوطي في كتابه:

«وأعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وصارت محل سكنى العلماء، ومحط رجال الفضلاء، ومقصد الادباء والشعراء».

جسور على النيل:

لقد هزت حضارة مصر ومجدها وازدهارها في عصره وجدان هذا العالم الكبير، فكان كتابه «حسن المحاضرة» سجلاً رائعاً لعظمة مصر ومدنيتها ورخائها، ولازدهار الحياة الفكرية والعلمية والأدبية فيها، بل كان نشيداً ملحمياً رائعاً في وصف جلال مصر ومجدها وآثارها ومدارسها وعظمة الحياة العقلية فيها. كل ذلك مع حرص السيوطي حرصاً كاملاً على روح البحث، وحقائق العلم ومع المحافظة التامة على المنهج التاريخي الذي التزم به في الكتاب التزاماً كاملاً.

ومن الغريب أن السيوطي الذي توفي عام (٩١١هـ) في عهد السلطان قانصوه الغوري «٩٠٦-٩٢٢هـ»، والذي ألف كتابه «حسن المحاضرة» بعد عام (٨٨٨هـ) بقليل، يوالي كتابة الحديث عن ملوك مصر حتى عام (٩٢٨هـ)، أي حتى بعد دخول الجيش العثماني القاهرة، ويبدو أن هذه الزيادات التي كتبت وزيدت على الأصل الذي كتبه السيوطي نفسه هي من صنع أحد تلاميذ هذا الاستاذ المؤرخ العظيم.

ولا أنسى أن أذكر أن الجسور «الكباري» الموجودة بين مصر القديمة والروضة وبين الروضة والجيزة ليست بالأمر الجديد على العقل المصري، كانت هناك جسور كذلك على النيل في عهد السيوطي الذي يقول في كتابه: «كان فيما بين ساحل مصر والروضة جسر من خشب، وكذلك فيما بين الروضة والجيزة جسر من خشب يمر عليها الناس والدواب من مصر الى الروضة، ومن الروضة الى الجيزة، وكان هذان الجسران من مراكب مصطنعة بعضها بحذاء بعض، وهي موثقة «بالحبال»، ومن فوق المراكب الخشاب ممتدة، فوقها تراب، ولم يزل هذا الجسر قائماً، الى أن قدم المأمون، فأحدث جسراً جديداً، فاستمر الناس يمرون عليه، وكان عبور العساكر التي قدمت مع جوهر على هذين الجسرين. . ».

وأخيراً فكتاب «حسن المحاضرة» كتاب رائع حقاً، وهو من أمهات المصادر في تاريخ القاهرة خاصة وفي التاريخ المصري الاسلامي عامة، ويضيق المجال في استقصاء روائع ما اشتمل عليه من حقائق ومعلومات واحصائيات وتحليل ونقد ووصف لمظاهر الحياة المصرية في القرن التاسع الهجري العظيم.

حديقة الورد - كلستان

للسعدى الشيرازى

٥٩٥-٦٩٠هـ / ١١٩٩-١٢٩١م

-١-

كلستان، أو حديقة الورد، أو جنة الورد، أشهر كتب التراث الفارسي، وأكثرها تداولاً حتى اليوم، وقد طبع عشرات الطبعات، وترجم إلى سائر اللغات الحية في الشرق والغرب، حيث ظهرت أول ترجمة له في أوروبا بالفرنسية عام (١٦٣٤م)، ثم ظهرت ترجمة لاتينية له عام (١٦٥١م)، وترجمة هولندية في نفس العام،وترجمة انجليزية عام (١٧٧٤م)، وأخرى روسية عام (١٨٨٢م).

وأول ترجمة عربية للكتاب كانت ترجمة سقيمة صدرت عام (١٩٢١م) للخواجا جبرائيل ابن يوسف، وترجمه د. محمد هنداوي، كما ترجمه الدكتور أمين عبد المجيد بدوي أستاذ الأدب الفارسي في جامعة القاهرة سابقاً، ونشر في طبعة جيدة بعنوان «جنة الورد»، وهو من منشورات المركز العربي للصحافة في القاهرة.

وشهرة الكتاب ترفعه إلى مصاف التراث العالمي، والأدب الإنساني الرفيع، وهو مثل آثار شكسبير في عالميتها، وأدباء الفرس يعدونه آية في البلاغة والفصاحة، ويتخذونه مصدراً أدبياً وأخلاقياً وهو في لغتهم الأصلية حكايات وقصص منثورة، وبعضها منظوم، وفي ثناياها شعر عربي وفارسي، وقد قصد السعدي منه غرضين: الأول أدبي تعليمي، والثاني أخلاقي عملي، في أسلوب قصصي بليغ، وكما يقول السعدي في أسلوبه: إنه ينفع المتكلمين، ويزيد بلاغة المترسلين ويراه الإيرانيون النموذج الرفيع للأسلوب الأدبي، ويعتمدون عليه في التربية والتعليم لما حواه من حكم ومثل أخلاقية عالية، وهو عندهم أقوم كتب التربية بالقصص.

ألف السعدي - ابن شيراز - الكتاب عام (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) عام سقوط بغداد في قبضة التتار، بعد أن طوّف في بلاد الدنيا، وخالط الناس من شتى الطبقات، وذاق من الأيام حلوها ومرها، والسعدي فيه داعية إصلاح، ويتجاوز في بعض المواقف أفق الوطنية والقومية إلى آفاق إنسانية فسيحة.

والسعدي من أشهر الأدباء والشعراء الفرس، وقد عاش ما يقرب من مائة عام، مات والده وهو في الثانية عشرة من عمره، وتلقى ثقافته في الدين والتصوف والأدب والشعر في شيراز، وجاب البلاد، وكانت بغداد أولى مقاصده، حيث أتم في المدرسة النظامية دراسته، والتقى فيها قبل نكبتها بعلماء بغداد وأدبائها وشعرائها، وتأثر بأستاذين جليلين له، هما: شهاب الدين السهروردي الصوفي، وأبو الفرج الجوزي.

وبعد نكبة دار السلام طاف بالعالم الإسلامي عن طريق بلخ وغزنه والبنجاب، فزار كجرات ودهلى، حيث التقى فيها بالأمير خسرو الشاعر، وهناك تعلم الهندوستانية والأوردية، ثم رحل إلى اليمن والحبشة والحجاز، حيث أدى فريضة الحج، وذهب إلى الشام، واستمع إليه الناس في المسجد الأموي بدمشق، ونقل الماء في القدس، وساق المطايا في استانبول، وعلمته الأيام وتجاربها أن الإنسان الكامل هو الذي يهتم بآلام الناس أكثر مما يهتم بآلام نفسه، ولذلك كان ينتقد بعض الصوفية الذين يتخذون التصوف وسيلة للكسب والمعاش، فالمؤمن في رأيه يجب أن يوطن نفسه على أن ينفع الناس، لا أن ينتفع منهم.

وفي أثناء إقامة السعدي في الشام أسره الصليبيون في طرابلس، وبعد أن فُكّ أسره ذهب إلى حلب، فمصر وشمال أفريقيا وبلاد المغرب، كما طوف في بلاد آسيا الصغرى، والتقى في «قونية» بجلال الدين الرومي (٦٠٤-٦٧٣هـ / ١٢٠٨-١٢٧٣م)، ثم رجع إلى شيراز حيث عكف في موطنه على التأليف ونظم الشعر وكتابة الرسائل والتأملات الصوفية.

-٢-

وللسعدي ديوانان ترجما إلى العديد من اللغات؛ وهما: الجولتان، والبستان، الذي ترجمه د. هنداوي، والديوان الآخر ترجمه د. الشواربى بعنوان «أغاني شيراز».

وشعر السعدي من الشعر التهذيبي الأخلاقي، ويذكر فيه أفكار عصره الفلسفية والدينية، وفيه من الحكم والأمثال السائدة في أيامه الكثير.

وعن السعدي ظهرت دراسات عديدة: للدكتور عبد الوهاب عزام، وللشاعر السوري محمد الفراني، ومحمد موسى هنداوي الذي أطلق على السعدي لقب «شاعر الإنسانية»، وللدكتور إبراهيم الشواربي، وللدكتور إحسان عباس.

وتحتوي مكتبات استانبول والهند نسخاً خطية من كلستان السعدي نسخت في زمن يعاصر حياة السعدي نفسه.

-٣-

وكتاب «كلستان» حكايات أخلاقية صوفية صيغت في أسلوب نثري مسجوع، تتخلله أبيات وقطع شعرية وبعض أبيات عربية، والكتاب بعد المقدمة في ثمانية أبواب:

الأول: في سير الملوك.

والثاني: في أخلاق الدراويش.

والثالث: في فضيلة القناعة.

والرابع: في فوائد الصمت.

والخامس: في العشق والشباب.

والسادس: في الضعف والشيخوخة.

والسابع: في تأثير التربية.

والثامن: في آداب الصحبة.

ويقول السعدي في سبب تأليفه الكتاب: «ذات ليلة كنت أتأمل الأيام الخالية، وآسف على العمر التالف، وأثقب حجر درة القلب بماس الدمع».

وبعد تأملي هذا المعنى رأيت المصلحة أن أجلس في مجلس العزلة، وألم ذيلي من الصحبة، وأغسل الدفتر من لغو الأحاديث، حتى دخل صديق كان في الهودج أنيسي، وبالحجرة جليسي، ومهما أبدى السرور والمؤانسة لم أجبه، ولم أرفع رأسي عن ركبتي في جلسة تعبدي، فتألم، فأطلعه أحد أتباعي على جلية الأمر، قائلاً: إن فلاناً قد عزم على أن يعتكف بقية العمر، ويؤثر الصمت، وأنت أيضاً إن استطعت فامض لطيّتك، فقال: بالعزة العظيمة، والصحبة القديمة، لا أصعد نفساً، ولا أرفع قدماً، مالم يتكلم على عادته المألوفة، وطريقته المعروفة، واتفق لي مبيت الليل في البستان مع أحد الأخلاء، فقال: ما

الطريق والرأي؟ قلت: لأجل نزهة الناظرين، وفسحة الحاضرين أستطيع أن أصنِّف كتاب «جنة الورد» كلستان، واتفق لي في تلك الأيام القليلة تبييض بعض فصول في حسن المعاشرة، في عبارة تنفع المتكلمين، وتزيد بلاغة المترسلين، وفي الجملة كانت لا تزال هناك بقية بقيت من ورد البستان، عندما تم كتاب «كلستان»، ويكون التمام حقاً إذا يلقى الرضا من حضرة الملك سعد بن أتابك الأعظم».

وفي الكتاب أثر مصر واضح في بعض فصول الكتاب، من مثل حكاية هارون الرشيد وولاية مصر، والوزير، وذي النون المصري، وعام القحط في الإسكندرية.

وهذه أحدى قطع الكتاب القصصية الجميلة.

يقول السعدي:

كان بأحد الملوك مرض عضال، واتفقت جماعة من الأطباء اليونانيين على أنه ليس لهذا الداء دواء إلا مرارة آدمي يتصف بعدة صفات، فأمر الملك أن يطلبوه، فوجدوا ابن قروي بتلك الصفة التي ذكرها الأطباء، فاستدعوا أبويه وأرضوهما بِنِعَمٍ لا حدَّ لها، ورأى بعض أتباعه أنه يجوز إراقة دم واحد من آحاد الرعايا من أجل سلامة الملك فقصد الجلاد قتله، فوجه الفتى وجهه نحو السماء مبتسماً، وتمتم بشيء، فسأله الملك: ما موضع الضحك في هذه الحالة؟ فقال الفتى: لأن دلال الولد على الوالدين، والدعوة ترفع أمام القاضي، والعدل يطلب من الملك، والآن قد اسلمني أبواي للقتل بسبب حطام الدنيا، وأفتى المفتي بقتلي، ويرى السلطان مصالحه في هلاكي، لا وزر لي الآن غير الله -عز وجل-؛ عند من أستغيث من حولك وقوتك. عندك أنت أيضاً أطلب الإنصاف من قدرتك.

فانقبض قلب السلطان من كلامه وجال الدمع في عينيه، وقال: إن هلاكي أولى من إراقة دم بريء كهذا، وقبل رأسه وعينيه واحتضنه، وأنعم عليه بِنِعَمٍ لا حدَّ لها وأطلقه، وروي أن الملك شفى في نفس الأسبوع، وما زلت أفكر في ذلك البيت الذي قال فيّال «سائس الفيل» على شاطيء النيل: آه، إن حال النملة تحت قدمك -لو تعلم- مثل حالك تحت قدم الفيل.

الوحي المحمدي

-١-

«الوحى المحمدي» تأليف السيد محمد رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده، والرائد الأول في مدرسته، وصاحب مجلة المنار الاسلامية المعروفة، كتاب جليل ظهرت طبعته الاولى عام (١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م)، أي قبل وفاة مؤلفه بعامين، فهو آخر كتبه، ولذلك حمل روح السيد محمد رشيد رضا، وثقافته الواسعة، وعلمه الغزير وإلمامه الشامل بالشؤون الاسلامية، وبعد عام من هذا التاريخ صدرت طبعة ثانية له، وبعد عام آخر كانت الطبعة الثالثة قد ظهرت، وذلك قبيل وفاة السيد محمد رشيد رضا بقليل.

وقد ترجم الكتاب إلى الأوردية، والصينية، والفارسية، والتركية وذاع النفع به في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأولاه المستشرقون والباحثون والمفكرون المزيد من الاهتمام في كل مكان.

والسيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) ولد في لبنان، وترعرع في ربوعه، ثم هاجر إلى مصر في يناير (١٨٩٨م)، وأقام في القاهرة طيلة حياته، وتوفى فيها في يوم الخميس (٢٣ من جمادى الاولى عام ١٣٥٤هـ - ٢٢ من أغسطس ١٩٣٥).

واذا كان السيد محمد رشيد رضا قد فاته أن يلقى جمال الدين الافغاني، فإن الأقدار هيأت له أن يلقى الاستاذ محمد عبده تلميذ الافغاني ورائد المدرسة الاسلامية المجددة في العصر الحديث، وفي ذلك يقول السيد محمد رشيد رضا: لئن فاتني لقاء المعلم الأول (أي جمال الدين الافغاني) - فلن يفوتني لقاء المعلم الثاني - (يريد الامام محمد عبده) - مجلة المنار المجلد (٢١ ص ٣٧٧).

وحين وصل السيد محمد رشيد رضا القاهرة توجه في اليوم التالي الى دار الاستاذ الامام في عين شمس لزيارته، وطلب عون الإمام لإصدار مجلة باسم المنار، فبذل له الأستاذ الإمام كل عون، وصدرت مجلة المنار، وحمل العدد الاول منها تاريخ (٢٢ شوال ١٣١٥هـ

- ١٥ من مارس عام ١٨٩٨) أي بعد وصول السيد رشيد رضا الى القاهرة بشهر ونصف. وكانت وفاة الإمام محمد عبده في يوليو (١٩٠٥) حدثاً كبيراً في حياته، وظل رشيد رضا بعد ذلك يواصل جهاده الإسلامي، ورحل الى الحجاز وتركيا والهند، وزار سورية وفلسطين وطاف بأوروبا.

واشترك في مختلف جوانب النشاط الإسلامي في القاهرة إلى أن توفي الى رحمة الله.

وكانت صلته بالإمام محمد عبده هي العامل الأكبر في تغيير مجرى حياته، والإمام محمد عبده هو من هو.. وبحسبنا أن العقاد كان يلقبه بخليفة الغزالي - (ص ١١٩) كتاب «أنا» للعقاد.

وأول مرة لقي فيها رشيد رضا الإمام محمد عبده كانت في طرابلس الشام، وكان محمد عبده مقيماً فيها أثناء نفيه في حوادث الثورة العرابية، وكان ذلك نحو عام (١٨٨٣م)، ثم لقي رشيد رضا الإمام في طرابلس مرة ثانية عام (١٨٩٤م)، وكان محمد عبده قد ذهب مصطافاً وحل ركبه في طرابلس، وهي موطن السيد رشيد رضا ومسرح شبابه.

ويقرر رشيد رضا أن الإمام محمد عبده هو الذي نفخ فيه روح العمل للإسلام والعروبة، بالتبع لاستاذه جمال الدين الأفغاني.

وظل رشيد رضا يعمل في نشر تراث الإمام محمد عبده وفكره ودعوته إلى الإصلاح والتجديد طيلة حياته، إلى أن توفي الى رحمة الله.

-٢-

أما كتاب «الوحي المحمدي» فيقول رشيد رضا عنه: إنه صنفه في إثبات «الوحي المحمدي»، وأن القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه البشر من الإصلاح الديني والإجتماعي والسياسي والمالي والحربي (ص ٢٤ الوحي المحمدي - الطبعة السادسة التي صدرت عام ١٩٦٠ بالقاهرة) - وفي الكتاب يؤكد مؤلفه أن كل ما يحتاج إليه المسلمون من اصلاح، وتجديد حضارة وملك، متوقف فيهم على هداية القرآن الكريم.

وفي الكتاب يتحدث رشيد رضا عن إعجاز القرآن، وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الانساني من كل وجه، ويتحدث عن مقاصد القرآن الكريم في اصلاح البشر وتكميل نوع الانسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والأدبي والاجتماعي والمالي والسياسي مما أشتدت حاجة الشعوب والدول إليه في هذا العصر، ومما هو أكمل وأكفل للمصالح العامة، من كل ما سبق من تعاليم الانبياء، وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام، ودساتير الأمم والشعوب على اختلاف العصور.

وينفي الموقف بشدة شبهة الوحي النفسي، وشبهة أن يكون القرآن كلام محمد، فجملة تعاليم القرآن وتفصيلها هي فوق استعداد أي بشر، أمي أو متعلم، ولا يعقل إلا أن يكون وحياً من الله تعالى اختص رسوله العظيم به.

الحقوق التي منحها القرآن للمرأة سبقت جميع التشريعات العالمية:

ويقول المؤلف: إنه إذا فرضنا أنه يحتمل أن يكون شيء من هذه التعاليم من تأثير الوراثة والبيئة والتربية، أو أن يكون قد تسرب إلى ذهن الرسول بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم، ممن لقيهم في أسفاره القليلة، أو أن يكون قد فكر في حاجة البشر إلى مثلها، بما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم، فهل يعقل أن تكون تلك اللفتات الشاردة، وهذه الخطرات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقيق، والوفاء بحاجات الأمم كلها، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا، وعهد حب الظهور، الى أن تظهر في سن الكهولة، بهذه الروعة من البيان.. فتحدث هذه الثورة العربية، المغيرة لطباعها، المبدلة لأوضاعها بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها - راجع ص (٢٦٣ و ٢٦٤) الوحي المحمدي.

-٣-

من أجل هذه الغاية التي قصد اليها السيد محمد رشيد رضا بكتابه «الوحي المحمدي»، وبعد المقدمات التي صدر بها الكتاب، مما كان تصديراً للطبعات المتعددة من الكتاب.. جعل السيد محمد رشيد رضا كتابه **خمسة فصول**:

ففي **الفصل الأول** يتحدث عن تحقيق معنى الوحي والرسالة وحاجة البشر إلى الرسالات

السماوية المنزلة. . ويقرر أن العقل والعلم البشري لا يغنيان عن هداية السماء والرسالات، ويؤكد كذلك أن الوحي المحمدي فيه السعادة الدنيوية والاخروية - ص (٤٤) من الكتاب .

وفي **الفصل الثاني** يتحدث عن نبوة محمد ﷺ وميزتها على سائر النبوات، ويفند شبهة منكري عالم الغيب على ضوء الوحي المحمدي، وشبهة ما يطلقون عليه اسم الوحي النفسي، ويؤكد أن آية الله الكبرى هي القرآن. وينفى تأثير بيئة الحجاز التي نشأ فيها محمد ﷺ في أي جانب من جوانب الوحي المحمدي العظيم.

وفي **الفصل الرابع** يتحدث السيد محمد رشيد رضا عن الإعجاز القرآني، ويقرر أن هذا الإعجاز كان بأسلوب القرآن وبلاغته ويتحدث عن الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن الكريم في الأمة العربية. عامة، وإحداثه أكبر ثورة عالمية، وعن أثره في مشركي العرب عامة، وفي المؤمنين به منهم خاصة.

أما **الفصل الخامس** فقد خصصه للحديث عن مقاصد القرآن الكريم، وهو أطول الفصول.

ومقاصد القرآن التي ذكرها المؤلف عشرة:

المقصد الأول: هو بيان حقيقة أركان الدين.

والمقصد الثاني: بيان ما يجهله البشر من أمور النبوات والرسالات.

والمقصد الثالث: هو بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة، ودين العقل والفكر، ودين العلم والحكمة والفقه والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال.

والمقصد الرابع: الاصلاح الانساني الاجتماعي والسياسي والوطني.

والمقصد الخامس: شرح مزايا الاسلام العامة.

والمقصد السادس: الحديث عن الحكم السياسي الدولي في الإسلام.

والمقصد السابع: في الإصلاح المالي - أي الاقتصادي - الذي جاء به القرآن الكريم.

والمقصد الثامن: في بيان شريعة الحرب في الإسلام.

والمقصد التاسع: في بيان الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية، التي جاء بها القرآن الكريم ومنحها للمرأة، مما سبق به جميع التشريعات العالمية التي تنادي بالعطف على المرأة وحمايتها والتشريع لها.

والمقصد العاشر: من مقاصد القرآن الكريم: بيان منهج الاسلام في تحرير الارقاء.

كل ذلك هو جوهر ما تضمنه هذا الكتاب القيم من آراء وأفكار.

ومن أهمية الكتاب يتضح لنا سر ما يؤكده الشيخ رشيد رضا في كتابه من أنه كتاب يصلح للدعوة الى الاسلام - ص ١٠ - وأنه خير ما يدعى به الى الاسلام، وما يدحض شبهات الماديين والملاحدة - ص ١٤- ويتضح لنا سر حرصه الشديد على أن يكون هذا الكتاب في أيدى الشباب من الطلاب في كل مكان.

-٤-

والفصل الذي كتبه عن حماية الاسلام للمرأة واعطائها حريتها الكاملة.. فصل ممتع حقاً.

ومن هذا الفصل فقرات كثيرة رائعة ولننظر إلى ما يقوله السيد محمد رشيد رضا:

كان بعض البشر في أوروبا وغيرها، يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين، حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً، فجاء الاسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء على حد سواء بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات وكان أول من آمن بمحمد خاتم الانبياء، صلوات الله وسلامه عليه امرأة، وهي زوجه خديجة بنت خويلد. وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن، ثم بايع الرجال بما جاء فيها (ص ٢٤٦).

وفي فصل تحرير الاسلام للأرقاء يقول الشيخ محمد رشيد رضا: منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغي والعدوان، وقيده باسترقاق الأسرى في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد، وتقرير

المصالح، ومنع الاعتداء، ومراعاة العدل والرحمة، وهي شروط لم تكن قبل مشروعة عند المليين، ولا عند أهل الحضارة، فضلاً عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون - ص (٢٥٤) من الكتاب. وبهذه المناسبة أذكر أن مفكراً اسلامياً هو الاستاذ إبراهيم هاشم الفلالي كتب كتاباً ضخماً مطبوعاً عنوانه «لا رق في القرآن»، وهو ينفي بشدة أن يكون الإسلام قد أباح أي لون من ألوان الرق.

ويقول المؤلف السيد محمد رشيد رضا في كتابه كذلك عن القرآن الكريم:

من كان يؤمن بأن للعالم رباً عليماً حكيماً رحيماً مريداً فاعلاً مختاراً، فلا مندوحة ولا مناص له من الإيمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم، وتزكية أنفسهم، وإصلاح مجتمعهم من المقاصد التي كانت عامة لجميع أممهم، فيكون اتباع محمد ﷺ فرضاً الهياً عاماً كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] (ص ١٠٤) من الكتاب.

-٥-

وبعد فكتاب «الوحي المحمدي» حقاً كتاب الدعوة الى الاسلام، وكتاب مملوء بالأصول العامة لدين الله وخاتم الرسالات، والوحي المحمدي العظيم.

وكتاب يدافع فيه مؤلفه بقوة وغزارة علم وحرارة عاطفة، وسعة عقل، وشمول نظرة، عن الاسلام، والقرآن، وعن رسول الاسلام محمد ﷺ.

ويمتاز الكتاب بأسلوب الشيخ رشيد رضا الجدلي المملوء بالحوار العلمي الجاد الهادف، وبالحجاج العقلي الطريف في مقارعة خصوم الاسلام وأعدائه من كل مذهب وكل فكر..

والكتاب يرد فيه مؤلفه بقوة على شبهات منكرى الوحي الالهي.. ويشرح فيه بجانب ذلك كله مزايا الاسلام العظيمة: من تقريره للعدالة وللاخاء والمساواة وتحريمه الظلم، ومن

دعوته الى التكافل الاجتماعي، ومن كونه دين الوحدة الانسانية العامة، وحدة الأمة، ووحدة الدين، ووحدة التشريع، ووحدة الجنسية السياسية الدولية ووحدة القضاء، وعلى الاجمال: الوحدة الانسانية بالمساواة. ثم هو دين الوسط الجامع لحقوق الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة والدين الذي غايته الوصول الى سعادة الاولى والآخرة، وهو دين يسر ولا عسر فيه، ودين يكره الغلو في العادة وفي كل شيء، ودين قليل التكاليف سهل الفهم، بل هو دين الفطرة ودين العقل والعلم والقلب والوجدان والضمير، ودين يحرم التقليد ويدعو إلى الاجتهاد، ويفتح المنافذ أمام العقل الانساني ليبتكر ويجدد في الحياة.

وإذا كان أسلوب الشيخ محمد رشيد رضا أسلوباً علمياً أكثر منه أدبياً، فإني أقدر كل التقدير هذا الجهد الكبير، وهذا العمل المضني. وهذا العبء الشاق الذى حمله المؤلف، من أجل الاسلام، ورسالة الاسلام. . رحمه الله وأحسن إليه.

التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم

لأبي أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد العسكري

(٢٩٣-٣٨٢هـ / ٩٠٦-٩٩٣م)

عن «نادي القصيم الأدبي ببريدة» صدر هذا الكتاب التراثي القيم في مفتتح العام الهجري (١٤١٨هـ)، في طباعة ممتازة، وفي (٢٣٠) صفحة، جامعاً بين الدراسة والتحقيق لأستاذ جليل، هو الدكتور حمد بن ناصر الدخيل الأستاذ المشارك في قسم الأدب في كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

والدكتور الدخيّل من أساتذة جامعة الإمام البارزين، وهو مؤلف ومحقق للتراث، وله نشاطه العلمي والأدبي الواضح، وأصدر العديد من المؤلفات القيمة، إلى العديد من الكتب التراثية التي حققها، والتي تضعه في صدر المحققين للتراث العربي. ومن بين الكتب المحققة كتابنا اليوم، موضوع هذا الحديث.. «التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم» للعسكري - أبي أحمد.

وكلية اللغة العربية في الرياض تشهد نشاطاً أدبياً واسعاً يقوم به أعضاء هيئة التدريس فيها، ومن بينهم الدكتور: محمد بن سعد بن حسين، والدكتور محمد المفدي، وسواهما.

●●●

وكثيراً ما يشتبه أسم أبي أحمد العسكري باسم (ابن أخته في رأي وتلميذه) أبي هلال العسكري، المتوفى نحو عام (٤٠٠هـ) صاحب كتاب «الصناعتين» المشهور، حتى إن كتاب «التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم» قد سبق أن نشرته مطبعة الجوائب في الآستانة في طبعة خالية من التحقيق والتصحيح والتخريج والتعليق وذلك عام (١٣٠٢هـ-١٨٨٤م)، ونَسَبَتْه إلى أبي هلال العسكري تلميذ أبي أحمد؛ نسبة خاطئة.

وفي توثيق نسبة الكتاب إلى أبي أحمد العسكري - لا إلى أبي هلال - يقول الدكتور الدخيل في أمانة علمية تامة ما نصه - ص٩٣و٩٤ من الكتاب - قسم الدراسة:

«لم أجد ذكراً لكتاب «التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم» في كتب التراث التي عنيت بالترجمة لأبي أحمد، على الرغم من أنها ذكرت كثيراً من مؤلفاته. وكنت أتوقع أن أجد - على أقل تقدير - أدنى إشارة إليه في مؤلفات أبي أحمد، أو مؤلفات تلميذه أبي هلال العسكري التي وصلت إلينا. غير أني لم أظفر بشيء من ذلك، ولعل مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية هي أول من أشار إلى نسبة الكتاب لأبي أحمد العسكري، وذلك في (العدد ٧٣، ص ٣٨٩)، أعتماداً على مخطوطة الكتاب الموجودة في مكتبة عاشر أفندي التي ضمت إلى المكتبة السليمانية في إستانبول، والمخطوطة مسجلة برقم (٤٣٣)، ونقل ذلك بروكلمان (في تاريخ الأدب العربي ٢/ ٢٥١). وشارع في الأوساط الأدبية أن الكتاب لأبي هلال العسكري بناء على نشره مطبعة الجوائب بالقسطنطينية عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م) التي أصدرت الكتاب باسم أبي هلال. ويبدو أن اتفاق اسم العسكريين، وإثبات عنوانات بعض كتب أبي هلال على الورقة الأولى من المخطوطة أوقع القائمين على المطبعة في هذا اللبس.

ومما يزيد في ثبوت نسبة الكتاب لأبي أحمد أن مضمونه يقرر هذه النسبة ويؤكدها لسببين: الأول: روايته المباشرة في الكتاب عن شيوخه، كابن دريد والصولي. الثاني: أن طريقة تناوله للقضايا الأدبية تشبه الطريقة التي عرفناها في كتبه التي وصلت إلينا، ولا سيما كتابه «المصون في الأدب».

ويقول المحقق الدكتور الدخيّل تتمة لحديثه عن توثيق نسبة الكتاب إلى أبي أحمد (ص٩٥) من الكتاب ما نصه:

«وجدت لكتاب (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم) مخطوطة واحدة فقط في مكتبة عاشر أفندي التي ضمت إلى المكتبة السليمانية في إستانبول، ورقم المخطوطة في المكتبة الأخيرة (٤٣٣)، وهذا هو رقمها في مكتبة عاشر أفندي قبل ضمها إلى المكتبة السليمانية؛ كتب في الورقة الأولى من المخطوطة عنوان الكتاب، واسم المؤلف كاملين: (التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم) - صنعة أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري».

●●●

ويذكر المحقق د. الدخيّل من الأسباب التي دفعته إلى تحقيق الكتاب، أن موضوعه ذو صلة وثقى بالأدب المقارن، الذي لا يزال ميداناً واسعاً للدراسات الأدبية المقارنة في الأدب القديم والأدب الحديث، ومباحثه ومضامينه تعد متنوعة متجددة، لأنها تنبع من التواصل الأدبي بين الأمم، وهو تواصل مستمر ما وجدت أمم تنتج أدباً، فأحببت أن أقدم بين يدي دارسي الأدب المقارن والباحثين فيه، والمهتمين به، نصاً من نصوصه القديمة وأثراً لا يعرفه إلا قلة من الدارسين – ص ٢ من الكتاب – ويشير إلى ذلك أيضا في الصفحة: ٤.

ويفصل المحقق الدكتور الدخيل ذلك في الصفحات (٨١-٨٩).

● ● ●

ومؤلف الكتاب أبو أحمد العسكري، يفيض المحقق الدكتور الدخيل في «القسم الأول: الدراسة» من الكتاب في دراسة حياته وآثاره وثقافته وذكر شيوخه وتلاميذه، ويذكر في المراجع عنه أكثر من ثلاثين مرجعاً، كما يذكر من مؤلفاته التي وصلت إلينا أربعة كتب، من بينها الكتاب الذي نتحدث عنه، وكتاب «المصون في الأدب». ويذكر من مؤلفاته المفقودة ستة عشر كتاباً [٤٧-٦٢ من الكتاب]، من بينها: كتاب – البديع – الحكم والأمثال – ديوان شعره – ربيع الأداب – صناعة الشعر – علم المنطق – علم النظم – ما يتمثل به من الأبيات – نوادر اللغة – المختلف والمؤتلف.

غير أن الكتاب، وهو ذكر للمشتبه من أسماء الشعراء، قد نشرته مكتبة القدسي في القاهرة عام (١٣٦٩هـ) فحفظته لنا من الضياع.

● ● ●

يقول المحقق الدكتور الدخيل في مقدمته للكتاب: قدمت بين يدي الكتاب دراسة تناولت حياة المؤلف وشيوخه وتلاميذه وآثاره الموجودة والمفقودة، وثقافته وأدبه. . وجهدت أن تكون الدراسة وافية بالمطلوب، تقدم للقارىء صورة وافية عن حياته وثقافته وأدبه. . ثم اتبعت الدراسة عن المؤلف بدراسة عن الكتاب تناولت فيها الأدب المقارن عند العرب، وموضوع الكتاب وصلته بالأدب المقارن، ومضمونه، ومنهجه، ومصادر المؤلف، ونسبته

إليه، ومخطوطته، ومنهج التحقيق.. واقتضى مني ذلك أن أرجع إلى عشرات المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوعات الدراسة.

●●●

ويذكر المحقق أن أبا أحمد العسكري تحدث في كتابه عن بلاغة الشعر، فذكر أنها تتمثل في عذوبة الألفاظ، وتقريب المعاني، واتساق النظم، ورشاقة المعرض.. ثم وضح أن البلاغة مشتركة بين الأمم والألسنة، وأورد عدة تعريفات للبلاغة كما تراها بعض الأمم، ثم حدد مفاهيمها من خلال طرحه لآراء العلماء ورؤيته لمفهوم بلاغة الأداء.. وفي ميدان النثر لم يقتصر في ضرب الأمثلة والنماذج البليغة على الأدب العربي، بل تجاوزه إلى الأدب اليوناني، وما فيه من حكم وأقوال بليغة صائبة، فاستشهد بأقوال بعض الفلاسفة اليونانيين، ولم يكن أبو أحمد مجيداً للغة الإغريقية، ولكنه ينقل من الكتب العربية التي تعنى بتدوين آراء فلاسفة اليونان وحكمهم.. واستشهد أيضاً بنماذج من الأدب الفارسي، والحكمة الفارسية، وخلص بعد ذلك إلى أن بلاغة الأداء لها ثلاث حالات: حالة ينظر فيها إلى المعاني، وحالة ينظر فيها الى الألفاظ، وحالة مركبة ينظر فيها إلى الألفاظ والمعاني.. وختم الكتاب بفقر بليغة مختارة من كلام العرب وغيرهم، تتوافر فيها مزية الإيجاز.

ويذكر المحقق أن الكتاب قد وضع فيه مؤلفه نظرية لبلاغة الشعر والنثر وتحديد مفهوم البلاغة في الأداء من خلال رؤية فنية شاملة لم تقتصر على آراء العرب وحدهم، بل شملت آراء الأمم التي كان لها مجد أدبي؛ وضرب أمثلة كثيرة حية من الأدب العربي وآداب بعض الأمم، ليؤكد ما ذهب إليه من أن البيان والبلاغة غير مقصورين على العرب فحسب.. كما تبدو قيمته في المعلومات الأدبية النادرة التي لا تجدها في غيره من الكتب، من ذلك ما رواه من أن العرب تفردت بكثرة الأمثال، وأنه أثر عنها أربعة عشر ألف مثل [ص ٩٢ من الكتاب].

●●●

ويوضح المحقق الدكتور الدخيل منهجه في تحقيق الكتاب، فيقول: لم أجد للكتاب سوى مخطوطة واحدة، ولذلك التزمت بنصها في التحقيق، ما لم أجد تحريفاً أو تصحيفاً

وقع فيه الناسخ، ورأيت ضرورة مقابلة النسخة المنشورة على النسخة المخطوطة، وتبين لي من المقابلة أن النسخة المنشورة أعتورها شيء من التحريف والتصحيف والسقط . . ولإبراز نص الكتاب في صورة أكثر دقة وسلامة فقد رجعت إلى كثير من المصادر لمضاهاة نصوصه النثرية والشعرية وتخريجها؛ وترجمت لأعلامه، وحاولت قدر الإمكان أن أرتب المصادر والمراجع ترتيباً تاريخياً لتسهيل معرفة السابق من اللاحق، وإدراك الناقل من المنقول عنه [ص ١٠٥و ١٠٦ من الكتاب]، وقد ألحق المحقق الدكتور الدخيل بالكتاب بعض الأبيات المختارة من كتاب أبي أحمد «ما يتمثل به من الأبيات»، وهي اثنان وثلاثون بيتاً غير معزوة إلى أصحابها، فأسند كل بيت إلى قائله، ما عدا بضعة أبيات لم يعثر لها على قائل، وشرح الأبيات شرحاً وافياً.

ثم ختم الكتاب بفهرس للأمثال وآخر للتوقيعات، وفهرس للأشعار، ثم الأعلام، فالمصادر والمراجع، ثم فهرس للموضوعات.

إن الجهد الكبير الذي بذله الدكتور الدخيّل في تحقيق كتاب أبي أحمد العسكري «التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم» يعد بكل المقاييس العلمية عملاً متميزاً في مضمونه وكثرة مصادره ومراجعه التي بلغت (٢٥٥) مصدراً ومرجعاً؛ إلى ما حلى به هوامش الكتاب من ذكر لعشرات المصادر والمراجع في كل موضع وكل كلمة وعند ذكر أي علم. وهو مجهود يستحق من أجله كل تقدير وإعجاب.

ولو كانت هناك جائزة للتحقيق العلمي لاستحقها هذا الكتاب، الذي أبرزه المحقق من عالم النسيان في صورة مشرقة يقبل عليها القارىء والدارس بمزيد من الغبطة والامتنان للجهد الملموس في إخراج الكتاب وتحقيقه.

إن مدرسة التحقيق للتراث في العراق، التي يتزعمها اليوم هلال ناجي، ومدرسة التحقيق في مصر التي يتزعمها الآن رمضان عبد التواب؛ قد أصبح يضارعها مدرسة جديدة قامت في المملكة العربية السعودية، ونهضت بعبء تحقيق التراث تحقيقاً علمياً منظماً . . والفضل في ذلك كله راجع إلى جامعة الإمام والجهود الكبيرة التي تقوم بها من أجل خدمة العلم والعلماء.

هؤلاء والإسلام

ستة أعلام. . من كبار المفكرين ورجال الدين، يتحدث عنهم الاديب الاستاذ مأمون غريب في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي جعل عنوانه «هؤلاء والاسلام».

والاستاذ مأمون غريب بفكره الأدبي والإسلامي المتوهج، وبذوقه الدقيق المتألق، وبإبداعاته الكثيرة في الصحافة والنقد والتاريخ والاسلاميات والادب والشعر، يدفع القارىء دفعاً إلى متابعته والقراءة له، والاعجاب بما يكتب ويدبج.

وطاقة مأمون غريب الأدبية والفكرية فريدة في قدرتها حقاً، وهو ممن يعكفون على القراءة والكتابة عكوفاً طويلاً، فهو مدمن للكتاب، وعاشق للصحيفة، ومحب للمجلة، وهو ناقد للأدب والشعر، وهو مفكر مجيد، وأديب محلق، وكاتب مشرق الديباجة، رائع الاسلوب.

وكتابه «هؤلاء . . والإسلام» ستة فصول:

الأول: حوار مع الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق ورسالة الأزهر والاجتهاد.

والثاني: عن الدكتور عبد الرحمن بيصار وحوار حول رحلة عمره، ومشكلات العصر معه.

والثالث: عن توفيق الحكيم، وصنيعه في الكلام مع الله أو الى الله، أو على الاصح: في مناجاته لله عز وجل.

والرابع: عن دعاء مصطفى محمود.

والخامس: حوار مع د. زكي نجيب حول الفلسفة والفيلسوف.

والسادس: عن الطريق الى الله وان بدايته مجاهدة النفس.

في المقدمة يتحدث عن كتاب الله وسنة رسوله مصدرين اساسيين من مصادر التشريع، وعن الثوابت والمتغيرات في الشريعة، وعن بعض القضايا الفكرية في الاسلام.

الكتاب محاولة للاقتراب من مشاكل هذا العصر، والقضايا المستجدة فيه، وكيف تحل هذه المشكلات من مختلف الزوايا والمذاهب الفكرية، كما يقول المؤلف في مقدمة الكتاب.

الكتاب سياحة فكرية في عالم الفكر الاسلامي، الذي أضاء شعابه أجدادنا الاولون، ومن ثم وجدنا أمثال «أبو شبيت» ينوهون بالمسلمين بناة الحضارة، ويقولون: إن أول ورقة بيضاء للكتابة جاءت إلى أوروبا كانت عن طريق العرب.

ويمضي المؤلف في الاعتزاز بحضارة الاسلام والعرب خلال عصور الحضارة الاسلامية الزاهية، بأسلوب مشرق، في حديثه مع الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق يتحدث المؤلف عن الاجتهاد وأنه لم يغلق أبداً، وعن التقريب بين المذاهب، وتقنين الشريعة، ومؤتمر السيرة النبوية.

وفي حديثه مع الدكتور بيصار شيخ الأزهر الأسبق يتناول سيرة حياته، ومصير الحضارة الغربية، والشباب والانحراف والتطرف.

وفي حواره مع توفيق الحكيم يتناول وسطية الاسلام، والتعادلية والجوهر والعرض في مسائل الدين وقضاياه كما يتناول مشكلة الكلام مع الله التي أثيرت على صفحات الأهرام.

وفي حديثه عن د. مصطفى محمود يتحدث عن وجود الله، والتفسير العصري للقرآن والتصوف ومنابعه.

وفي حواره مع زكي نجيب محمود يتحدث عن حدود العقل، وعن الفلسفة والدين، ووجود الله.

وفي حواره مع د. أبو الوفا التفتازاني يتحدث عن التصوف كنزعة روحية، وعن الجذور الاسلامية للتصوف، وعن وحدة الوجود ووحدة الشهود، وعن الصوفية ومواقفهم في الدفاع عن الاسلام وغير ذلك.

الكتاب مشوق جداً، وقراءته مفيدة كل الفائدة لكل مسلم وكل مثقف.

إنه صورة لمشكلات العصر وقضاياه مع الاسلام وفي ظلاله.

النموذج الاسلامي الرفيع

-١-

عن عمر قال: كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من أصحاب رسول الله، إذ ضربَ رسولُ الله منكبَ عليٍّ فقال: **«يا علي، أنت أول المؤمنين إيماناً، وأول المسلمين إسلاماً، وأنت مني بمنزله هارون من موسى»**.. وعن أبي أيوب قال: قال رسول الله: **«لقد صلت الملائكة عليَّ وعلى عليٍّ، لأنا كنا نصلي ليس معنا أحد يصلي غيرنا»** وعن أبن عباس قال: نظر رسول الله ﷺ إلى عليٍّ فقال له: **«أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة»**. ومرضت فاطمة بنت محمد فجاء أبوها رسول الله يعودها، فسألها عن حالها، فقالت: يا أبت، لقد أشتهر حزني واشتدت فاقتي، وطال سقمي، فرد عليها رسول الله: **«أو ما ترضين أني زوّجتك أقدمهم (أصحابي) سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حكماً»**.

عليّ ابن عم رسول الله، والخليفة الرابع، هو موضوع هذا الكتاب الذي ألفه الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي، سيرةً لبطل من أبطال الاسلام، وإمام من أئمته، وحاكم من أرفع حكامه، ولنموذج إسلامي رفيع، قلَّ أن يجوز بمثله الزمان.

عليّ الذي عاش «يناضل دفاعاً عن الشريعة والعدل والحق والمودة والإخاء والمساواة والسلام» (٢/٣٩٨ عليّ إمام المتقين)؛ والذي قاد المتقين ليقر عدل الله في الأرض، وليجعل المساواة دستور الحياة (٢/٢٣٣ عليّ..)، والذي ضرب المثل غالباً لكل مسلم يعبد الله في النضال من أجل الحق والعدل والعزة والإباء والشرف والحرية واحترام الحقوق، والالتزام بالمسؤولية، والوفاء بالعهد، وأداء الواجبات..

ولقد صدر عن الإمام أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب مئات الكتب وآلاف الدراسات والبحوث، ولكن قلما أضاء مصدر من هذه المصادر شخصية الإمام وعظمته، كما أضاء هذا الكتاب سيرة الامام عليّ وبطولته وتضحياته الجسام من أجل العقيدة، ومن أجل الاسلام والمسلمين، وكلمة الحق، والانتصار للعدالة والحرية والإخاء والمساواة وحقوق الانسان.

وبين يديَّ الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي صدر هذه الأيام في تسعة فصول وأربعمائة صفحة، ليكمل سيرة هذا النموذج العظيم للمسلم وللإسلام، كما أوحى به الله عز وجل على خاتم رسله وأكرم أنبيائه، محمد ﷺ.

-٢-

والشرقاوي مؤلف هذا الكتاب (المولود في ١٠ نوڤمبر ١٩٢٠)، كاتب وصحفي، وأديب ومؤلف، قبل أن يكون قانونياً، وموظفاً، وعضواً في كثير من المجالس التشريعية والشعبية والثقافية والإعلامية.

اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية

كتاب يوضح المقارنة بين فقه أبي حنيفة وفقه الشافعي.

الفقهاء يختلفون أحياناً كثيرة في الحكم الشرعي لأن لكل فقيه مصادره ولكل فقيه اجتهاداته وما أكثر ما اختلف الفقهاء في الأحكام الشرعية وهو اختلاف ينم عن سعة أفق وغزارة مادة وتعدد مصادر ومحاولة جادة للوصول الى هدف الشارع الحكيم وبين يدي كتاب قيم للامام الشيخ محمد عبد الحميد الاسمندي (المتوفى في عام ٥٥٢هـ - ١١٥٧م) وهو صادر عن مكتبة دار التراث في القاهرة في (٥٣٤) صفحة بتحقيق وتعليق العلامة الاستاذ الدكتور محمد زكي عبد البر أثابه الله على عمله الجليل النافع وعنوان الكتاب (طريقة الخلاف في الفقه بين الأئمة الأسلاف) أما المؤلف فهو الامام الاسمندي (٤٨٨-٥٥٢هـ) الحنفي وقد ولد بسمرقند وتوفي ببخارى عن أربعة وستين عاماً ويعرف بالعلاء وكان عالم علماء الشرق وله كتاب آخر عنوانه (أصول الفقه) وهو منسوب الى قرية من قرى سمرقند اسمها اسمند وهو من فحول الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وكان إماماً بارعاً في فرسان الكلام وقدم بغداد وجالس فقهاءها وناظر علماءها وكان بارعاً في العلوم كلها أصولها وفروعها مفرط الذكاء قليل النظير.

وأما المحقق فهو علم من أعلام القانون والفقه وأصوله في عصرنا وقد شغل مناصب قضائية رفيعة فقد كان نائب رئيس محكمة النقض سابقاً وهو أستاذ للشريعة الإسلامية والقانون المدني في كليات الشريعة والقانون بالأزهر والجامعات العربية ومن مؤلفاته:

- نظرية تحمل التبعة في الفقه الإسلامي - القاهرة ١٩٥٠.
- الحكم الشرعي والقاعدة القانونية - الكويت ١٩٨٢.
- التصرفات والوقائع الشرعية - الكويت ١٩٨٢.
- الربا وأكل المال بالباطل - الكويت ١٩٨٢.

- تقنين الفقه الإسلامي - قطر ١٩٨٢ .
- أحكام العقود الناقلة للملك - قطر ١٩٨٥ .
- أحكام المعاملات المالية في الفقة الحنفي - قطر ١٩٨٦ .
- تحفة الفقهاء للسمرقندي (٥٣٩هـ) وطبع دمشق ١٩٥٩م .
- ميزان الأصول في نتائج العقول - قطر ١٩٨٤ .

وغيرها العديد من البحوث والدراسات العلمية الجادة .

والكتاب (طريقة الخلاف) محقق عن مخطوطة في مكتبة قولة بدار الكتب المصرية نسخت عام (٦٧٣هـ) ومؤلفه يعرض فيه العديد من المسائل في الفقه كانت محل خلاف بين الفقهاء في مختلف أبواب الفقه الاسلامي وفي كل مسألة يعرض المسألة كما هو رأي الأحناف ثم يذكر رأى الشافعية فيها وقد يعرض للخلاف بين الحنفية انفسهم معللاً ومرجحاً مع بيان أدلة كل رأي وما يوجه إليه من اعتراض والمحقق يجتهد في تحقيق النص مشيراً الى المصادر ومخرجاً للأحاديث ومترجماً للأعلام .

ولقد بذل غاية الجهد في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً رفيعاً في صبر وأناة وصدّر الكتاب بكلمة للمرحوم الشيخ علي الخفيف استاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة كتبها مقدمة لكتاب (تحفة الفقهاء) بتحقيق الدكتور الاستاذ محمد زكي عبد البر والمقدمات التي مهد بها المحقق للكتاب دسمة ومفيدة وتقع في نحو ستين صفحة والكتاب في مجمله مقارنة بين فقه أبي حنيفة وفقه الشافعي وقد تمت المقارنة بين أبي حنيفة وصاحبيه رحمهم الله جميعا وآجزل لهم حسن الأجر والثواب .

ونعرض هنا بعض صور من الكتاب لتدل على منهج المؤلف فيه وطريقة المحقق الى تحقيقه :

١ - الزكاة واجبة في الحلي عند أبي حنيفة ولا تجب فيها عند الشافعي يقول المحقق هنا إن عدم وجوب الزكاة فيها عند الشافعي إذا كانت حلياً يحل لبسها كحلي النساء وخواتيم

الفضة للرجال ونحوها فلا زكاة فيها في أحد القولين وقال الشيرازي في (المهذب) فيه قولان أحدهما: لا تجب فيه الزكاة والثاني: تجب واستخار الله فيه الشافعي واختاره وفي رؤوس المسائل للزمخشري الزكاة تجب في الحلي عندنا (أي الحنفية) سواء كانت للرجال أم للنساء وعند الشافعي لا تجب إذا كانت للنساء والمؤلف الاسمندي يعلل لوجوب الزكاة في الحلي بإفاضة ويذكر أن وجوب الزكاة فيها معارض بقوله عليه السلام: «لا زكاة في الحلي» ويقول ابن عمر: زكاة الحلي إعارتها، وعن الحديث يقول المؤلف: إنه غير ثابت ولئن ثبت فيحمل على اللآلي والجواهر، والمحقق لا يترك كلمة بدون تعليق وفائدة واشارة الى المصادر (راجع ١٢-١٤ من الكتاب).

٢- النية في الصوم عند الأحناف إذا صام رمضان بمطلق النية أو بنية النفل أجزأه وعند الشافعيةلا يجزئه لأن صوم الفرض والواجب لا يصح بدون نية الفرض والواجب، وأما التطوع فيصح بمطلق النية والمؤلف يعرض لأدلة الأحناف في هذه المسألة ويقول: إن حكم الأحناف فيها معارض بقوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى»**. والمحقق يجلي الموضوع في تعليقه مشيراً الى المصادر المختلفة.

٣- الأب لا يملك إجبار البكر البالغة على الزواج ويملك إجبار الصغيرة سواء كانت بكراً أم ثيباً وغير الأب والجد مثل الأخ والعم يملك تزويج الصغيرة والصغير ولها الخيار إذا بلغا فيرفعان الأمر إلى القاضي حتى ينسخ القاضي عقد الزواج وعند أبي يوسف يقع العقد لازماً والمؤلف يفيض في شرح المسألة إفاضة بالغة ويتابعه المحقق في الشرح والتدليل وذكر المصادر ويستوفي المؤلف في هذا الموضوع كل الآراء والادلة باستيعاب.

٤- قضاء القاضي في العقود بشهادة الزور ينفذ ظاهراً وباطناً عند الأحناف وعند غيرهم ينفذ ظاهراً لا باطناً والوجه فيه عند الحنفية أن القاضي قضى بأمر الشرع فينفذ قضاؤه ظاهراً وباطناً قياساً على الشهود الصادقين ويقول المؤلف: لا نسلم بأن القاضي قضى بأمر الشرع فإن ذلك إذا كانت الشهادة صدقاً قطعاً أما إذا كانت الشهادة صدقاً عند القاضي وهي كذب في نفسها فهو غير مأمور بالقضاء بل منهي عنه لما فيه من تحليل الحرام وتحريم الحلال وإلحاق الضرر بالمسلمين وقد يقول معترض: إن صدق الشهود أمر باطن لا يمكن القاضي

الوقوف عليه فلو علقنا الأمر بالقضاء به لا يمكنه فيؤدي إلى تعطيل المصالح، والجواب عن ذلك بأمرين:

الأول: أنه إنما يؤدي الى تعطيل القضاء إن لم يكن القاضي بنى قضاءه على العلم وأنه يمكنه أن يقول: إذا كان الشهود صادقين قضيت بكذا.

والثاني: إن لم يمكنه العلم بصدق الشهود يمكنه تحصيل الظن به الخ.

الكتاب رائع حقاً، والحجاج حول الأحكام مفيد كل الفائدة وهذا لون طريف من ألوان الحجاج الفقهي حول الأحكام الشرعية ويدل على عقل فقهي واسع الأفق عميق المادة غزير العلم.

وبعد فإنني لا أملك إلا أن أشيد بالكتاب وبمؤلفه إشادتي بالمحقق الجليل الذي أثرى الكتاب بما أضاف إليه من تعليقات ذات مادة غزيرة وعلم واسع وعقل قانوني بعيد الغور... والله ولي التوفيق.

شوقي ضيف و «تاريخ الأدب العربي»

موسوعة «تاريخ الأدب العربي» العالم الجليل الدكتور شوقي ضيف موسوعة حافلة، ذاعت شهرتها وانتفع بها الباحثون والدارسون والأساتذة في كل مكان من العالم العربي والإسلامي، وتقع في عشرة أجزاء: العصر الجاهلي - العصر الإسلامي - العصر العباسي الأول - العصر العباسي الثاني - عصر الدول والاعارات والعصر الأخير يقع في ستة أجزاء ضخام: جزء عن تاريخ الأدب، العربي في الجزيرة العربية والعراق وإيران وجزء عن تاريخ الأدب العربي في الشام وجزء عن تاريخ الأدب العربي في مصر وجزء عن تاريخ الأدب العربي في الأندلس.

وآخر عن تاريخ الأدب العربي في ليبيا وتونس وصقلية وآخر عن تاريخ الأدب العربي في الجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان والجزء الأخير هو عاشر هذه الموسوعة الكبيرة، وهو الخاتم لها، والمتمم لحلقاتها.

«عصر الدول والامارات: الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان» سفر قيم صدر في سبعمائة صفحة، أرخ فيه الدكتور الجليل للأدب العربي ومسيرته الحافلة، وعطائه الكبير، على توالى الأجيال منذ بداية العصر الإسلامي حتى العصر الحديث، في هذه الأقاليم الأربعة «الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان» في استيعاب ودقة وعمق، وثراء دراسة، وجمال عرض، ودقة تحليل، وعمق استيعاب.

تتبع الدكتور ضيف مسيرة الأدب في الجزائر في ظلال الأغالبة، والأدارسة، والدولة الرستمية، والدولة العبيدية، والحمادية، ودولة المرابطين، والموحدين والدولة الحفصية، ودولة بني زيان في تلمسان، وفي ظلال الحكم العثماني، حتى كان الاحتلال الفرنسي لأراضيها عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠) مكملاً تتبع كذلك تاريخ الأدب العربي في المغرب الأقصى في ظلال حكم الولاة الأمويين، ودولة بني حدرار الصغرية في سجلماسة، ودولة الادارسة، والمرابطين والموجودين والدولة المرينية، والسعدية.

وكذلك صنع الدكتور الكبير في مسيرة الأدب العربي في موريتانيا، في ظلال دولها: دولة المرابطين أو دولة صنهاجة الموريتانية وما تلاها من دويلات.

وصنع مثل ذلك في مسيرة الأدب العربي في السودان ومسيرة الأدب في ظلال دوله المتعددة التي قامت على أرضه، ثم في ظلال دولة المهدى، وحكم الاحتلال الانجليزي الآثم مسيرة طويلة وتتبع دقيق، لحركة الأدب العربي وعطائه في الشعر والنثر، وتحليل جميل لروائع هذا الأدب شعراً ونثراً وتأليفاً وللحركات الثقافية والأدبية في هذه البلاد التي استظلت بظل الإسلام.

إنه لجهد شاق، وعمل كبير، لا يستطيع القيام به أحد، وينوء بالعصبة أولي القوة، رجوع إلى مصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة وإلى ما كتبه الأعلام المعاصرون في كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيها، ودراسات لمئات الأعلام من علماء وأدباء وشعراء وكتاب ومؤلفين، ونقاد، مما ينطق بعظمة هذه الموسوعة وأهميتها وقيمتها العلمية والأدبية.

إن هذا الجزء الخاص بالجزائر وأخواتها هو نهاية هذه السلسلة الضخمة المنوعة، وبه تنتهي أجزاؤها العشرة الحافلة بدراسات عميقة لتاريخ الأدب العربي وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث، في مختلف الدول العربية الاسلامية.. ولقد عني الدكتور الجليل أيما عناية بجانب ذلك، بأشهر الأعلام في الفلسفة ومختلف العلوم، من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ في كل بلد عربي على مر الزمن، مما يجعل لهذه الموسوعة أهمية كبيرة، وبخاصة أنها تحمل تاريخ الأمة العربية الأدبي والفلسفي والعلمي والحضاري قبيل العصر الحديث.

حضارة الاسلام.. جارودي

الإنسان. . . أولاً وأخيراً.

الإنسان هو الغاية كلها من المذاهب والنظريات والمبادىء سعادته وأمنه، وطمأنينته ورفاهيته هي كل ما يريد دعاة الاصلاح، ورواد الفكر، الوصول إليه.

وكل ما يبدد أمل الانسان وحلمه بحياة أفضل، هو صرخه مدوية - ولا ريب - في وجه العصر جاءت أخيراً في هذا الكتاب «رجاء جارودي وحضارة الاسلام».

تأليف الكاتبة أمينة الصاوي ود. عبد العزيز شرف.

إن المشكلات التي تضعها أمام الإنسان قدراته الكبيرة، التي زودته بها العلوم والتكنولوجيا لتجعل من الحتم البحث في العودة الى النبع أمراً ضرورياً.

هذا النبع، لم يجده مثل «رجاء جارودى» - بعد رحلته الطويلة المضنية - إلا في الإسلام، الدين الذي يقف من مشكلات الحضارة موقفاً إيجابياً. في الوقت الذي يحذر الانسان من انخداعه بمتع الحياة، ومن أن تصبح له فتنة، ويصبح مفتوناً بها، يركز نظرته في الحياة إليها وحدها، ويقصر نشاطه وسعيه على تحصيلها تاركاً الهدف الاساسي في الحياة كلها، والوجود كله، وهو الايمان بالله، سبحانه وتعالى مالك الملك، ذي الجلال والإكرام.

وخلال الرحلة الطويلة، والمسيرة الدائبة التي سار فيها رجاء جارودي هذا المفكر الفرنسي العربي الكبير، من الماركسية، الى الشك في الماركسية إلى نقدها الى نقضها الى الايمان بالاسلام، واليقين بأنه دين الحضارة الانسانية، اليوم وغداً وبعد غد، الى السكينة الشاملة بأنه الدين الأمثل القادر على علاج أزمات الانسان والحياة والحضارة المعاصرة، والقادر وحده، على تجديد الحياة، وبناء الإنسان، وتحقيق أمال البشرية.

وإذا كان «رجاء جارودي» في رحلته الفكرية الطويلة الشاقة، عبر المذاهب الفلسفية والاجتماعية، كان يركز على مشكلة الانسان، فإنه عند شاطىء اليقين أدرك أن إنسان القرآن

الكريم هو الهدف المنشود من وراء رحلته الفكرية.

هذا الفكر المتجدد لرجاء جارودي، هو الذي صدر عنه أحدث كتاب وأخطر كتاب في الوقت نفسه وهو كتاب «رجاء جارودي وحضارة الإسلام»، للمؤلفين الدكتور عبد العزيز شرف، والاستاذة أمينة الصاوي.

وفي سلامة منهج، ووضوح أسلوب، وقوة حجة يمضي المؤلفان الفاضلان في أبواب كتابهما السبعة الفكر الأوروبي وعبقرية الإسلام- الماركسية ونقد الماركسية حقيقة - كلها - أضاليل اليهودية - الإسلام هو الحل الوحيد - الإسلام ومستقبل الحضارة - من شك إلى سكينة الإيمان. . ثم تأتي الخاتمة: المحور هو الإنسان.

والكتاب، ولا ريب، من أجلّ ما يمكن أن يقرأه كل الناس في يومنا الحاضر، وفي كل وقت، وفي كل مكان وزمان.

لقد صدر في وقته المناسب، ولسد حاجة الشباب الحائر بين الشك واليقين.

مواقف في حياتي.. للسحار

ما صورة مصر منذ أوائل القرن العشرين حتى اليوم؟

وما مدى النشاط الثقافي والأدبي والتأليفي والنشر في هذه الفترة؟

ومن أشهر أدباء القرن وكتابه؟ كل ذلك يخيب عنه الأستاذ سعيد جودة السحار في كتابه (مواقف في حياتي) بأسلوبه السهل اللطيف الممتع، وصياغته الفنية التي تقترب فيها الفصحى من اللغة الشعبية الذائعة، ويقص علينا المؤلف في كتابه قصة الحياة المصرية وقصة حياته هو في هذه السنوات الطوال من القرن العشرين.

وسعيد جودة السحار لا ينسى الدقائق واللفتات الذكية، والمواقف العجيبة في حياته منذ طفولته حتى اليوم..

والمؤلف أديب وكاتب ومؤلف، وهو كذلك من رواد النشر في العالم العربي اليوم وهو قد اتخذ النشر وصنعة الكتاب هواية له منذ تخرج من الجامعة حتى اليوم، حيث يعمل منذ ستين عاماً بجد وعزيمة قوية في هذا المجال، معتقداً أن للناشر العربي رسالة يجب أن يؤديها لبلاده ولأبناء أمته.

والمؤلف بعبقريته وحبه للعمل والإنتاج أثرى الثقافة العربية إثراء حقيقياً قلما كان له نظير في ذلك.

أنشأ عام (١٩٣١) أثر تخرجه مباشرة مكتبة مصر وفي عام (١٩٤٠) أنشأ دار مصر للطباعة، واشترك عام (١٩٤٣) مع شقيقه عبد الحميد جودة السحار في إنشاء لجنة النشر للجامعيين التي مهدت لظهور جيل جديد من الأدباء الكبار أمثال نجيب محفوظ وباكثير، وعبد الحليم عبد الله، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، وعبد الحميد جودة السحار وغيرهم.

ولقد مرت الأيام على المؤلف بحلوها ومرها، وبخيرها وشرها، ومع اختلاف

الشخصيات والمستويات الخلقية والفكرية، وهو بابتسامته الرقيقة. وبعوده الصلب، وبحبه للعمل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

•

وقد نشأ المؤلف محباً للكتاب وللثقافة وللأدب، ينظم الشعر والزجل، ويقرأ ويكتب القصص والروايات.. ترجم بعد تخرجه من كلية الآداب بجامعة القاهرة عام (١٩٣١) خرافات أيسوب، وإبراهيم لنكولن، وغيرهما.

الكتابة سيرة ذاتية صادقة، ويتميز بأسلوبه القصصي، وبعمق تجاربه التي صورها، وبكثرة الحركة والمفاجآت والصراع في شتى مواقفه.

الناس والعصر

وماذا أقول عن «الناس والعصر»؟ هذا الكتاب الذي أثار قضايا العصر الفكرية والأدبية والاجتماعية أمام أذهان الناس بأسلوب عصري جميل مركز حتى عن أجمل شيء في العالم يتحاورون حواراً جذاباً ينتهي إلى لوحة مبدعة لأسرة صغيرة في بيت سعيد.

وأسلوب الحوار ولغته في كل الكتاب فيهما جانب كبير من الطرافة والمتعة والجمال، وعن جنون المساء والسهرة.

والمسرة، والعقد والأحلام، يدور كذلك حوار شيق يدار فيه بحث قضايا العصر والناس.

وسوف تعجب كل العجب وأنت تقرأ «على أطلال الثقافة الأوروبية»، أو «الثانية في الترتيب بين المتوحشات» أو «جرح في قيثارة الغزل» أو «من يشتري ضوء الشمس والقمر؟» الى أخر هذه الموضوعات الطريفة.

قصيدة إليوت «الخراب» أو «الأرض اليباب» التي نظمها عام (١٩٢١) وهو يستشفى في «لوزان» والمقطع الطويل المحذوف منها عن سفينة تغرق ووصف اليوت نفسه لها مذكراته بأنها قصيدة مهوشة يعوزها التناسق، يعرض لها الكاتب الاستاذ نصر الدين عبد اللطيف بالنقد الجميل والعميق معاً، ويصفها بأنها تعبير عن العصر وأزمات الانسان والانسانية في المجتمع الصناعي المتقدم في أوروبا وأمريكا بعد الحرب العالمية الأولى، ومظاهر إخفاق الحضارة الأوروبية وتمزق الإنسان المعاصر، وكيف أن عالمنا الحاضر يعيش رؤى شعرية جديدة، ويتلقى مذاقاً جديداً للشعر المعاصر.

إن نصر الدين عبد اللطيف قد سجل عصره، نقشه أو رسمه، في لوحات فنية ساحرة، تكاد تكون علامة على عصرنا الذي نعيشه ونحياه.

واحة الفكر

هذا السفر القيّم الذي صدر في تونس، هو من أمتع وأجل ما يقرأ من هذه الأيام (دراسات في الحضارة والتاريخ والتراث) تثري الثقافة والمعرفة والفكر العربي حقاً، ويجد فيها القارىء والباحث متعة لا تعادلها متعة، وفائدة لا تدانيها فائدة، وإضاءة واسعة لكثير من نواحي الثقافة العربية والانسانية. وكما يقول صاحب الواحة: (تجد فيها - في هذه الدراسات - ما يثيرك ويحثك على التأمل والمتعة - وسوف تجد أن في واحة الفكر اكثر من روح ثقافية أردتها قصداً).

والمثير في هذه الدراسات حقاً أن أكثرها إن لم يكن كلها جديد حقاً؛ فكراً ومحتوى وموضوعاً، وأنها تضيف لمعارفنا الكثير مما كنّا نجهله، وتوقفنا على أبواب خفية لمدينة ساحرة مجهولة من تاريخنا الاسلامي والعربي الخالد. الكثير من موضوعات الواحة يتصل بتونس (الفكر والحضارة والتاريخ) اتصالاً وثيقاً - وتونس هي باب الإسلام والعروبة الى المغرب العربي والى قلب أفريقيا والى كل أنحاء العالم - وهي في عقل ووجدان كل عربي وكل مسلم في المشرق والمغرب وأقول لك أيها القارىء العزيز: إن هذا الكتاب هو أجمل زاد يملأ حياة الانسان ثراء وطموحاً وسعادة - وهو السفر الذي يصل ما بين الفكر التونسي والفكر العربي الحديث بصلات وثيقة حبيبة الى القلب والعقل والنفس والروح.

في الواحة نقرأ موضوعات شيقة حقاً تتصل بتونس وبتاريخها وحضارتها وفكرها، بأوثق الأسباب - نقرأ ما يلي:

- دخول المصحف الشريف لأفريقية تونس.
- تاريخ المصحف الشريف بتونس من المخطوط الى المطبوع.
- الخط القيرواني حلقة حضارية بين المشرق والمغرب.
- الديوان فضاء مدني لتسيير ولاية تونس العثمانية.
- الكتابة الخطية في المراقد العثمانية بتونس.
- اسبيس مدينة صمدت أمام الرومان أيام الحروب البونية.

- المؤتمر الأفخر ستى حملة صليبية تاسعة على تونس.

كما نقرأ بحوثاً فكرية ثرية عن:

- جذور الفكر الإصلاحي بين حركة الشيخ محمد رشيد رضا والنخبة الاصلاحية في تونس.

- الاستشراق. . . الواقع والآفاق المواجهة.

- الرباطات ودورها العسكري والثقافي والديني.

- الاختام القرآنية بين الأصالة والتراث.

وكل هذه الدراسات والبحوث تزيد عقل الانسان العربي وفكره معرفة وعلماً وثراء.

والمؤلف لهذا السفر الرائع - الواحة - من هو؟

هكذا أيها القارىء الكريم قد قرأت للأديب الاستاذ محمد الصادق عبد اللطيف من قبل الكثير من المقالات التي تنشر له في الدوريات التونسية والعربية على مدار الايام، والاستاذ محمد الصادق أديب تونسي مشهور ومعروف في شتى الاوساط العلمية والادبية والثقافية تاريخه الطويل والمضيء في الثقافة العربية المعاصرة، في وطنه تونس الحبيبة وفي خارج الوطن حيث مشاركاته العلمية في ندوات عربية في المغرب والعراق والأردن وتونس، وانتسابه لعديد من الجمعيات الثقافية (الخطاطين في كل من العراق والاردن، الادب الحديث في مصر، الفن المعاصر في اليرموك بالأردن، الكتاب التونسيون وبالامانة العامة للأدباء العرب).

إنه هو صاحب الواحة ومبدعها ومؤلفها والذي شدنّا الى الوقوف في الواحة وإذا بها في سعادة غامرة تملأ كل مشاعر الانسان وهو يقرأ هذا الزاد الثمين الغني بكل سمات المعرفة الانسانية، إنه الباحث الأمين محمد الصادق عبد اللطيف (من تونس) صديق الفكر والقلم والبحث والذي أمتعنا بحق بهذا الأثر الثالث له بعد كتابيه عن مدينة قليبية الزاهرة هنيئاً له بهذا الاصرار على البحث والحضور الثقافي وهنيئاً لتونس الحبيبة بأمثاله، وإلى كتاب آخر يا أخ محمد الصادق في القريب إن شاء الله.

رحلة إلى المملكة العربية السعودية

-١-

الكتاب عنوانه: «الأيام المبرورة في البقاع المقدسة، وهو رحلة للحج والزيارة إلى الأرض الحجازية في عهد الملك عبد العزيز آل سعود - طبع القاهرة - (١٩٩٩) والمؤلف هو المفكر الإسلامي الكبير محمد لطفى جمعة - المتوفى من يناير (١٩٥٣) - صاحب المؤلفات المشهورة، مثل الشهاب الراصد، ومكرمة قانون العقوبات - وحياة الشرق - ومائدة أفلاطون وسواها.

وكان محمود لطفي جمعة من أشهر المحامين من مصر، ومن كبار المفكرين الإسلاميين، ومواقفه في نقد الفكر الاستشراقي مواقف خالدة لا تُنسىَ على مرور الأيام.

وهذه الرحلة كانت بهدف تأدية فريضة الحج في المقام الأول، وفي شتاء عام ([١٣٥٩-١٣٦٠ موت ١٩٤٠ - ١٩٤١م)، أي منذ نحو ستين عاماً، إلى أن المؤلف أراد منها كذلك استكمال مباحثه التاريخية والجغرافية والدينية في السيرة النبوية أن طبع الجزء الأول من كتابه عن سيد الأنبياء؛ وكذلك هدف من وراء الرحلة مشاهدة الأماكن والبقاع التي ورد ذكرها في كتب السيرة، للحديث عنها حديث من رأى بعينه، وانفعل بقلبه وروحه ووجدانه.

وقد وصف المؤلف في هذه الرحلة مناسك الحج وشعائره منذ الوصول الى مكة المكرمة، ثم زيارة المدينة المنورة؛ وسجَّل مشاهده وخواطره ومشاعره وانفعالاته العقلية والنفسية والروحية عند كل مشهد وكل بقعة وكل شعيرة.

كما سجل المؤلف لقاءاته بالملك عبد العزيز آل سعود، ونائبه الأمير فيصل، واستقبالهما له وأحاديثه معهما بالقصر القديم، وبخاصة حديث الملك عن العلاقات بين مصر والسعودية، وبين الشعبين السعودي والمصري.

ووصف المؤلف المآدب التي أقامها الملك لكبار المدعوين من حجّاج بيت الله الحرام بقصر المعابدة والقصر العالي، وسجل الكلمات التي ألقاها الملك في هذه المناسبات الكريمة، كما سجل المؤلف خطبته التي ألقاها هو في حضرة الملك العظيم.

ووصف المؤلف في كتابه موكب قدوم الملك إلى البلد الحرام لتأدية فريضة الحج مع أنجاله الأمراء ومع وزرائه ورجال حاشيته، وخروج الشعب وأعيان حبرة والطائف ومكة للقائه، ثم طوافه طواف القدوم بالكعبة المشرفة، وسعيه في ضوء المشاعل بين الصفا والمروة، فكان - كما يقول المؤلف - أرفع الطائفين والساعين قامة، وأكبرهم هامة، وأكثرهم جلال وهيبة، مع التواضع لله والشعور بعظمته، سبحانه وتعالى بحيث يجمع بين روعة الإيمان، وسكينة الخشوع، مما جعل لهذا المشهد هيبة وجلالاً، حتى صار بالغاً غاية الجمال والجلال، مع بساطته التي لاحدَّ لها.

وتحدث المؤلف في رحلته عن لقائه بالعديد من أمراء البيت الملكى ورجالات الدولة، كالأمير مساعد، والأمير فيصل، كما سجل لطفي جمعة لقاءه بالشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ قاضي القضاة في نجد، شيخ الإسلام، وهو من سلالة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عليه رحمة الله ورضوانه.

ولم يفت المؤلف أمر يتحدث في رحلته عن الكثير من مظاهر الحياة الفكرية والثقافية والأدبية والاجتماعية في المملكة العربية السعودية على عهد الملك عبد العزيز، وأن يذكر لقاءاته بالعديد من أدباء السعودية وكتابها وشعرائها في مكة والمدينة وجدة، ووصف المؤلف مظاهر النهضة الحديثة في المملكة في مختلف الجوانب في عهد الملك العظيم، وأشار المؤلف في رحلته وخطبه التي ألقاها بين يدي الملك بالأمن الذي يسود كل أنحاء المملكة، وبتنفيذ الحدود، وتطبيق الشريعة في البلاد، والمساواة التامة بين الكبير والصغير من إقامة الحدود وتنفيذها، حتى انقطعت الجرائم والسرقات والموبقات، وساد الأمن سيادة مطلقة، مما جعل المملكة مضرب الأمثال في هذا السبيل.

والسجل المؤلف في كتابه مقالته عن الملك عبد العزيز، حين زار القاهرة عام (١٩٤٥)، وعن أعماله في تأمين الطرق إلى بيت الله الحرام، ونشر العدالة والمساواة بين الناس، والنهوض بالبلاد في جميع النواحى.

-٢-

وتكتسب هذه الرحلة أهميتها الخاصة من أنها تعتبر وثيقة تاريخية جليلة، ومن المصادر التاريخية الهامة في حياة البلاد وتاريخ المملكة على عهد الملك عبد العزيز، رحمه الله تعالى.

يصف المؤلف رحلة الحج الأليمة قبل عهد الملك عبد العزيز، حيث كان الحج تجارة رابحة للحاكم، وكان الحاج فريسته، فمن الضرب والقتل إلى التعدي على المال والسرقة والخطف ونهب الثياب والطعام واصطناع الحيل لسرقة أمتعة الحجاج، بل ولقتلهم؛ يذكر المؤلف ذلك - ص ٣٣ - ثم يقول: أما الآن فقد تبدل الحال غير الحال، حيث ينعم الحاج اليوم بالأمن والاستقرار يسودان ربوع البلاد، مما صار مضرب الأمثال في جميع الأوسط الدولية، بعيد أن كان الحجاز في يوم من الأيام مضرب الأمثال على اختلال الأمن، واضطراب حبل النظام؛ كان أول عمل قام به الملك عبد العزيز بعد أن فتح الحجاز سنة (١٣٤٣هـ - ١٩٢٣م) إرساء قواعد الأمن على أسس قوية متينة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، فأعلن في مجموع الأهالي ورؤساء القبائل وزعماء العشائر أن دستور البلاد هو كتاب الله وسنة نبيه وأنه سوف يضرب بيد من حديد وبلا رحمة ولا شفقة على كل من تسول له نفسه العبث بالأمن؛ وركز بصفة خاصة على توفير الأمن والطمأنينة لحجاج بيت الله الحرام في جميع المشاعر والمناسك والطرقات المؤدية إليها. وقد حرصت الحكومة السعودية أشد الحرص على تقديم أفضل الخدمات للحجاج، لكي يؤدوا مناسكهم في يسر وأمن واطمئنان؛ وأصبح الحجاج الآن يعودون إلى أوطانهم في مشارق الأرض ومغاربها وألسنتهم تلهج بحمد الله وشكره على أن عبد العزيز قد حقق الأمن في بيت الله الحرام، وأن ذلك لم يكن يتم إلا على يدي البطل الملك عبد العزيز، وأصبح الحاج يقبل على الأراضي المقدسة في هذه الأيام بالروح والجسد، فيجد السلام في المجتمع، والأمن في الطريق، والأمانة في الأيدي، والوئام في الأسرة، والكرامة في النفوس، والسكينة في القلوب،

والرضا في العين، والثقة في الحاكم. لقد أحيا الملك عبد العزيز التشريع السماوي، فكان أثر ذلك الخير والطمأنينة والأمن والأمان للناس أجمعين.

يصف المؤلف الحياة في جدة وفي مكة المكرمة الآمنة وصفاً دقيقاً، ويتحدث عن كل المعالم في البلد الحرام عن دار الأرقم، وغار حراء، ودار أبي سفيان التي صارت مستشفى، ودار عثمان بن عفان، وعن شوارع مكة وبيوتها وأسواقها، وعن حجاج بيت الله، من كل الأجناس والشعوب، ويذكر حديثه وحواره مع شخص يمني عجيب، أسمه ناصر بن حسن المحويتي الصنعاني.

ويذكر المؤلف لقاءه بالشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ شيخ الاسلام وقاضي القضاة في نجد.

ويثبت محمد لطفي جمعة مقابلته للملك عبد العزيز بصفة خاصة بالفطر القديم صباح الثلاثاء الثالث من ذي الحجة عام (١٣٥٩هـ - أول يناير عام ١٩٤١م) حسبت الملك محاط بالأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، ومصافحة الملك له وحديث الملك وهو يتكلم بصوت رقيق، ويقول: نحن لا يهمنا شيء غير طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ، وقد ضحَّينا بكلٍّ شيء في سبيل إعلاء كلمة الحق ورفعة شأن المسلمين، ونحن نحسب مصر والمصريين، وأن العلاقة بيننا وبين مصر قوية ومتينة، وقال الملك: إنه لا يهمه الملك وأن الحب كله منصرف إلى رسول الله، فحبه مفروض علينا من الله. ثم تكلم عن حالة المسلمين وأمله في اجتماع كلمتهم وتوحد رأيهم. وهذه المضامين أكدها الملك في خطابه المرتجل البليغ، ومما قاله الملك في هذا الموقف: إن هذه الألقاب التي تعارف عليها الناس من ألقاب الملوكية وأمثالها من المصطلحات ليست محببة إلينا، وإنما المحبب إلينا أو نكون عباد الله، وأن نبذل أنفسنا وحياتنا في سبيل الله ويرتجل المؤلف خطبة بليغة أمام الملك يذكر فيها ما رآه من أمن وطمأنينة ومحبة تسود البلاد، ومن ثقة بالحاكم وتعاون معه على العمل من أجل النهوض بالأمة والدولة والشعب.

وتناول المؤلف العشاء على مائدة الملك مع كبار الضيوف من وفود بيت الله الحرام

في اليوم السادس من ذي الحجة، ويذكر حديث الملك إلى الضيوف، وقام المؤلف وألقى خطبة قيّمة بين يدي الملك، كما ألقى الشاعر أبو الإقبال اليعقوبي الفلسطيني قصيدة جاء فيها:

بلـــد آمـــن وبيـــت أمـــان ... ومليـــك دستـــوره القـــرآن
لـم يـر النـاس مثـل عصـرك عصـر ... أزهـر الـديـن فيـه والإيمـان
قبـس مـن شـريعـة الله عـدل ... لاح فيـه التـوحيـد والبـرهـان
قـد تجلـت فيـه الشـريعـة نـورا ... وتـجلـى للنـاس منهـا البيـان
أيـدتـه عنـايـة الله حتـى ... رسخـت فـي بنـائـه الأركـان
وأقـام الـديـن الحنيـف قـويمـا ... فـتعـا لـى بفضلـه البنيـان

كما يذكر المؤلف لقاءه بالأمير فيصل ورجال الدولة وأحاديثه معهم.

ويدعوه الشيخ محمد سرور الصبان إلى مأدبة في داره وهناك يلقى خطبة طويلة أمام الحاضرين.

ولا ينسى المؤلف أن يتحدث عن صور من الحياة من مكة آنذاك، وعن اللغة والأدب والشعر في الحجاز وعن شمائل أهل مكة، ويخص بالحديث طواف الملك عبد العزيز بالبيت الحرام بعد قدومه من الرياض وسعيه بين الصفا والمروة، ويقول: كان منظر الملك وهو يطوف ويسعى بالغاً غاية الجلال والجمال، مع بساطته التي لاحدَّ لها.

ويذكر دعوة الملك لضيوفه في منى في قصره الملكي ثاني أيام العيد، حيث ألقى المؤلف خطبة قيمة بين يدي الملك في هذا اللقاء استهلها بمخاطبته للملك بيا طويل العمر، وكرر ذلك في جميع فقراتها.

ويذكر المؤلف ما دار من حوارات في هذا اللقاء، ثم انصراف الجميع قبل صلاة الظهر إلى الجمرات.

وينتقل المؤلف الى الحديث عن زيارته المدينة، وعن مشاهده في الطريق إليها، وعن وقفته أمام المسجد النبوي الشريف، ويقول: إن كل ما رأيته من حياتي بعد أن سمعت به وجدته أقل مما تخيلته إلا الحرمين: الكعبة ومسجد الرسول؛ ويصف المسجد وعظمته وصفاً جميلاً رقيقاً، ويدعى إلى مأدبة عشاء في قصر أمير المدينة الأمير عبد الله السديري، حيث ألقى بين يدي المحاضرين خطبة قيمة شكر فيها الأمير ووصف مشاعره حيال كرم الدولة على حجاج بيت الله الحرام.

ويطوف المؤلف بمشاهد المدينة ومزاراتها وأوديتها وجبالها، وبالخندق، وسقيفة بني ساعدة، وغير ذلك.

ثم يركب الباخرة كوثر للعودة إلى أرض الوطن، وفي الباخرة يخطب المؤلف في الحجاج خطبة طويلة يشكر فيها الله عز وجل على ما أنعم الله به عليه وعليهم من نعمة الإيمان، ومن التوفيق لأداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام، وزيارة المدينة ومسجد رسول الله خاتم النبيين وسيد المرسلين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين.

-٣-

والكتاب بصفحاته السبعين والمائتين يعد موسوعة تاريخية عن المملكة - والملك والدولة السعودية في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله.

وهو كذلك وثيقة من وثائق التاريخ تغطي الكثير من الحقائق عن هذه الفترة الحافلة الخالدة من حياة المملكة والدولة والشعب السعودي الطموح.

الرسائل والبحوث الجامعية

د - محمد عبد المنعم خفاجي

-١-

الرسائل الجامعية جزء كبير من رسالة الجامعات، وعنصر من أهم العناصر في أهدافها وغاياتها الفكرية والأدبية والعلمية.

فهي تطوير للعلم، وتجديدٌ له، أولاً؛ وهي خدمة للثقافة والمعرفة والتراث ثانياً؛ وهي ركيزة من ركائز التقدم الإنساني والحضاري ثالثاً؛ وهي بناء لشخصية الأمة وذاتيتها أخيراً.

والبحوث العلمية، التي تتمُّ في نطاق الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة الثقافية والعلمية في الأمة؛ تشارك الرسائل الجامعية في أهميتها وضرورتها للتقدم الفكري، ويسري عليها ما يسري على الرسائل من ضرورة الرجوع إليها، والافادة منها، والعناية بها.

وتمتاز الرسائل باشتراك الطالب والأستاذ في الوصول إلى النتائج الأخيرة لبحوثها، وإن كانت البحوث في أحيان كثيرة تخضع لإشراف الأساتذة وتوجيههم وعلى العموم فإن البحوث خطوة كبيرة من خطوات تقدم العلوم والفنون والآداب، والمعرفة بشكل عام.

وقد يكون من هدف هذه المقالة الحديث عن الرسائل الجامعية في ميدان الآداب بصفة خاصة، والإنسانيات بصفة عامة، لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالتراث العربي، وبتاريخ الأمة العربية الفكري، ولذلك كانت من الكثرة بمكان كبير.

والجامعات الاسلامية والعربية وفي مقدمتها الأزهر الشريف ذو التاريخ العريق؛ تولي الدراسات العليا والرسائل الجامعية، والبحوث العلمية، المزيد من عنايتها ورعايتها، بغية النهوض بالمعرفة والثقافة والعلوم والآداب بشكل عام.

وإذا كانت الأجيال السابقة بإصرارها ودأبها وباهتمامها وعنايتها، قد قدمت للفكر

الانساني من رسائلها الجامعية أفضل الدراسات والبحوث، فإن الأمل متصل في أن يكون الجيل الحاضر أكثر إصراراً على مواصلة الدأب والعمل من أجل بلوغ هذه الغاية لتحقيق الهدف في نهضة علمية مزدهرة. . وشباب الجامعات اليوم، الذين يقومون بعبء الدراسات والبحوث العلمية، وقد أرهقتهم مطالب الحياة المادية، وأضعفت من قدراتهم على المثابرة على البحث الجادّ، نرجو أن يكون عزمهم وإصرارهم أقوى وأشد على مواصله المسيرة، وبلوغ الغاية. وحين يكون الجانب المادي معوّقا لهم عن المثابرة والجدُ المتواصل في البحث، يجب أن نمكِّنهم من الحصول على المصادر والمراجع اللازمة لبحوثهم، وأن نمنحهم المكافأة المجزية، التي تسدُّ نقص مرتباتهم، من أجل التفرغ التام للبحث؛ وأن نضاعف من عناية المشرفين بهم، ورعايتهم لهم، وأن يكون لهم الأولوية في المسكن الجامعي، وأن تفتح لهم مكتبات الجامعات أبوابها، وتسمح لهم بالاستعارة منها.

ومن حيث الإشراف العلمي عليهم، فإن من الضروري ارتباط الباحث بأستاذ ارتباط توجيه، بجانب ارتباطه بأستاذ مساعد وبمدرس معاً لمساعدته في متابعة بحوثه، خطوة خطوة ولتوجيهه أولاً بأول في مختلف المراحل، وأن يقدم الباحث تقريراً شهرياً عن عمله للقائمين بالإشراف العلمي على بحثه.

ومن الضروري كذلك أن تمكن الجامعات الباحثين من القيام برحلات علمية، داخلية وخارجية، للإطلاع على مختلف المصادر والمراجع اللازمة لبحثه في شتى المكتبات العامة في منطقتنا العربية على أقل تقدير وبادىء ذي بدء يجب توحيد سنوات الدراسة لطلاب البحث الجامعي، الذين يريدون النظام للماجستير أو الدكتوراه في شتى الجامعات والمعاهد والمراكز المتخصصة.

وعلى الباحث أن يقدم بياناً مفصلاً عن الموضوع الذي يريد تسجيل رسالة فيه، من حيث أهميته ومختلف المراجع فيه، وما وصلت إليه البحوث الجامعية حوله.

ولنصطلح فيما بين الباحثين والمشرفين على أن لا تزيد رسائل الماجستير عن مائتي صفحة، والدكتوراة عن ثلاثمائة صفحة.

وتقترح أن تكون رسائل الماجستير حول التراث والترجمة للأعلام؛ ودراسة الفكر الأدبي والمدارس والمذاهب الأدبية وحركات التجديد في تاريخ الآداب والنظريات القديمة والجديدة على السواء، هي موضوع رسائل الدكتوراه..

ويجب ألاّ تقبل رسالة ما، ولا أن نوافق على مناقشتها إلا بعد أن يصحبها صاحبها تصحيحاً مطبعياً دقيقاً، يتلافى كل أخطاء الطباعة وتحريفاتها.

-٢-

وعند انتهاء الباحث من بحثه يتحتم عليه كتابة تقرير مفصل عن البحث ونتائجه، ليرفعه إلى المشرف، وأن يكتب المشرف كذلك تقريراً إضافياً عن البحث يقدمه لمجلس القسم، ليوافق على مناقشة البحث، وعلى تأليف اللجنة العلمية الخاصة بالمناقشة والحكم على البحث، وأقترح أن تكون اللجنة من خمسة أعضاء بدلاً من ثلاثة.

ولجنة المناقشة مختصة بالحكم على البحث وبكتابة التقرير الأخير عن البحث، وهو الذي يُرفع إلى الجهات الأعلى لإصدار القرارات النهائية.

وعلى الباحث أن يقدم مع الرسالة أو البحث تقريراً أو ملخصاً مطبوعاً عن الرسالة موضوعاً ومنهجاً وفكراً ومصادر ونتائج، ويمكن أن تساعد الجامعات الباحثين في طبع هذه التقارير مساعدة مادية، وأن يعمّم توزيع هذه التقارير على مختلف مراكز البحث.

ومن الأولى أن تصدر كل جامعة مجلة خاصة بالبحوث والرسائل، بحيث تنشر كل ما يتصل بها من قريب أو بعيد؛ باللغة العربية؛ وتحتوى على ملحق بإحدى اللغات الأجنبية.

وهناك ضرورة لتسجيل الرسائل تسجيلاً قانونياً حتى تأخذ الحصانة بعدم إعادتها أو تكرارها، أسوة بالأعمال الفنية، ولحفظ حق صاحب البحث الأدبي والقانوني.

وهناك ضرورة في أن تشارك الجهات العلمية والمؤسسات القومية في دعم الدارسين لدرجتي الدكتُوراه والماجستير، وشراء الأجهزة العلمية اللازمة لبحوثهم، وبخاصة الباحثين الذين تعالج بحوثهم موضوعات خاصة بالمجتمع والإنتاج والتحديث والتطوير العلمي للمصانع والآلات.

وفي كل جامعة لابد من تُخصيص مركز عام يكون بمثابة مكتبة عامة تحتوى على نسختين من كل رسالة نوقشت؛ يمثل هذا المركز حركة البحث الجامعي في مختلف كلياتها ومعاهدها، ويوكل إليه الإشراف على المجلة الخاصة بالرسائل والبحوث في الجامعة.

ومن أجل الانتفاع بالرسائل والبحوث الجامعية يجب أن نفكر في الخطوات التالية.

١- يتحتم على كل كلية أن تنشر في حوليتها التقرير العلمي الأخير عن البحث، الذي يرفع إليها من لجنة المناقشة تعريفاً به، وإذاعة لمضمونه، وإعلاناً عنه لدى دور النشر المختلفة.

٢- الرسائل الجامعية التي تحقق أصولاً تراثية، تولى عناية كبيرة في تقديمها للنشر في الهيئات العامة والخاصة التي تقوم بأعمال النشر.

٣- مساعدة أصحاب الرسائل في طباعتها، بتقرير شراء مائتي نسخة من كل رسالة جامعية مطبوعة.

٤- اختيار الرسائل المتميزة في كل جامعة لكتابة بيان بها يوزع على دور النشر، لتوليها أولوية في عنايتها، ولتدخلها ضمن مشروعاتها في الطبع والنشر.

٥- النظر في إمكانية إقراض أعضاء هيئات التدريس قروضاً مالية لنشر رسائلهم وبحوثهم على أن تحصل هذه القروض في مدى خمس سنوات.

٦- النظر كذلك في بحث إمكانية تبنِّي الشركات الكبيرة والمصارف المالية ورجال الأعمال نشر بعض الرسائل والبحوث كل عام.

٧- ضرورة اهتمام المجلات الأدبية بالرسائل الجامعية فتنشر كل مجلة دراسات واسعة عن هذه الرسائل والجديد فيها، وعن أهميتها ونتائجها، وذلك في كل عدد من أعدادها، بظلم صاحب الرسالة نفسه.

٨- ينشأ في كل جامعة صندوق خاص لقبول التبرعات من أجل تمويل حركة نشر الرسائل والبحوث الجامعية في مختلف فروع البحث.

٩- تنشأ في كل دار نشر عامة أو خاصة سلسلة للرسائل الجامعية تصدر فيها الرسائل التي يقع أختيارها عليها في كل عام.

١٠- تلزم المكتبات العامة ومن بينها مكتبات الأندية والمدارس والجامعات بشراء خمس نسخ بعد كل رسالة مطبوعة.

١١- اهتمام دور النشر بتسويق الرسائل المطبوعة على نفقة أصحابها لحسابهم، وبمساعدة أصحاب هذه الرسائل في الحصول على حقوقهم المالية.

١٢- بحث إمكان أن تتولى دور النشر الحكومية طبع الرسائل الجامعية لحساب أصحابها، على أن يوزع ثمن الطباعة على سنتين يسدد صاحب الرسالة خلالها المبالغ التي في ذمته لهذه الدور.

١٣- تلزم الجامعات بطبع الرسائل التي تأخذ توصية لجنة المناقشة بطبعها.

١٤- الرسائل التي تكتب عن آداب دول عربية أو غربية يجب أن يتولى قسم العلاقات الثقافية الخارجية في وزارات الثقافة والخارجية والإعلام والاستعلامات الكتابة إلى نظائرها في الدول الخارجية لتسهم في طباعتها.

١٥- قيام كلية في كل جامعة، تختص بالدراسات العليا، وبالرسائل الجامعية، وبكل ما يتصل بذلك من شؤون.

وأخيراً فإن الرسائل الجامعية لا يصح أن تظل حبراً على ورقة، محفوظة في الخزائن دون نشرها وتداولها بين القراء.

وما ذلك بعزيز على الدول التي تطلب لنفسها مكاناً بارزاً بين الأمم في العصر الجديد، وتريد أن تسهم بقسط موفور في بناء الحضارة الإنسانية.

انتهى الكتاب بحمد الله

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**